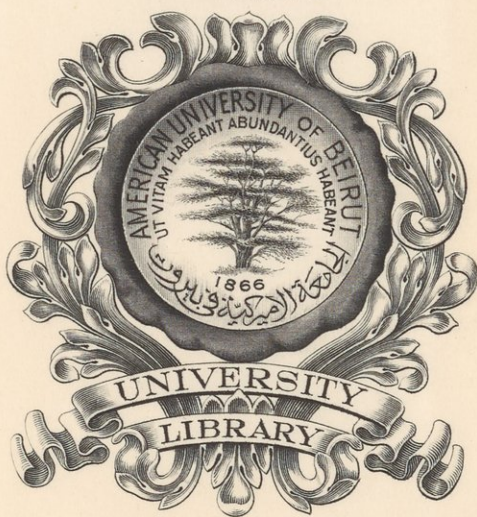


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



27
121
7



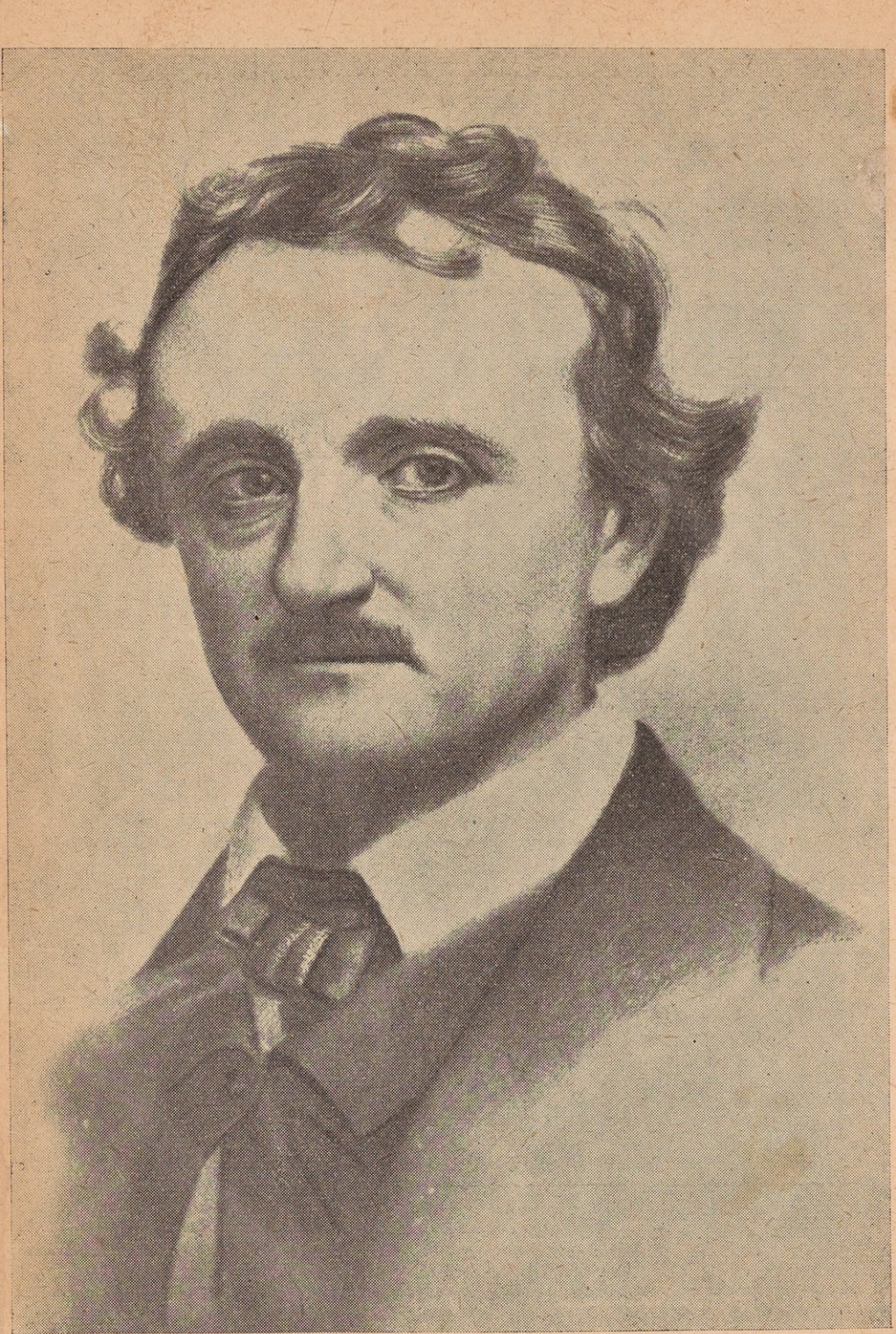
المنخفضة الذهبية

إدجار ألن پو

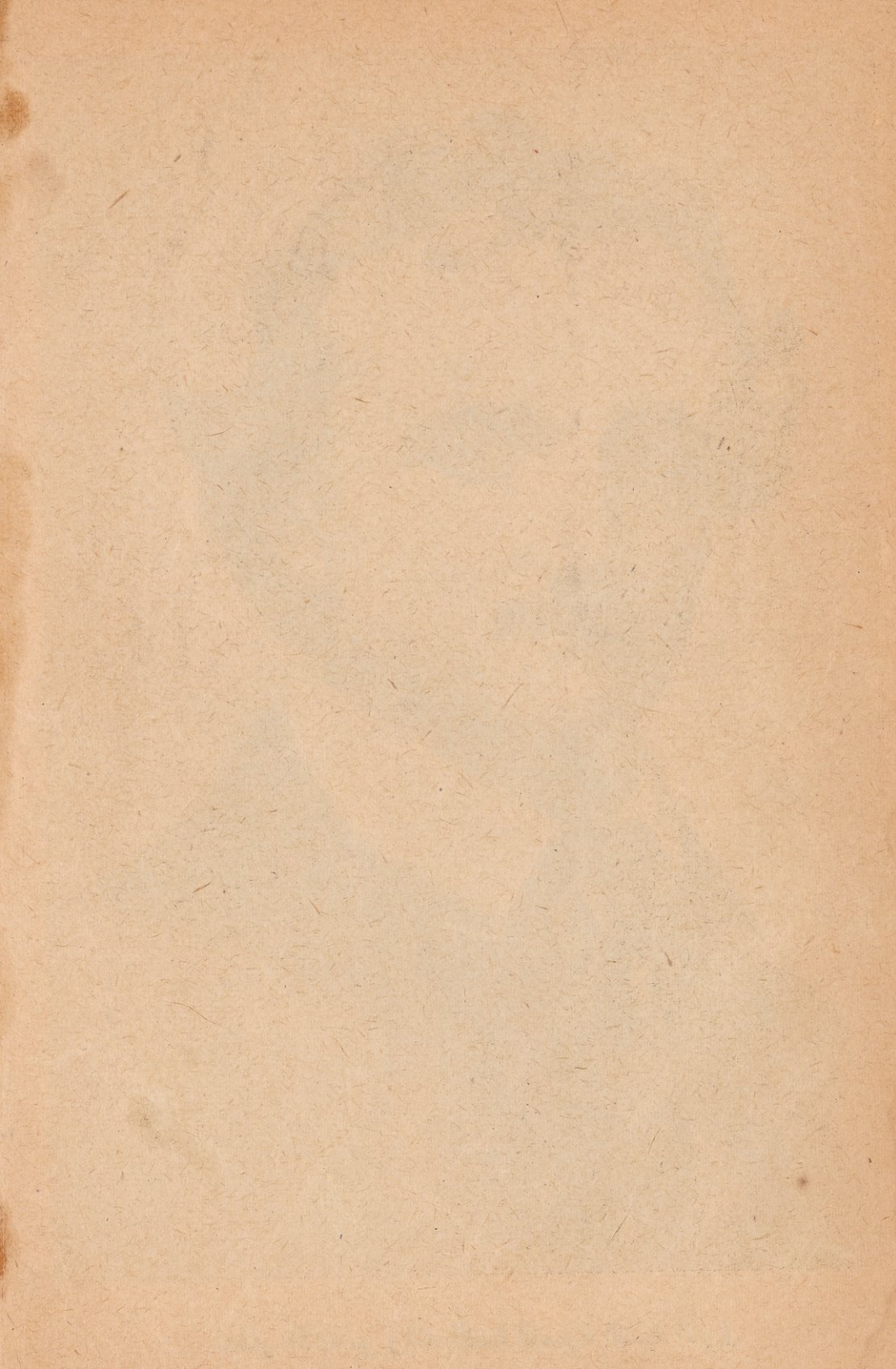
نقله الى العربية
نجاتي صدقي

الناشرون

دار الكتاب



ادغار الان بو رائد القصة القصيرة الفنية الاولى





فرجينيا كلیم قرینه ادغار الان بو

مقدمة

هذه ثلاث عشرة قصة مختارة من عيون قصص الكاتب الكلاسي الأمريكي الكبير إدغار آلان بو ، وهذه هي اول مجموعة تصدر بالعربية لأبي القصة القصيرة الحديثة ، وقد انقضى على وفاته اكثر من مائة عام .

وقصص إدغار بو تحمل طابعاً عقلياً فريداً في نوعه ، فتبدو للقارئ انها تشاؤمية ، في حين انها تعتمد الى تصوير احساس المرء وتخيلاته « القائمة » اروع تصوير .

ولاندفاع الكاتب في هذا التيارات اسباب تكمن في نفسه منذ ان فتح عينيه في هذا العالم .. فقد حُرم من حنان الابوين وهو لا يزال في سن الطفولة ، وهجر ابوه امه ، فماتت بداء السل ، ثم تبنته اسرة جورج آلان فنشأ وهو كسير الخاطر يعيش في جو مزدوج من حب حاضنته له ، وعدم اكتراث حاضنه به ، بل وطرده له من المنزل في نهاية الامر ، ثم وفاة اخيه الاكبر مسلولاً ، ثم وفاة زوجته بداء السل ايضاً .. يضاف الى ذلك سلسلة من المتاعب في سبيل كسب

العيش في كنف عمته البائسة ، في بيت ريفي أو كوخ حقير يقيم فيه
البؤس ، وتعشش عليه الغربان .

لقد بدأ إدغار بو حياته شاعراً لكنه لم يجد ما يستحقه من تشجيع ،
ولم يدر عليه الشعر دخلاً ، فانصرف الى « فن نسيب » آخر ، هو فن
القصة ، فوضع حوالي سبعين قصة بين طويلة وقصيرة ، حملت في طياتها
مدرسة خاصة ، وعبدت الطريق امام كتاب القصة القصيرة في العالم
قاطبة .

ومدرسته هذه تقوم على فن الادب الاحساسي ، « غير العاطفي » ،
انها تخاطب العقل والمنطق ، انها تحث القارئ على ان يكون مفكراً
ومحلاً في آن واحد .

ومن مبادئه في فن القصة انه يرمي دائماً الى ايجاد « الاثر الفردي » ،
ثم يخلق الاشخاص والظروف التي تجعل ذلك الاثر درامياً في ذهن
القارئ ، حتى يصل به ، بعد سلسلة من التحليلات ، الى نتيجة منطقية ..
ففي قصة « ابي الهول » مثلاً نراه يتمخيل صورة وحش هائل تقشعر منه
الابدان ثم يتضح لنا في ختام القصة انه حشرة لا اكثر !..

وفي رأيه ان القصة القصيرة يجب ان تعني شيئاً عقلياً ، وان تقدم
للقارئ في شكل فني جميل .. اما الخيال في القصة فليس جوهرياً وانما
هو بمثابة جسر فقط يوصل عناصر العظمة ، والتسامي ، والمبادئ
المعنوية .

وقد تأثرت القصة الفرنسية بهذا الرأي فصارت تخاطب العقل ،
والفكر المحلل ، عكس القصة الانكليزية والامريكية ، التي كانت تدعو
في باكورتها الى تقويم السلوك البشري .

وإدغار بو استاذ بارع في قصص الرعب ، والجنون ، والجريمة ،
والموت ، وهر يز مشاعر قارئه بشكل مثير لكنه غير غريب عن
الطبيعة البشرية في جوهرها .. ومن أبرز قصصه في هذا المعنى « سقوط
منزل اوشر » ، و « الحفرة ورقاص الساعة » ، و « الحنفسة الذهبية » ،
و « قناع الموت الاحمر » ، و « القط الاسود » ، و « جريمة شارع مورغ » ،
وكلاهما مترجمة في هذا الكتاب .

كان الكاتب في حياته مناضلاً من اجل الحقيقة ، والعدل ، والشرف ،
ومقاوماً للمراءات والسلوك الكاذب .. فهو في نظر الذين يعرفونه
نبيل ، متزن ، وغير اناني .. وهو في نظر الذين لا يعرفونه متغطرس ،
حانق ، سليط اللسان .

وحياة إدغار ألان بو هي قصة ضاربة لرجل ولج عالماً تتزاحم فيه
اشباح البؤس والالم بالمناكب ، وخرج منه محطم الاعصاب ، فاقد
الوعي .. لكنه ترك ثروة قصصية وشعرية جعلته في مصاف الخالدين .

لقد تُرجم الكاتب الامريكي الكبير الى جميع اللغات الحية ، وكان
محط عناية شارل بودلير ، وستيفان مالارمه ، في الناحيتين القصصية
والشعرية .. وها نحن نترجمه الى العربية في نفائس قصصه ، راجين ان
نفيدنا هذه الترجمة في رفع مستوى القصة العربية ، ونحن اليوم احوج
الناس الى مخاطبة العقل ، وتحكيم المنطق .

نجاتي صدقي

بيروت اول ايار ١٩٥٤

إدغار ألان بو

ولد القاص في بوسطن في ١٩ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٠٩ ،
وابوه هو دافيد ارنولد بو، وامه هي اليزابيث بو، وكانت مهنتها التمثيل
في المسرح الفيدرالي ببوسطن... ولإدغار اخ اكبر منه هو وليام
هنري ليونارد ، واخت هي روزالي .

وهجر الاب زوجته تار كماً اياها تكافح الفقر في ريتشموند بفرجينيا
الى ان ماتت بداء السل، والاخوة لا يزالون اطفالاً ، وقد تكفل بهم
بعض اصدقاء الاسرة ، وكان من نصيب إدغار ان تتبناه السيدة جون
ألان ، وزوجها يعمل في بيع التبغ في ريتشموند ، فقضى طفولة
رغيدة في كنف هذه الاسرة ، مع ان جون ألان ما تبناه رسمياً في
يوم من الايام .

واقترضت مصالح رب الاسرة التجارية ان يسافر مع زوجته وإدغار
الى انكلترا ، فاقاموا فيها من سنة ١٨١٥ حتى ١٨٢٠ . وهناك ألحق
الصبي بمدرسة مانور في ستوك - نيوينجتون الواقعة خارج لندن ،

وقصته « ويليام ويلسون » هي ترجمته لتلك المدة من طفولته .

وعادت الاسرة الى الولايات المتحدة بدافع الازمة المالية والمرض . . وكانت هذه العودة فاتحة حياة أليمة لأدغار ، فقد غدا جون قاسياً على ربيبه ، ينتقده كثيراً ، ويضن عليه بالنفقات ، يضاف الى ذلك ان حاضنته التي كرسّت نفسها للصبي اصبحت على غير وفاق مع زوجها بما ادى الى توتر العلاقات بين الحاضن وربيه .

وبدا ذكاء إدغار يتألق وهو يطلب العلم في مدرسة المعلم جوزف كلارك الانكليزية الكلاسيكية ، ثم في جامعة فرجينيا في شارلوتسفيل ، ولما بلغ السابعة عشرة اصبحت وفاد الذهن ، وقد درس الكلاسيين عن ظاهر قلب ، و اضاف الى لغته اللغات اللاتينية والفرنسية واليونانية والاسبانية والايطالية . . . وعندما احس بقلّة المال ، اخذ يقامر في يأس مع زملائه الطلاب ، وخسر وتراكت عليه الديون ، وكانت النتيجة ان حرمه حاضنه من متابعة الدراسة في الجامعة ، فعاد الى ريتشموند ، ليرى الفتاة ساره الميرا ، التي احبها قد تزوجت من غيره ، فعمل خلال فترة من الزمن في حانوت حاضنه جون ألان دون أجر ، حتى ضاقت الدنيا في ناظريه ، واصبح البيت عنده جحيماً لا يطاق ، بالرغم من حب حاضنته له ، فاجر الى بوسطن .

وتعرّف في هذه المدينة الجديدة الى صاحب مطبعة هو الشاب « كالفين توماس » ، فنشر له اولى قصائده (تيمورلنك وقصائد أخرى) ، وكان يوقعها وقتئذ باسم « البوسطني » ، ثم التحق بالجيش الاميركي فأرسل الى حصن مواترى في جنوب كارولينا ، فاعجبته حياة الجندي واجاد فيها .

ولما ماتت حاضنته عاد الى ريتشموند ، بعد غياب طويل ، وحمل

جون ألان على ان يدخله في كلية ويست بونت الحربية ، فمكث فيها تسعة اشهر ، ثم طرد منها بسبب الديون المتراكمة عليه ، ولعدم تقيده بانظمة الكلية .

وفي سنة ١٨٢٩ اصدرت دار نشر في بالتيمور المجموعة الثانية من شعره وهي « الاعراف » ، وبعد ان ترك كلية ويست بونت سنة ١٨٣١ اصدر مجموعة ثالثة مقدمة الى طلاب الكلية الحربية الامريكية ، لكن هؤلاء الطلاب قد امتعضوا كثيراً من قصائده واعتبروها مجموعة قصائد لهجاء متمرن .. وهي تتضمن في الواقع ابرز اشعاره ومنها « الى هيلين » ، و « اسرافيل » ، و « المدينة المقضي عليها » ، و « وادي نيس » ، و « ارين » .

واضطر إدغار بعد ان قطع حاضنه عنه كل معونة ان يلجأ سنة ١٨٣١ الى عمته ماريا كلیم في بيتها الصغير الواقع في بالتيمور ، وهنا شاطر اخاه هنري المريض بالسُّل المعيشة في غرفة حقيرة ، والسيدة كلیم ذاتها كانت تعاني الشيء الكثير من الفاقة وشظف العيش .

ثم تزوج مستر ألان للمرة الثانية واقفلت داره في وجه إدغار الى الأبد .. وكَم من مرة كتب الشاب الى حاضنه يطلب المعونة المالية ولكن دون جدوى ، ثم مات جون ألان ولم يترك لربييه فلساً واحداً . وبلغ إدغار الخامسة والعشرين وقد اصبح الادب مهنته التي يعتاش منها ، لكن الفاقة ، والعوز الشديد ، تركا اثراً سيئاً في صحته ... واجرت مجلة (زائر بالتيمور السبتی) مسابقة سنة ١٨٣٥ ، فتقدم إدغار بقصته « مخطوطة في زجاجة » فكو فيء بخمسين دولار ، وكان الروائي جون كندي احد اعضاء لجنة التحكيم ، فعدا منذ ذلك الحين صديقاً حميماً لأدغار ، ووظفه في مجلة (رسول الجنوب الادبي) الصادرة في ريتشموند .

وفي سنة ١٨٣٦ افتقر إدغار بابنة عمته فرجينيا البالغة من العمر الرابعة عشرة ، وذاع صيته وهو ينشر في (الرسول) الكثير من القصص ، والقصائد ، والابحاث ، وكان في هذه الاثناء يبحث عن الراحة وهدوء الفكر بالأدمان على شرب الخمر ، وقد اسفر بحته هذا عن طرده من المجلة .

وفي سنة ١٨٣٨ رحل إدغار مع زوجته وعمته الى نيويورك حيث انتهى روايته الكبيرة « ارثور غوردون بيم » ، وكتب احسن قطعه المسماة « سكوت : هذه اسطورة » .. وهناك عمل لمدة من الزمن كطابع على الحجر ، ثم وظف في مجلة (نيويورك كواترلي) ، ثم انتقل الى (مجلة برتون) لصاحبها ويليام برتون وكان ساعده الايمن في تحريرها . وقد اشتهر إدغار بشذوذ الطبع في علاقاته مع الناس ، لكنه كان جد لطيف مع زوجته ، وقدم لها اعذب قصائده الغزلية مثل « الاولالوم » و « انابيل لي » ، كما كان يحترم عمته ويخلص لها .

وفي سنة ١٨٣٨ صدرت قصص إدغار في جزئين باسم (القصص الزاهية والمستغربة) ، اما قصة « انهيار منزل اوشر » فقد ظهرت في (مجلة الجنتمان) وزادت مكانته الادبية مكانة ... غير ان مستر بورتون قد ارهق مساعده فصار هذا يتغيب عن المكتب كثيراً ، وعاد يوماً ليبلغ امر الاستغناء عن خدماته ، بعد ان بذل من الجهد والادبي عشرة اضعاف ما كان يتقاضاه من أجر .. فلازمه الحزن والخوف من سوء المصير وناخ تحت وطأتهما .

وفي سنة ١٨٤١ ابتاع الشاب جورج ركس غراهام (مجلة الجنتمان) وضمها الى مجلة (الحق) ، فحملاً اسماً جديداً وهو (مجلة غراهام) .. ويقال ان بورتون لفت انظار غراهام الى إدغار فعرض عليه هذا وظيفة

باجر وقدره ثمانائة دولار سنوياً ، وهو اضخم مبلغ تقاضاه كمحجر ،
وقد راجع في هذه الاثناء مؤلفات لونغفلو ، ولويل ، وبريانت ،
وكوبر وغيرهم من مشاهير الاميركان في تلك الايام ، وبرز ككتاب
قدير ، ونقادة بناء بعيد النظر لم تعرف البلاد له نظيراً ، ورفع قلمه عدد
مشتري المجلة من خمسة الاف الى اثنين وخمسين الف مشترك ، فاودع
صفحات هذه المجلة افضل نتاجه ، ومع ذلك فقد كان غراهام يدفع الى
جامس فينيمور كوبر مبلغ الف دولار للقصة الواحدة في حين انه دفع
لأدغار آلان بو مبلغ اثنين وخمسين دولاراً لقاء قصة « الحنفسة
الذهبية » !..

وكان للعادات الشاذة المستحكمة في نفس إدغار ان دفعته الى
الهاوية سنة ١٨٤٢ وهو في اوج شهرته الادبية ، ومقدرته الخلاقة ...
وبفقدانه الوظيفة في مجلة (غراهام) فقد ضمانة العيش وعاد الى نيويورك
حيث انضم الى اسرة مجلة (مرآة النساء) ، وفي سنة ١٨٤٥ انتقل الى
(مجلة برود واي الاسبوعية) فكان محررها في بادى الامر ثم صار
صاحبها الى ان حالقها الفشل .. وفي هذه الاثناء سقطت زوجته بين
برائن داء السل الويل وصارت حياة الاسرة خلال ست سنوات مروعة ،
وهي تتأرجح بين المرض الشديد ، والخوف من سوء المصير ، والعوز
الضاري .. وكانت الاسرة منذ سنة ١٨٤٦ وهي تعاني هذه الالام في
بيت ريفي في فورد هام ، والقطعة الحبيبة «كاترينا» تجثم دائماً على صدر
فرجينيا بو لتجلب له الدفء .. ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة ان
الممرضة ماري لويس شو كثيراً ما اعانت الاسرة اليائسة وحشت الاسر
الصديقة على مد يد المعونة لها .

❧ وفي فورد هام نظم إدغار قصيدته « الغراب » ونشرها في (مرآة

المساء) فطار صيته دفعة واحدة ، وصدر ديوانه على الاثر ، وتبعه
الختار من قصصه .

ومانت فرجينيا في شهر يناير سنة ١٨٤٧ ، وكان على إدغار خلال
العامين التاليين ان يكافح يائساً الفقر والانحطاط الجسماني ، اما عمته
مسز كلیم فكانت الصخرة التي يحتمي بها ، وهي لا تفتأ تشجعه على
اقتراض المال .

وفي هذه الحقبة من تاريخ حياته اخذ الكاتب يتلقى الرسائل العاطفية
من ادبيات ايامه امثال السيدة وزغود ، والسيدة ويتان (وقد خطبها
الى حين) ، والسيدة شارلز ريتشموند ، الى ان التقى ثانياً بسيدة قلبه
في شبابه السيدة الميرا رويستر شيلتون وهي ارملة وفي رغد مادي ،
فتمت خطبته لها وانضم في هذه الاثناء الى زمرة من مدمني الخمر
الواشنطنيين ، وقد نصحه الاطباء كثيراً بان يكف عن شرب الكحول
والا فانه يعرض دماغه الى خطر محقق .. وحل اليوم المشؤوم بعد ان
غادر منزل خطيبته في اواخر ايلول سنة ١٨٤٩ وركب السفينة الى
نيويورك بعد ان ترك عمته في فيلادلفيا ثم عاد الى بالتيمور .

فما الذي حدث له في بالتيمور وقتئذ ؟ ... لا ريب بانه تناول
كمية من الخمر فعلت فعلها فيه .. كانت المدينة يومئذ منهكة في
الانتخابات البلدية والشوارع تغص بالاغراب .. وفي ثاني يوم الانتخابات
عثر على إدغار وهو مستلقى على مقعد في الشارع ، في شبه غيبوبة ، فنقل
على الفور الى مستشفى كلية واشنطن ، حيث مات بعد ايام قلائل ، اي في
السابع من شهر تشرين الاول سنة ١٨٤٩ .

انهيار منزل اوشر

قضيت نهراً مظلماً ساكناً من ايام الحريف الكئيبة ، وانا امتطي جواداً عبر الريف النائي ، وكانت الغيوم الداكنة المنخفضة متلبدة في السماء تضغط على كياني وتكده ، وما انت اسدل المساء أستاره حتى رأيت نفسي امام منزل اوشر الموحش .. لا ادري كيف بلغت ذلك المكان ، غير انني ما ان القيمة اول نظرة على المنزل حتى استولى عليّ شعور من الغم لا يطاق ، اقول لا يطاق لانني لم اجد من يواسيني في ذلك المكان النائي ، فهو شعري ، مثير للحساسية ، والنفس عادة تقبل على الصور الطبيعية مهما كانت عزلاء او مروعة .

تطلعت الى المشهد المائل امامي وهو مؤلف من البيت المجرد ، والمنظر الطبيعي البسيط لاملاك اسرة اوشر ، والجدران الشاحبة ، والنوافذ الصغيرة ، وصفوف الحشائش القليلة ، وجذوع الاشجار البيضاء

القليلة الهرمة ، تتطلعت الى ذلك كله بنفس كثيفة لا اجد لها شديهاً في اي احساس زمني ، الا ما يحس به متعاطي الافيون بعد صحوه منه ، او ما يحس به المرء بعد انقضاء يوم مؤلم ، او بعد ان يسقط الحمار القبيح عن الوجه .

كنت احس بان قلبي يتجمد ، ويغوص ، ويضني ، وان خواطر مرعبة تملكني ولا تدع لي سبيلاً للخلاص منها ، فما الذي حلّ بي ؟ .. وما هو هذا الذي اثار اعصابي لدى تفكيري في منزل او شر ؟ .. انه للغز غير قابل للحل ، ولم استطع التغلب على الخواطر الخفية التي احتشدت في رأسي وانا انعم النظر فيها ... وهكذا اضطررت الى التقهقر ازاء النتيجة غير المرضية التي توصلت اليها ، في حين ان هناك ولا ريب عوامل تؤثر فينا ، وهي على غاية من البساطة الطبيعية ، لكن تحليلها يدخل في عداد الاعتبارات الخارجة عن نطاق تفكيرنا .. وقلت لنفسني من المحتمل ان تكون هذه الاشياء المختلفة التي تؤلف خصائص المسرح المحيط به ، وما تتضمنه الصورة العامة من جزئيات ، هي التي تترك في النفس انطباعاً كثيباً ، وعملاً بهذا الرأي قدت جوادي الى منحدر يؤدي الى بحيرة آسنة ، كامدة ، لها لمعان ساكن تقع عند حافة المنزل ، وتطلعت فيها فرأيت انعكاس صفوف الحشائش ، واشباح جذوع الاشجار ، ونوافذ المنزل الصغيرة ، فاخذتني رعشة اعنف من ذي قبل .

وعلاوة عن ذلك كله ، فقد جمّت الى هذا المنزل لاقضي فيه بضعة اسابيع ، وصاحبه هو رودريك اوشر ، احد اخداني في سني الحداثة ، وقد انقضت سنون عديدة منذ ان التقينا لآخر مرة ، الى ان تلقيت منه مؤخراً رسالة وانا في مكان قصي من البلاد ، تصر على ان اكون

انا الرد بداتي .. فخطُ الرسالة يشهد على ان كاتبها يعاني حالة عصبية ، وهو يقول فيها انه يشكو مرضاً حاداً يمس جهازه العقلي ، وانه لفي شوق شديد ليراني ، لانني في الواقع صديقه الشخصي الوحيد المفضل ، وانه يأمل من وجودي الى جواره ان انعشه قليلاً ، واخفف عنه وطأة الالم ، فالاسلوب الذي كتبت فيه الرسالة ، والرجاء الصادر عن القلب في الدعوة، لم يدعالي مجالاً للتردد في قبولها، على اعتبار انها شخصية بحجة ، وتوجهت اليه على الفور .

فمنذ ان كُنا صديقين حميمين في سني الحداثة وانا لا اعرف عنه الا الشيء اليسير، لقد كان دائماً يفرق في الانطواء على نفسه ، وقد تمكنت منه هذه العادة ، ومع ذلك كنت على بينة من ان اسرته القديمة ، ولا اذكر الزمن ، قد اشتهرت بحساسية في الطباع ، وقد امتهنت خلال ازمنة طويلة الكثير من الاعمال الفنية النفيسة، واتسمت بالكرم والقيام باعمال الخير المتواضعة، كما كرست نفسها باخلاص متناه لخدمة الحسن، والجمال، والعلوم الموسيقية ، وعلمت ايضاً امرآ له اهميته وهو ان شجرة سلالة اوشر لم تنبت فروعاً ، وبعبارة أخرى ان الأسرة كلها تنحدر من صلب واحد ، ولم تعرف التقلب في الاختلاط الا فيما ندر، وقلت في نفسي هذا هو النقص في الموضوع ، فالمنزل يحافظ على صفاته القديمة، كما تحافظ الاسرة على سلالتها ، ويرث الابناء هذا النقص عن الآباء الى ان اندمج اسم الاسرة باسم المنزل وما يحيط به من املاك، كما هي الحالة عند اهل القرى ، وحملوا اسماً مشتركاً هو اسم منزل اوشر .

فتجارب الطفولة هي التي دفعتني الى التطلع في البحيرة ، ونتج عنه انه قوى الانطباعات الاولى في نفسي ، ومما لا شك فيه ، ان الشعور بالوهم قد عمل على مضاعفة هذا الوهم ، والتعجيل بتنميته ، واني لأعرف

جيداً منذ امد بعيد ، ان الرعب هو اساس السفسطائية ، وعلى ذلك فاني لما رفعت ناظري عن البحيرة ، وتطلعت ثانية الى المنزل ، داخلني وهم غريب ، مضحك ، اتيت على ذكره لادال على الحس الذي كنت اروح تحت وطأته .

لقد حاولت اقناع خيالي بأن المنزل والاملاك المحيطة به ، يكتنفها جو يناسب خصائصها وخصائص المنطقة المجاورة لها ، وان ليس لهذا الجو علاقة بحالة الطقس ، وان السبب في قتامة يرجع الى الاشجار الهرمة ، والجدران الداكنة ، والبحيرة الصامتة ، وما يحيط بها من انجرة غامضة خبيثة ، ووحشة منفرة ، ولون باهت اشبه بلون الرصاص .

وبعد ان ابعدت عن نفسي هذا الحلم ، اخذت انعم النظر في المنزل عن كتب ، فلاح لي على الجملة انه منزل أثري ، وان العصور قد غيرت من معالمه كثيراً ، ولاحظت ان الكمأ الصغير يغمر الساحة الخارجية بأسرها ، ويتدلى قسم منه ، على شكل عقود بديعة ، من الحافة الامامية لسطح المنزل ، ولم يكن هناك اي مظهر من مظاهر الدمار ، فلم يتداع اي جزء من المنزل ، وكل ما يستلفت النظر وجود تناقض بين سلامة بعض اقسامه ، وحالة التلف التي أصيبت بها بعض حجراته .. وفي هذا ما يذكرني كثيراً بالمصنوعات الخشبية القديمة ، التي انقضت عليها سنين عديدة وهي مهجلة في الأقبية ، تزعجها انفاس الجو في الخارج ، ولعل المراقب الدقيق الملاحظة ، يكتشف صدعاً يمتد من السطح ومن ناحية المنزل الامامية الى اسفل ، وعلى شكل متعرج ، الى ان يضيع اثره في مياه البحيرة السكالة .

وبعد ان لاحظت هذه الاشياء اجتزت معبراً قصيراً يؤدي الى المنزل ، فاستقبلني خادم واخذ الجواد ليعني به ، واما انا فقد دخلت

المنزل ماراً بقنطرة غوطية الهندسة... ثم تقدمني خادم آخر بخطوات خفية صامتة ، واقتادني الى مكتب مولاه بصمت تام ، عابراً بممرات مظلمة كثيرة .

لقد قاومت كثيراً الشعور المبهم الذي تحدثت عنه ، غير ان الاشياء التي تحيط بي في المنزل ، وسقوفه المنقوشة ، وطنافسه القائمة التي تغطي جدرانها ، وبلاطه الابنوسى الاسود ، وسمات الشرف والنسب ، والالبسة الحربية المصنوعة من الحديد والزرده ، التي اخذت تقرقع على وقع خطاي ، كل هذه كانت تفعل في مخيلتي فعلها ، واتصورها جديدة عليّ مع انني اعتدت رؤية مثيلاتها منذ طفولتي ، والتقيت وانا اصعد درجاً بطبيب الاسرة ، وتبين لي في حياه تعاير التشويش والحُبث الحُسيس ، فدنا مني مرتعشاً ثم ذهب في سبيله ، واخيراً قادني الخادم الى الغرفة التي يقيم فيها مولاه .

وكانت الغرفة التي دلفت اليها ، واسعة جداً ، وعالية السقف ، ونوافذها مستطيلة وضيقة ، ومخروطة الشكل ، وعالية عن ارض الغرفة الصنوبرية ، وليس من السهل الوصول اليها.. وقد تسرب شعاع ضئيل من خلال مشبك الزجاج ، مما ساعدني على تمييز الاشياء النفيسة التي تكتنفي ، ومع ذلك فعيناى محاولان عبثاً رؤية زوايا الغرفة البعيدة ، او رؤية عقد السقف المجوف ذي النقوش المشتبكة... فالستائر الداكنة معلقة على جدران الغرفة ، التي تضيق بما حوته من اثاث ، لكنه قديم رث ، وغير مريح .. وكانت الكتب والآلات الموسيقية الكثيرة مبعثرة هنا وهناك ، ولكنها لا تخلع على هذا المسرح اي لون من الوان الحيوية ، فأحسست انني اتنفس في جو حزين كثيف صارم ، تكتنفه الظلمة من كل جانب .

فما ان ولجت الغرفة حتى نهض اوشر عن الكنية التي كان مستلقياً عليها ، وحياني بكثير من الشوق والحرارة ، وتبادر الى ذهني لاول وهلة انه يبالغ في ذلك ، وان الباعث اليها الضجر ، غير انني ماكدت القي على محياه نظرة حتى اقتنعت بصدقه واخلاصه ، وجلس كل منا على مقعده ، ومرت فترة من الوقت التزم فيها مضيفي الصمت ، فتطلعت اليه وفي نفسي احساس هو مزيج من الشفقة والملح ، والواقع ان الانسان لا يتغير على هذا النحو المروع ، خلال حقبة قصيرة من الزمن ، مثلما تغير وودريك اوشر ... فقد تعذر علي ان ارى في شخصية هذا المخلوق المائل امامي ، ما يدل على انه هو نفسه رفيق الحداثة المبكرة ... مع ان في وجهه مييزات بارزة تلازمه في كل حين ، انها ملامح شبيهة بجثث الاموات ، عينان واسعتان ، سائلتان ، براقتان جداً .. وشفتان رقيقتان نحواً ما ، ومتمعتان ، لكنهما منعفتان انعطافاً جميلاً ، وانف دقيق من الطراز العبري ، لكن لا مثيل لمنخريه .. وذقن نحيفة تدل على القوة المعنوية ، وشعر مثل النسيج في نعومته ورقته .. هذه الملامح ، يضاف اليها بروز جبهته ، تظل عالقة في ذهن من يعرفه ، وليس من اليسير عليه ان ينساها .. ولما تفرست فيه هذه المرة وجدت ان ملامحه المميزة ، وتعاييره المعروفة قد تضاعفت ، فصرت اشك في شخصية محدثي ، فما كان للون بشرته الممتقع المنكر ، ولبريق عينيه العجيب ، الا ان اجفلا نفسي وارعباها ... ثم ان شعره الحريري الشبيه بلعاب الشمس ، قد نما في رأسه مشوشاً ، واسترسل على وجهه ، فبدأ لي اوشر في مجموعة تعاييره ، الشبيهة بالنقش العربي ، غامضاً لا مثيل له بين البشر قطعاً .

وهكذا فما ان رأيت صديقي هذا حتى أصبت بصعقة من الارتباك والتشوش ، ورحت اكافح هذا الشعور بضعف وفتور ، مستهدفاً التغلب

عليه ، او بعبارة اخرى التغلب على ما بي من افراط في التهبج العصبي ، ولقد تهيات نفسي لملاقاة هذا الرجل ، لا بالرسالة التي تلقيتها منه فقط ، وانما بذكريات الحداثة ايضاً .. وبلاستنتاجات التي احملها في مخيلتي عن خصائص تكوينه ومزاجه ... وكانت حركانه مزيجاً من الحدة والعدا ، وصوته يتردد بسرعة بين الارتعاش الحائر (الذي يشل الحيوانات على حين غرة) ، وبين اليجاز الحازم المتقطع ، البطيء ، الثقيل ، والبيان ذي الطنين الأجوف ، واللفظ الحلقي الجيد التنعيم ، الذي يجيده السكرى او متعاطو الافيون .

وتحدث مضيفي عن موضوع زيارتي له ، وعن شوقه لرؤيتي ، وما يتوقعه من مظاهر السلوى التي سأوفرها له ... ثم تحدث عما يظن انه طبيعة مرضه ، فقال انه داء عائلي ملازم لا علاج له ، تظهر عوارضه في حالات من الانفعالات العصبية غير الطبيعية ، ولما روى لي بعض تفصيلات الداء أخذت بها وانفعلت ، ويلوح لي ان الطريقة التي روى لي بها قصته ، كان لها وزنها في اثارة نفسي واهاجتها .. انه يشكو من سقم حاد في حساسياته ، فهو لا يحتمل وطأة الطعام مهما كان تافهاً ، ولا يرتدي من الالبسة الانوعاً خاصاً ، وعبير الزهور يضغط على نفسه ، وعيناه تتألمان من الضوء مهما كان ضئيلاً ، والآلات الموسيقية باستثناء الوترية منها ، توحى له الرعب والهلع .

اجل ، لقد وجدته اسير انواع شاذة من الفزع .. ومما قاله لي : « انني لا محالة هالك ، وانا في هذه الحالة من الحماقة المحزنة .. وعلى هذا النحو فقط سألاقي حتفي .. انني اخشى حوادث المستقبل ، لا اخشاها بجد ذاتها وانما اخشى عواقبها ... ان جسمي كله يرتعش ، وروحي تضرب لدى اية فكرة تجول في خاطري مهما كانت تافهة ..

وانني في الواقع لا امقت الخطر بحد ذاته وانما امقت اثره المطلق ،
الا وهو الرعب ... وقد بت احس وانا في هذه الحالة العصبية الاليمة ،
انه لن يمضي زمن طويل الا واتخلى عن عقلي وحياتي معاً وانا في كفاح
مع هذا الشبح القاتم ، شبح الرعب » .

وعلمت خلال تلميحات عرضية ان هناك عاملاً آخر يؤثر في حالته
العقلية ... لقد كان يدعن لاهوام لها صلة بالمنزل الذي يقطنه منذ سنين
عديدة ، ولم يجروء على تركه تحت تأثير قوة افتراضية طيفية ، قوة
تعكس في ذاتها خصائص منزل الأسرة في شكله وجوهره ، فطبيعة
جدران المنزل وابواجه الداكنة ، والبحيرة الآسنة ، التي ينعكس
المنزل على صفحتها ، تركت كلها اثراً عميقاً في كيانه المعنوي .

وقد سلم مضيقي بحيرة ايضاً ، ان الكثير من خصائص هذه الكتابة
التي تعتريه ، ترجع في اساسها الى عوامل طبيعية محسوسة ، فشقيقته
الرقيقة الحبيبة الى نفسه ، وهي كل من تبقى من اسرته ، تعاني مرضاً
مزمنأ حاداً ، وتسير الى الفناء شيئاً فشيئاً .. وقال لي بمرارة ، لن
انسأها ما حييت .. ان موتها سيتركني وحيداً في هذا العالم ، انا
اليأس الضعيف ، آخر حلقة في اسرة اوشر العريقة ... وبينما كان الرجل
يتحدث اليّ مرّت بنا اللادي مادلين ، إذ هكذا كانوا يدعونها ، وهي
تسير ببطء نحو القسم البعيد من المنزل ، ثم اختفت دون ان تلاحظ
وجودي مع شقيقها ، ولقد تطلعت اليها وانا في دهشة غير خالية من
الخوف ، وقد اعتراني شعور من السبات وانا اقتفي اثرها بناظري ...
ولما اغلقت الباب وراءها لمحت شقيقها وقد اخفى وجهه بين راحتيه ،
والدموع العاطفية الغزيرة تنساب من بين اصابعه الهزيلة .

لقد احتار طبيب اللادي مادلين في تعليل مرضها ، ومن مظاهر

هذا المرض الجمود الدائم ، وتلاشي الشخصية التدريجي ، وحالات من
الاغماء... وكانت السيدة تتحمل بثبات مظاهر مرضها هذا ، ولم ترض
بالتزام الفراش ، غير ان قواها خارت لفعل عامل التلاشي ليلة وصولي
الى منزل اوشر ، كما تلبأ شقيقها بذلك ، وكانت النظرة التي استرقتها
منها هي النظرة الاولى والاخيرة .

وانقضت ايام وهي في حالة التلاشي دون ان تأتي على ذكرها ،
وانصرفت خلال تلك الفترة من الوقت الى تشجيع صديقي ، ورفع
روحه المعنوية ، فكنا نقضي الايام بالرسم والمطالعة ، او كنت استمع
اليه ، كمن في حلم ، وهو يعزف على القيثارة عزفاً ضارباً .. وكما
زدت تقرباً منه تعمقت في روحه دون تحفظ ، وزاد يقيني ببطلان كل
ما ابذله من مساع لبعث النشاط في نفسه المظلمة ، تلك النفس التي لا
تنفت على ما حولها من عالم روحي ومادي ، الا اشعاعات من القتام
الحالك .

سأذكر دائماً تلك الاوقات المشهودة التي قضيتها مع رب منزل
اسرة اوشر ، لكنني اقر باخفاقي في كل محاولة بذلتها ، لتكوين
فكرة صحيحة عن ماهية الدراسات او الاعمال التي استدرجني اليها
ذلك الصديق ... فكل ما كان في ذلك المنزل هو مثالية على درجة
عالية من الانفعال والاضطراب يغمره اشعاع كهربي من كل جانب ..
فترتيله الخزين المديد سيظل يطن في اذني الى الابد ، ومن الاشياء المؤلمة
التي لا تزال عالقة في ذاكرتي ذلك اللحن المنفرد الرديء الذي كان
يستفيض اوشر في عزفه ، لحن والس فون ويبر... اما الرسوم الزيتية
التي اوحاها له خياله فكانت كلها غموض وابهام ، ولا ادري لماذا كانت
نفسي تضطرب لمراها ، وعبثاً حاولت ان استخلص منها الا شيء

اليسير.. فهي في بساطتها وتجردها ، تستأثر انتباه المرء وتروعه، فاذا كان هنالك مخلوق رسم فكرة فهو ولا ريب رودريك اوشر... غير انني كنت ارى في رسومه ، بالنسبة للظروف التي احاطت بي في منزله ، مجرد غموض مروع اوحتها له سويدائه ، ولو انها في بعض ظلالها تتفق مع ظلال الرسام هنري فوزيلي .

ولصديقي رسم طيفي، لكنه لا يحمل الكثير من الغموض، وبوسعي تعريفه في كلمات تعريفاً ضعيفاً ، فقد صور فيه قبواً، او نفقاً طويلاً مستقيم الزوايا، جدرانه منخفضة ناعمة وبيضاء.. وبعض النقاط الثانوية في هذا الرسم ترمي الى الايحاء بان هذه المغارة تقع عميقاً تحت سطح الارض ، ولا يخرج لها على طول امتدادها ، وليس فيها شعلة مضيئة، او اي ضوء من الاضواء الاصطناعية، لكن يغمرها فيض من الاشعاع، وتستحم كلها بضياء مروع عديم التوافق .

لقد سبق وتحدثت عن حالة السقم وتوتر الاعصاب التي لازمت صديقي، وجعلته لا يحتمل سماع اي نوع من الآلات الموسيقية باستثناء بعض الآلات الوترية.. ويلوح لي ان حصر نفسه في دائرة ضيقة من العزف على القيثارة ، كانت عاملاً هاماً في خلع المزاج الخيالية الوهمية على معزوفاته ، ولا يسعني ان ادرج هنا ما كان يرتجله من عزف او كلام خيالي ملتهب، دوّنه في النوتات والكلمات (وكان غالباً ما يحملها معه) ، وهي تتضمن تركيزاً لما يعانیه من توتر في الاعصاب.. وانني لأذكر احدي هذه (الرابسوديات) ، فقد تأثرت بها حين قدمها لي لما انطوت عليه من معاني غامضة، وخيّل اليّ انني لحظت ولأول مرة ما يكنه اوشر من حساسيات، ولحت الافكار السامية التي تتأرجح على سدة عقله... فقصيدة « القصر الذي تتردد اليه الارواح » تلخص فيما يلي :

١ - كان في وادينا الاخضر الذي تسكنه الملائكة ، قصر جميل مشع ، يخفي رأسه في الغيوم .. وهو يقوم في مملكة الفكر ، ولم ترف عليه اجنحة الملائكة ابداً ..

٢ - وكانت اعلام المجد الصفراء تخفق على سطوحه ، وكلما هبّ النسيم على اسواره فاحت الروائح العطرة .

٣ - وكان الممارون في دسك الوادي السعيد يرون من خلال النوافذ المضيئة ارواحاً كأنها الحان موسيقية تطوف حول العرش الذي جلس عليه الملك « بروفيروغن » ، سيد البلاد وصاحب المجد والعظمة .

٤ - اما باب القصر فكان مزيناً بالحجارة الكريمة ، وتقر به جيوش الصدى ساجدة ولا عمل لها الا ان تزداد انشاداً عذبةً ، وباصوات تفوق الجمال ، مشيدة برجاجة عقل ملكها وسداد رأيه .

٥ - غير ان الشرور وهي في اودية الأسى هاجمت الملك في مملكته العظيمة (ويا ليتنا متنا قبل ان يطلع عليه الصباح مبؤساً) ، وكان المجد يطوف حول بيته نضراً مشوباً بحمرة الحُجل ... انها لقصة قائمة ، قُبرت في الازمان الغابرة .

٦ - والممارون اليوم بذلك الوادي يرون من خلال النوافذ المضيئة باللون الاحمر اشكلاً رهيبة ، تطوف فيه بشكل عجيب ، على لحن النشور ، بينما احدهم وهو شنيع الشكل يرق من باب القصر سريعاً ، كجريان النهر المروع .. وهو يضحك ملء شديقه .. لكنه لم يعرف الالبتسامة فيما بعد ابداً !!

* * *

ولا زلت اذكر جيداً ان النقاش الذي ابتدا حول هذه

الاسطورة ، قادنا الى سلسلة من الافكار ، اعرب فيها اوشر عن رأي ليست له اهمية في جدته (لأن غيره قد اعرب عنه ايضاً) * ، وانما في التمسك به والاصرار عليه .. ولهذا الرأي على الجملة حساسية كحساسية النباتات ، غير انه اتخذ شكلاً جريئاً ، نتيجة لاضطراب خيال اوشر ، وتعدى في حالات معلومة على مملكة الفوضى ... والواقع انه لمنقضي الكلمات لأعرب عن مقدار ما بذلته من مجهود لاقتناعه بخطل رأيه ، او عدم اقتناعه .. فاعتقاده كان متصللاً (كما لمحت سابقاً) بمجاعة منزل اسلافه ، فهو يتصور ان الحساسية متصلة بالطريقة التي بُني فيها هذا المنزل ، وبفطير الغراب النابت عليه ، وبالاشجار الهرمة القائمة حوله ، وببقاء كل هذه الاشياء على ما كانت عليه منذ اقدم الازمنة ، وبانعكاسها في مياه البحيرة الصغيرة الكامدة .. وفي رأيه ان الحساسية المشار اليها متجمعة في الجو الذي تخلقه الجدران والمياه .. وقد توصل الى نتيجة مفادها ان السكون اللجوج المرعب الذي يسود جو المنزل كان له اثره الفعال في صوغ الاسرة بقالب خاص ، وصوغه هو في القالب الذي رأته فيه .. فراء كهذه لا تحتاج الى شرح ، ولن احاول شرحها .

اما كتبنا ، اي الكتب التي كانت تؤلف جزءاً من كيان الرجل المقعد ، خلال سنين طويلة ، فهي تتفق بدقة تامة مع صفات تصوراته وخيالاته .. فقد طالعنا كتب « فرفرت وشارتر روز » لكريسه ، و « بلفيغور » لمكيافيلي ، و « الجنة والنار » لسويد نبورغ ، و « رحلة نيقولا كلیم تحت الارض » لهولبرغ ، و « شيرومانس ووبرت فلود » لمؤلفيه جان داندجينه ودلا شامبر ، و « رحلة في الابعاد الزرقاء » لتيك ، و « مدينة الشمس » لسكامبانيلا .. ومن الكتب المحببة اليه ايضاً

* وهم واطسون ، والدكتور برسيغال ، وسبالانزاني ، والبطريك لانداف .

كتاب « ادارة التفتيش » لاميريك دي جيرون الدومينيكاني ، وكانت هناك فقرات من كتاب « بومبونوس ميلا » بصدد قصة « ساتيرس واجيبانس » الافريقية ، ينصرف اوشر الى مطالعتها الساعات الطوال .. غير ان الكتاب الذي كان يجلب له المتعة بصورة خاصة والمطبوع بالحرف الغوطي ، هو « دلائل الكنيسة المنسية » .

ولم امالك عن التفكير في هذه الطقوس التي يجري عليها صديقي السوداوي المزاج وما يحتمل ان تتركه في نفسه من اثر ، حتى انه اخبرني ذات مساء فجأة ان اللادي مادلين قد فارقت الحياة ، وانه عقد النية على الاحتفاظ بجثمانها مدة اسبوعين (قبل دفنها نهائياً) في احد اقبية المنزل ، ولم يكن بوسعي ان اناقشه في السبب الذي حمله على اتخاذ هذه الاجراءات الفريدة في بابها .. وقد افادني انه اتخذ هذا القرار بداعي نوع المرض غير العادي الذي كانت شقيقته تعانيه ، وكنتييجة لألحاح اطباءها في ذلك ، ولبعد مقبرة العائلة عن المنزل .. ولا اخفي بانني التزمت جانب الصمت تجاه هذه الاحتياطات غير الطبيعية وغير المضرة في آن واحد، بعد ان تذكرت ذلك الوجه الشرير الذي التقيت به وانا اصعد درج المنزل في يوم وصولي اليه .

وعمدت حسب رغبة اوشر الى مديد المعونة له فوضعتنا شقيقته في نعش ، حملناه الى قبو صغير عفن قديم ، كان الجو فيه ضاعطاً حتى ضوئت فيه اضواء مشاعلنا ، ولم نتبين ما حولنا تماماً ، وكان القبو يقع على عمق عظيم من المنزل ، وتحت الجناح الذي اقيم فيه مباشرة .. ويسلوح لي انه كان يستعمل في ايام الاقطاع البعيدة كمخزن للقصر او كمستودع للبارود وغيرها من المواد القابلة للاشتعال ، والقبو هذا مصفح بالنحاس ، وله باب حديدي ثقيل يحدث صريراً عظيماً كلما دار على محوره .

وبعد ان وضعنا حملنا الكئيب على ارض القبو المروعة ، كشفنا غطاء النعش قبل ان يسمر والقينا نظرة على ساكنته ، فاسترعى انتباهي ذلك الشبه الصارخ الموجود بين الشقيق وشقيقته الراحلة ، فادرك اوشر ما يجول في خاطري وتم بضع كلمات ادر كت منها انهما تؤامان ، وانهما كانا يعطفان على بعضهما عطفاً شديداً.. ولم نطل النظر الى المسجاة في النعش بسبب ما كان يعترينا من هلع.. فالمرض الذي لازم السيدة وهي في ريعات ضباها ، واجهز عليها ، قد ترك على محياها ، كما هي حالة المصابين بداء الانغماء، مسحة من السخوية ، وابتسامة مربية خفيفة ، تثير الرعب في نفس الناظر اليها .. اعدنا غطاء النعش وسمرناه واغلقنا باب القبو الحديدي وصعدنا ونحن مكدودون الى القسم الاعلى من المنزل .

وتنقضي ايام مريرة من الحزن ، واذا بي الحظ تغيراً مرموقاً في حالة صديقي العقلية ، فقد تغيرت حالاته الطبيعية وصار يهمل ما كان يشغل به نفسه او ينساه ، ويتنقل مسرعاً من غرفة الى غرفة ولا هدف له ، واتخذ امتقاع ملاحه لوناً كريهاً ، كما ان البريق الذي كان يشع من عينيه قد تلاشى ولم اعد اسمع صوته الحشن المرتعش ..

و كنت اتصور احياناً ان افكاراً خفية تضطرب في رأسه ، ولكن تنقصه الجرأة الكافية لان يبوح بها ، وكما كنت اتصور احياناً اخرى ان ليس هناك ما يفسر حالته هذه ، ومردّها نزوة جنونية ، لانني شاهدته ذات يوم وهو يسدد نظره الى الفراغ ، الساعات الطوال ، مركزاً انتباهاً عميقاً الى شيء ما ، كأنه يستمع الى اصوات وهمية .. وهكذا لم اعد ارتاب في ان حالته غدت مرعبة ، وان عدواه قد اخذت ثقل اليّ بالتدرج .

لقد بت احسُّ بعدوى اوشر الوهمية بعد انقضاء اسبوع على وضع
جثمان اللادي مادلين في القبو ، وحدث في الليلة الثامنة من دفنها ان
كنت في فراشي احاول النوم عبثاً ، فقضيت الساعات الطوال ساهراً
دون ان يأتيني النوم ، وسعيت جاهداً لابعاد الحالة العصبية التي تسيطر
عليّ كما كنت احاول اقناع نفسي بان حالتي هذه ناتجة عن اثاث الغرفة
القاتم ، وعن الستائر المظلمة التي كانت الرياح تنفذ اليها من خلف
النوافذ وتؤرجحها على الجدران ، ثم عن وسوسة زخارف السرير
الذي اقام عليه .. غير ان محاولتي هذه لم تجدي نفعاً ، فالتزمتني رجفة
متزايدة ، وجثم الرعب على صدري فرفعت رأسي عن الحدة ورحت
احدق النظر في الظلمة الخالكة بدافع غريزي لا افقه له معنى ، وارهف
سمعي الى اصوات تتخلل الرياح ، واذ تملكني الجزع نهضت من فراشي
مسرعاً وارتديت البستي لاقتناعي بانه لن يغمض لي جفن في تلك الليلة ،
واخذت اروح واجيء مسرعاً في الشقة التي اقيم فيها .

وما هي الا لحظات حتى استرعى انتباهي وقع خطوات خفيفة ،
فعرفت فيها على الفور انها خطوات اوشر بالذات ، ثم توقف عند باب
غرفتي وفتح برفق وهو يحمل المصباح في يده .. كانت ملاحه كالعادة
تشبه ملامح الميت باصفاره ، يضاف الى ذلك معالم الجنون في عينيه ،
والهستريا في حركاته .. والحق يقال انني ذعرت لمرآه غير انني رأيت
فيه منقذا لي في وحدتي وانقطاع نفسي .

وقطع جبل الصمت قائلاً : فهل رأيته انت ايضاً ؟ .. ألم تره
حقاً ؟ .. ولكنك ستراه الآن ! .. قال ذلك واطل القنديل جيداً ،
وفتح النوافذ امام العاصفة التي تولول في الخارج .

لقد كانت هذه العاصفة من الشدة بحيث كادت تطرحنا ارضاً ، حقاً

انها ليلة عاصفة بديعة ومتجهمة، ليلة فريدة في ما رافقها من هلع وجمال، ويلوح لي ان الرياح قد جمعت قواها في ضاحيتنا، وغيّرت مجراها العاصف، كما يحدث ذلك في كثير من الاحايين، وكانت الغيوم الكثيفة منخفضة، تضغط على ابراج المنزل، وتحوم حوالى النوافذ مسرعة متقلبة من مكان الى مكان، مصطدمة ببعضها بعضاً.. تحجب عن انظارنا القمر والنجوم، او اي ضوء قريب او بعيد، غير ان الأبحر والغازات المترنحة على وجه الارض، بل وعلى جميع الجملادات التي تحيط بنا، كانت تتألق ببريق ضئيل عجيب، وتخلع بريقها على كل شيء تمر به بما في ذلك المنزل الذي نقيم فيه.

وابعدت اوشر برفق عن النافذة المفتوحة الى المقعد، والرعدة لا تفارقني، وقلت له: « هذا شيء لن تعايينه، ولن تمسه يدك.. فهذه الظواهر التي اقلقتك انما هي اطياف كهربية معروفة.. ولعلها ناشئة عن الابحرة الوحمة المتصاعدة من البحيرة الآسنة.. فلنغلق النافذة ثانية، فالهواء بارد، وهو خطر على هيكلك.. وهناك رواية من الروايات التي تحجبها، وسأقرأها عليك، وهكذا نقضي ما تبقى من ساعات من هذه الليلة المروعة..

وكانت هذه الرواية هي « بطل تريست » لمؤلفها سير لونسيلو كاينج، وقد نعتها بالرواية المحببة الى اوشر، بالمعنى الحزين لا بالمعنى الجدي، لانها في الواقع لا تتضمن الا الشيء اليسير مما يتفق وعقلية صديقي وانفته.. اجل لقد كانت اول كتاب وقعت يدي عليه، واعتقدت دون جدوى انه سيخفف من حدة تهيج صديقي السوداوي المزاج، (وفي الامراض العقلية انواع مشابهة كثيرة)، وسيجد فيه ما يهديء اعصابه رغم ما يتضمنه من صور متطرفة في عقدها، وانني

لاهيء نفسي على نجاح هذه الحطة اعتماداً على ما كان يبيديه اوشر ، او يتظاهر انه يبيديه ، من اهتمام زائد في الاصغاء الى الرواية .

وبلغت المقطع المعروف منها حيث اخفق إثلرد ، بطل تربست ، في دخول مسكن الناسك سلباً ، وعمد الى اقتحامه عنوة .. والمقطع هذا ينص على ما يلي :

« كان إثلرد بأسلاً بطبيعته ، وقد زادت الحمة قوته قوة ، فلم يشأ انتظار مفاوضه الناسك ، الذي كان في الواقع خبيثاً وعنيد الجانب ، فاحس بالمطر يتساقط عليه ، وخشي هبوب العاصفة ، ف ضرب الباب بصولجانه ، واقتحم المسكن وراح يحطم كل شيء يعترض سبيله ، ويمزق كل شيء يراه... وكانت اصوات الغابة المروعة تنذر بالحدث وتتجاوب في كل مكان . »

ولما انتهيت من تلاوة هذه العبارة ، توقفت قليلاً اذ تبادر الى ذهني انني اسمع في مكان بعيد من المنزل اصواتاً غير واضحة ، شبيهة جداً بالاصوات التي صورها سير لونسيلو في روايته ، لكنني سرعات ما ادركت ان خيالي يخونني ، وان ما اسمعه ان هو الا قرقرة إطار النافذة ، وزئير العاصفة ، وقد وقعا اتفاقاً مع ما كنت اطالعه في الرواية من هذا القبيل .

وتابعت قراءة ذلك الفصل حيث يقول : « ولما اقتحم البطل إثلرد الغرفة لم يجد للناسك الحبيث اثراً ، وانما وجد هناك قنينة هائلة ، له لسان من نار ، يحرس قصراً من ذهب ، رصفت ارضه بالفضة ، وعلق على جداره درع شرف من النحاس البراق ، كتبت عليها هذه العبارة : « من يدخل هذا المكان ، يكن فاتحاً .. ومن يذبح التنين ، يفز بالدرع .. »

فرجع إثلرد صولجانه واهوى به على رأس التنين ، فسقط امامه وهو يلفظ نفسه الكريه ، ويصدر صيحات مروعة منكرة اضطرت إثلرد الى ان يغم اذنيه عن سماعها .

وتوقفت هنا قليلاً ايضاً ، وقد استحوذت عليّ دهشة ضارية ، اذ سمعت صوتاً خافئاً منكراً وغلليظاً ، يشبه الصوت الذي يصدر عن التنين ، فعزوت ذلك الى خيال الرواية ، كما عزوته اليها في المرة الاولى .

لقد قلقت لهذا التصادف الذي يقع المرة تلو المرة ، وانتابني عوامل كثيرة واحاسيس جمّة ، للرعب فيها المكان الاول ، لكنني كبجتها حتى لا اوثر في اعصاب صديقي المنهارة بطبيعتها ، وكنت على يقين تام بان اوثر سمع هذه الاصوات ايضاً ، وقد ادركت ذلك من تبدل طراً على ملامحه ، ثم رأيتّه يغير من جلسته ، فيجعل وجهه في اتجاه باب الغرفة ، وكانت شفتاه ترتعشان كأنهما تتمتان في كلام غير مسموع .. ثم لحظت انه اسند رأسه الى صدره ، كما تبين لي من جهة جانبية انه غير نائم ، بدليل ان عينيه الكليلتين مفتوحتان ، ثم انه كان دائم الحركة فلا يهدأ على جانب حتى يميل الى الجانب الآخر ... وبعد ان تنبهت الى هذا كله ، تابعت قراءة رواية سير لانسيولو حيث نقول :

« وما ان تخلص البطل من التنين الذي هاجته ضربة الصولجان ، حتى انصرف الى التفكير في درع الشرف النحاسي ، وفي تحطيم السحر الملازم لها ، ثم تقدم وازال جثة التنين من طريقه ، وسار ببسالة على ارض القصر الفضية واقترب من الدرع المعلق على الجدار ، الا ان هذه الدرع لم تنتظر وصوله اليها وسقطت على الارض الفضية عند قدميه ، محدثة دويّاً مروعاً هائلاً » .

وما كادت شفتاي تلفظ هذا المقطع من الرواية، حتى سمعت صوت درع تسقط في الواقع وتحدث دويًا هائلًا ، يشبه الصوت الذي أحدثه سقوط الدرع في الرواية.. فاضطربت أعصابي نهائياً ونهضت واقفاً على حين غرة .. اما اوشر فلم ينقطع عن اهتزازاته الملتزمة ..

فهرعت الى حيث كان يجلس، فوجدته يسدد نظره الى الامام وقد ارتسمت على ملامحه قساوة صخرية، ولما وضعت يدي على كتفه ارتعش من رأسه حتى اخمص قدميه ، والابتسامة المريضة تترونح على شفتيه ، ولحظت انه يتكلم بصوت خافت سريع كأنه لا يشعر بوجودي ، فالتصقت به وسمعته يتمتم في هذه الكلمات المتقطعة المخوفة: « ألم تسمع ذلك .. اجل انني سمعته منذ دقائق عديدة ، بل منذ ساعات او ايام عديدة .. ولكنني لم اجرؤ .. انا المخلوق الحقير المسكين .. لم اجرؤ على الكلام... لقد وضعناها في النعش وهي على قيد الحياة .. ألم اقل ان احاسيسي كانت متوترة .. اجل لقد سمعت اولى حركاتها الضعيفة وهي مستجاة في النعش المرعب .. لقد سمعت تلك الحركات منذ ايام عديدة ، لكنني لم اجرؤ .. لم اجرؤ على الكلام .. وهذه الليلة استمع الى إيلرد ها .. ها .. وتحطيمه باب غرفة الناسك ، وعويل التنين في نزاعه ، وقعقة الدرع ، بينما هي تسعى الى شق النعش ، وتحطيم قضبان سجنها، والفرار من القبو النحاسي .. واه الى اين المجر .. الا تكون هي هنا عما قريب .. الا تأتي اليّ على عجل لتوبخني ؟ .. الم اصغ الى وقع خطاها على الدرج؟ .. الم اسمع دقات قلبها ثقيلة مخوفة؟ .. اجنون انا ؟ .. » وهنا هبّ اوشر واقفاً وصاح صيحة منكرة قائلاً : « اجنون انا ؟ .. يقيني انها تقف خارج باب هذه الغرفة ! »

كان في تلفظ هذه العبارة قوة خارقة للطبيعة البشرية ... وفي هذه

الاثناء فتح الهواء باب الغرفة الابنوسى الضخم قليلاً قليلاً .. واذا
بالايدى مادلين اوشر تقف عند العتبة، وكان الدم يلمخ ثوبها الابيض،
وعلى جسمها الهزيل شواهد اخرى تدل على ما بذلته من مجهود في سبيل
الخروج من النعش، وظلمت لحظات ترتعش وتتايل يمنة ويساراً، ثم
صدرت عنها صرخة نجيب خفيفة، وسقطت على الارض بشدة امام
اخيها، وهي تلفظ النفس الاخير، كما هوى اوشر الى الارض جثة
هامدة، ضحية للرعب الذي كان يتوقعه.

وهربت من الغرفة ومن البيت معاً، وان لا الوي على شيء ..
وكانت العاصفة في الخارج لا تزال على اشدها، وما ان حاولت الخروج
من ساحة الى الطريق العام، حتى لمع امامي على حين غرة بريق
خاطف، فتطلعت الى وراء لارى مصدر هذا البريق، ولم يكن
وراءى سوى المنزل الخالي وظلاله الواسعة.. فتبين لي ان البدر، ولونه
احمر قان، قد شاطر المنزل ونفذ من الصدع، الممتد على شكل متعرج
من سطح البيت الى اسفله، والذي كنت قد تحدثت عنه سابقاً ..
فابتعدت عن المنزل على عجل، ورأيت الصدع يتسع بسرعة اكثر
فاكثر، والرياح تحترقه بقوة ويطل منه البدر بكامله، فمادت الارض
بي، وانا ارى جدران المنزل تنهار، وتحدث دويّاً هائلاً، اشبه بما
تحدثه من دوي الاف الشلالات مجتمعة، ومياه البحيرة العميقة الرطبة
الآسنة وهي على بعد خطوات مني، تبتلع انقاض منزل اوشر بهدوء
واصرار.

الانحدار الى المستروم

ها قد وصلنا الى قمة الصخرة القائمة على الجبل الشامخ، وظلّ الرجل المسن عاجزاً عن الكلام خلال دقائق معدودات ... ثم قال :

كنت استطيع ، قبل زمن ليس ببعيد ، ان اقود خطاك في هذا الطريق كما يفعل اصغر ابنائي ، ولكن حدث لي منذ ثلاث سنوات خلت حادث لا يقع لانسان قطعاً ، او على الاقل لا يقع لانسان ويتذكره على قيد الحياة ليرويه .. لقد كابدت ست ساعات رعباً قتالاً حطمتني جسماً وروحاً .

قد ابدو لك رجلاً هرمأ وما انا كذلك ... ففي يوم واحد ابيض شعر رأسي بعد ان كان اسود فاحماً ، ووهنت اطرافي ، وارتخت اعصابي حتى يت اهتز لدى ادنى جهد ابذله ، وارتعب من كل شبح يتراءى لي ... فهل تدري انني اكاد لا انتلع من فوق هذه الصخرة الى اسفل حتى اصاب بالدوار ؟ ...

واستلقي الدليل على « الصخرة الصغيرة » طالباً الراحة ، غير

مكتوث للوضع الذي اتخذته ، فقد ترك القسم الثقيل من جسمه معلقاً عليها ، وهو يمسك نفسه عن السقوط بوضع مرفقه على حافتها القصية الزلاقة ... وكانت « الصخرة الصغيرة » هذه من الحجر اللامع الاسود وعرة المسلك ، ترتفع حوالي الف وخمسمائة او الف وستائة قدم ، فوق دنيا القمم ، التي تشرف عليها ، وما من شيء يستطيع ان يغريني لأدنو من حافتها ، ولو بضع ياردات . والواقع لقد اثارني الوضع المهلك الذي اتخذته الرجل ، فارقيت على الارض وامسكت بالاعشاب التي حولي وانا لا اجرؤ على التطلع نحو السماء ، محاولاً عبثاً ، ان اجرد نفسي من الاعتقاد بان الرياح الهوج تهدد الأسس التي يقوم عليها الجبل ، وانقضى وقت طويل قبل ان استعدت روحي ، ووجدت في نفسي الجراءة الكافية ، لان اجلس واجيل النظر فيما يحيط بي من مناظر .

وقال الدليل : « دونك هذه الصور فتحسسها جميعها ... لقد جئت بك الى هنا حتى تأخذ فكرة جلية عن المكان الذي وقع فيه الحادث الذي ذكرته لك ... ولاروي لك القصة بكاملها ، في البقعة التي جرت فيها وهي تقع تحت نظرك تماماً .

وتابع الدليل حديثه ، وفقاً لطريقته الخاصة قائلاً : اننا الآن ... على مقربة من الشاطئ النروجي ، عند الدرجة الثامنة والستين من خطوط العرض ، في مقاطعة نورلند الكبرى ، وفي اقليم لوفودن الموحشة ... والجبل الذي نجلس على قمته يدعى « هلسغن الغائم » ... والآث فانض قليلاً ، واذا ما اصابك دوار فامسك بالاعشاب - هكذا - وتطلع صوب البحر عبر اطار البخار الذي تحتنا .

تطلعت ، والدوار يلازمني ، فرأيت المحيط المترامي الاطراف ، وكانت مياهه قائمة اللون حيث اعادت الى ذاكرتي ذلك الوصف الذي

تركه الجغرافي النوبي في « بحر الظلمات » ... لقد كان منظراً لا تقوى
الخيلة البشرية على تصور ما هو اشد منه كآبة واكفهراراً ... وكانت
صفوف من الصخور تمتد على مدى النظر يمتدة ويساراً ، كأنها هي اسوار
العالم ، صخور نائته ، سوداء ، مخوفة ، وقد زادت كآبة الامواج العاتية التي
تهاجمها بذراها البيض وهديرها الصاخب ... وكانت تبدو لنا مقابل الجبل
الذي كنا نجلس على قمته ، وعلى بعد خمسة اميال او ستة داخل البحر ،
جزيرة صغيرة شاحبة .. او على الاصح ان ما كان يبدو لنا هو موقعها ،
وسط الامواج الهائلة المتلاطمة التي تغلفها من كل جانب ... وكانت تقع
على بعد ميلين منها ، في اتجاه البر ، جزيرة اصغر حجماً ، جزيرة صخرية ،
قاحلة ، مروعة ، يلتف حولها على ابعاد مختلفة ، اطار من الصخور السود .

اما منظر المحيط ، بين الشاطي ، والجزيرة البعيدة فكان غير عادي
ابداً ... ففي تلك اللحظة هبّ اعصار قوى في اتجاه الشاطي ، فاخفى
سفينة في عرض البحر ، ولم تظهر منها سوى قلاعها المزدوجة ، ومع
ذلك فما كان البحر في علوه وتعاضمه في هذه الجهة الا عادياً ... وما
رأيناه ان هو الا تلاطم امواج صاخبة سريعة الحركة ، قصيرة المدى ،
تسير في اتجاه الرياح وفي عكسها ... اما الزبد فلم يظهر الا في المناطق
المجاورة للصخور .

وتابع الدليل المسن حديثه :

يطلق النرويجيون على الجزيرة البعيدة اسم « فورغ » ، ويدعون
تلك التي في منتصف الطريق « موسكوي » ، واما الجزيرة التي تقع على
مسافة ميل شمالاً فاسمها « امبارن » وهناك جزر « ايفليس » ، وهويلم ،
وكيلوهولم ، وسوارفن ، وبوكهولم ... اما الجزر الواقعة بين
موسكوي وفور فهي اوترهولم ، وفليمن ، وساندفلين ، وسكارهولم ،

هذه هي اسماء الجزر التي نراها ، اما لماذا سميت بها فأمر لا نستطيع ادراكه ... فهل تسمع شيئاً ؟ .. هل ترى تحولاً في تيارات البحر ؟

انقضت حوالي عشر دقائق ونحن على اعالي هلسغن التي صعدنا اليها من داخلية لوفودن ، اما البحر فلم نره الا بعد ان بلغنا القمة ... ولما كان الرجل المسن يحدثنا ، استرعت انتباهي اصوات ترتفع شيئاً فشيئاً وهي اشبه بنحوار قطع كبير من الثيران البرية المنتشرة في القفار الامريكية ... فتطلعت الى المحيط ، تحتنا تماماً ، فرأيت ما يسميه البحارة بـ « القطع » ، رأيت المحيط يحول تياره شرقاً بسرعة هائلة ، ويتضاعف اندفاعه الفائر في كل لحظة ... وفي خمس دقائق كان البحر باجمعه حتى جزيرة « فور » في هيجان عنيف ، لكن المدير كان على اشده بين جزيرة « موسكوي » والبر ، فهنا كان الحضم يتشعب ويتلاحم في الف اتجاه متعارض ، ثم يتخبط فجأة في فتنة هوجاء وهو يزأرويهدر ، ويصفّر ، ويرتفع في عدد لا يحصى من الدورات ، تندفع كلها شرقاً في سرعة لا تعرفها المياه في اي مكان آخر الا في المنحدرات الصخرية .

وبعد دقائق ظهر تحول كبير آخر ، لقد بدت صفحة البحر رانقة وجعلت الدورات تحتفي الواحدة ، اثر الاخرى ، واخذت تظهر خطوط هائلة من الزبد تمتد مسافات شاسعة وتتلاحم ، ثم تنقلب الى دورات هادئة ، وتصبح نواة لدورة اشد سرعة من سابقتها .. وفجأة برزت هذه على شكل دائرة يزيد قطرها عن نصف ميل ، وكانت جوانبها تؤلف زناراً عريضاً من الرذاذ المتلألئ ، دون ان يسقط منه شيء في جوفها المروع الذي كان يبدو ، بقدر ما تستطيع العين سبر غوره ، جداراً من ماء اسود ، لامع ، املس ، ينجح الى الافق ، بزاوية خمس واربعين درجة ، وهو يتلوى في سرعة واجهاد ، محملاً الرياح ، دويّاً

مفزعاً ، متراوحاً بين الزعيق والهدير ، مما لا يصدر عن شلالات نياغارا
الجبّارة ، وهي تتصاعد الى السماء .

احسست ان الجبل يرتجف من اساسه ، وان الصخرة تنهار ،
فاستلقيت على الارض ، وامسكت بالعشب النذر ، واعصاني مضطربة
متوترة .

واخيراً قلت للرجل المسن : ما هذه سوى دوّارة « مالستروم »
العظيمة .

فاجاب : اجل هكذا يدعونها احياناً ، اما نحن النرويجيين فندعوها
« دوّارة موسكوي » ، نسبة لجزيرة موسكوي الواقعة في وسط
الطريق البحري .

إن كل ما علمت عن هذه الدوّارة لم يبي لي فكرة عمّا ارى الآن ،
والوصف الذي تركه «يونا س راموس» في هذا المنظر ، وهو اذق وصف
له ولا ريب ، لا يعبر عن ضخامته وهوله ، ولا عن الذهول الذي
يستبد بمن يعاينه . لست اعرف الزاوية التي شاهد منها السكّاب الدوّارة ،
ولا الوقت ، ولكنني اجزم انه لم يشاهدها من قمة جبل هلسغن ، ولا
عند هبوب الاعصار .. لقد تضمن وصفه مقاطع يجدر بي الرجوع اليها ،
لما اتت به من تفصيل ، ولو انها اضعف من ان تعطي فكرة صادقة
عن المنظر ، قال :

« يتراوح عمق الماء بين جزيرتي لوفودن وموسكوي بين ست
وثلاثين قامة واربعين قامة ، ولكنه من جهة اخرى يتناقص قرب
جزيرة « فورغ » حتى لا تستطيع السفن عبوره دون ان تتعرض لخطر
التحطم على الصخور ، وهو ما يحدث في الواقع مهما كان الطقس

هادئاً... واذا ما قام « المد » فان المياه تغمر المنطقة الممتدة بين
 لوفودن وموسكوي في سرعة عاصفة.. لكن هدير « الجزر » لا يكاد
 يحاكيه هدير اصخب الشلالات وارعبها ، فانه يُسمع على بعد فرائسح ،
 وتبلغ الدوّارات ، او الآبار المائية ، من الاتساع والعمق بحيث لو
 دخلت سفينة في نطاقها لاجتذبتها وقذفت بها الى الاعماق وحطمتها
 على الصخور شر تحطيم ، ولا تلفظ انقاضها على سطح الماء الا بعد ان
 يسترخي البحر وتسكن ثورته ، وتكون فترة الاسترخاء هذه بين
 تناوب المد والجزر ، وعند هدوء الطقس فقط ، ولا تستمر اكثر من
 ربع ساعة ثم يعود البحر الى شدته وفورته بالتدرج... ومن الخطر
 الشديد الدنو من التيار عند اضطرابه المصحوب بهبوب العاصفة ، وكثير
 من الزوارق ، والمراكب ، والسفن ، قد ذهبت الى قعر البحر لانها
 دنت من نطاقه ، ويحدث دائماً ان تقترب الحيتان من التيار فيتغلب
 عليها ، ويتعذر على المرء ان يصف زعيقها وجوارها وهي تصارع التيار
 عبثاً بغية الافلات من برائته... وحدث مرة ان دباً حاول السباحة
 من لوفودن الى موسكوي فامسك به التيار واغرقه فجعل يجار بشكل
 مروع سمعته السواحل... ومما يحدث كثيراً ان يبتلع التيار اشجار
 الشوح والصنوبر فتطفو ثمانية محطمة ومهشمة ، كإن الشوك قد نبت
 عليها ، مما يدل على ان القعر مؤلف من صخور نائمة يحتمل فيها التيار
 جيةً وذهاباً... والتيار هذا يُخضع لنا موسه امتداد البحر وارتداده ،
 وماؤه يعلو ويهبط كل ست ساعات على التوالي.. وما يروى بهذا
 الصدد ان التيار ثار في صباح الاحد الثاني قبل الصوم الكبير من سنة
 ١٦٤٥ وكان من القوة والاصطخاب بحيث انهارت البيوت القائمة على
 الشواطئ حجير على حجير .

اما عمق المياه الذي اشار اليه يونس راموس فلا ادري كيف
يستطاع التأكد منه في جوار الدوّار، وفيما يختص بـ « الاربعين قامة »
فلا تنطبق الا على تلك النواحي من التيار القريبة من الشاطئ سواء
من جهة جزيرة « موسكوي » او من جهة جزيرة « لوفودن » ، وبما
لا ريب فيه ان العمق وسط تيار موسكوي اعظم بكثير ، ولا ادل
على ذلك من القاء نظرة جانبية على لجّته من قمة جبل هلسغن . واذا
تطلعتُ على التيار العجاج من ذروة الصخور لم اقالك عن الابتسام
للسذاجة التي سجل بها يونس راموس النزيه حكايات الحيتان والديبة ،
حكايات يصعب على المرء تصديقها . فقد اتضح لي جلياً وكأمر تأكدت من
حقيقته بذاتي ، ان اعظم البواخر اذا ما دنت من نطاق هذا الاجتذاب
المميت ، فلن تستطيع مقاومتها اكثر مما تقاوم الريشة مهب الرياح ، ثم
تغور في اسرع من لمح البصر .

وجميع المحاولات التي جرت لتفسير هذه الظاهرة ، غير مرضية ،
ولو ان بعضها ، على ما اذكر ، يلوح معقولاً لاول وهله... والفكرة
السائدة على العموم ، ان ليس من تفسير لهذا الدوّار ولثلاثة اصغر
منه تقع بين جزر « فيروي » سوى انها ناتجة عن تلاطم الامواج ،
المرتفعة والهابطة على امتداد البحر وارتداده ، وارتطامها بجواني الصخور
والجيوب المحتضنة للمياه وانحدارها كما تنحدر الشلالات ... وكما
ارتفعت المياه كان الانحدار اقوى واعمق ، والنتيجة الطبيعية لهذا كله
هو « الدوّار » الذي اثبتت الاختبارات قدرته الهائلة على الامتصاص ،
«... هذا ما تراه الموسوعة البريطانية في الموضوع . اما كرتشر وآخرون
فيرون ان في وسط تيار « المستروم » حفرة تحترق الكرة الارضية وتنفذ
في مكان بعيد ، ويؤكد بعضهم ان هذا المكان هو خليج بوثلنيا .»

وهذه الفكرة ، على تفاهتها ، هي اول ما تبادر الى ذهني حينما تطلعت من على ، على انني ما ان ذكرتها لدائلي حتى ادهشني بقوله ان اهل النروج عموماً يأخذون بها ايضاً ، غير انه هو شخصياً لا يعتقد بصحتها ... اما تفسيرى انا فقد عجز عن ادراكه ، وهو محق في ذلك لانه وان بدا منطقياً على الورق لكنه يبدو غير معقول وتافه ، وسط هزيم البحر وعجابه .

وقال الرجل المسن : ها قد نظرت ملياً الى الدوّار ، فاذا ما زحفت حول هذه الصخرة ، حتى انحجبت عن الريح ودويّ المياه ، فاني قاص عليك ما يقنعك انني اعرف بعض الشيء عن تيار «موسكوي-ستروم» . وعملت حسب اشارته ، وطفق يتكلم :

« لقد كنا انا واخواي نملك مركب صيد حملته حوالي سبعين طناً نصطاد به بين الجزر ، وراء موسكوي وبالقرب من « فورغ » .. والصيد عادة لا يكون وفيراً الا اذا كان البحر عجاجاً ، والظرف مناسباً ، والمرء شجاعاً ... وكنا نحن ثلاثتنا الوحيدين ، بين جميع سكان « لوفودن » ، الذين تعمل في الصيد بانتظام بين الجزر ... وتقع مناطق الصيد العادية الى الجنوب ، وهي مناطق مفضلة ، ويتوفر فيها السمك في كل الأوقات دون التعرض الى كثير من الاخطار ... فهذه الاماكن المختارة الواقعة بين الصخور ، كانت تزودنا بافخر انواع الاسماك وبوفرة كبيرة ، وكنا نجتمع في يوم واحد ما لا يجمعه الصيادون الكسالى في اسبوع ... والواقع اننا كنا نقوم بمغامرات يائسة يحل فيها تعريض الحياة الى الاخطار بدلاً من العمل البطيء ، والبسالة بدلاً من رأس المال ...

كنا نرسي مركب الصيد في جون على بعد خمسة اميال من هذا

المسكان ، وننتهز اعتدال الطقس واسترخاء البحر خلال ربع ساعة من الزمن لنندفع بمركبنا عبر « تيار موسكوي » بعيداً عن الدوار ونلقي مرساتنا قرب اوترهولم اوساندفلين ، حيث التيارات اقل عنفاً منها في اي امكنة اخرى ، وكنا نبقى هناك حتى يسترخي البحر ثانية فنسحب المرساة ونعود من حيث اتينا . ولم يسبق ان قمنا برحلة ما قبل ان تثبت من وجود رياح مواتية في الذهاب والاياب ... وما كنا نتثبت منه بصورة خاصة عدم تحلي الرياح عنا قبل عودتنا ، وقلما اخطأنا التقدير في هذا الامر ... وحدث لنا مرتين فقط خلال ست سنوات ان بقينا راسين في منطقة الصيد الليل بطوله بسبب سكون الريح ، واضطررنا مرة للبقاء هناك حوالي اسبوع وكدنا نهلك جوعاً بسبب هبوب اعصار بعد وصولنا بقليل ، جعل من الخطر اجتياز التيار ، وكدنا نساق الى عرض البحر ، بالرغم من مقاومتنا الشديدة لان الدورات اخذت تلف بنا وتلف بعنف حتى اضطررنا في آخر الامر الى سحب مرساتنا ودخولنا في تيارات متعارضة ، تحط بنا هنا يوماً وتأسرنا هناك يوماً آخر ، الى ان اسلمتنا للرياح التي تهب من جهته « فليمن » وخرجنا سالمين لحسن الطالع .

ويتعذر عليّ ان اروي لك العشر من الصعاب التي واجهتنا هناك ، انها بقعة رديئة مهما كان الطقس الذي يحف بها معتدلاً ، ولكننا كنا دائماً نختار علي قطع مجرى تيار موسكوي ، دون ان نعرض انفسنا للمخاطرة ، وكمن مرة كنت احس فيها ان قلبي يكاد يقفز من صدري كلما تأخرنا عن موعد استرخاء البحر بدقة واحدة ، او كلما سبقنا هذا الموعد بدقة واحدة ... ويحدث احياناً الا تكون الريح من القوة مثلاً لاحت لنا عند انطلاقنا ، فلا نقطع المسافة التي نود قطعها بينما التيار يجعل المركب صعب المراس .

وكان لآخي الأكبر ولد في الثامنة عشرة من عمره، وكان لي ولدان مفتولا الساعد ، وبوسعهم ثلاثتهم ان يكونوا لنا خير عون في الاوقات الحرجة ، سواء في تحريك المجاذيف او في الصيد ، غير ان قلوبنا لم تطاوعنا على تعريض الفتية للاخطار ، فنتعرض لها نحن مهما كانت التدابير المتخذة لتجنبها .

اما الحادث الذي ساقصه عليك فقد وقع لنا منذ ثلاث سنوات ، وخلال ايام معدودات، اي في اليوم العاشر من شهر تموز سنة - ١٨ ، وهو يوم لا ينساه اهل هذا الجزء من العالم ، اذ جادت فيه السماء بارعب اعصار ، استمر طوال النهار وشطراً من بعد الظهر ، وحوالي العصر فقط هبّ من الجنوب الغربي ، نسيم لطيف ثابت ، وكانت الشمس ترسل اشعتها المشرقة ، فلم يكن والحالة هذه بمقدور اقدم بحّار بيننا ان يتنبأ بما سوف يقع .

لقد اجتزت التيارات في ذلك اليوم مع اخي الكبير الى ان بلغنا الجزر حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ، وسرعان ما ملأنا المركب بالسماك الجيد، وكان في ذلك اليوم اوفر من اي يوم سابق... وكانت الساعة السابعة مساءً - وفق ساعتنا - عندما سحبتنا المرساة وشرعنا بالعودة ، حتى نقطع التيار وقت استرخاء البحر ، ويكون عادة في الساعة الثامنة مساءً .

وهبّت عن يمين المركب ريح باردة ، فانطلقنا مسرعين لاننا ما كنا نتوقع خطراً ، وما كان في الواقع ثمة ادنى سبب لذلك ، وفجأة ارجعتنا الى الوراء ريح عصفت من جهة جزيرة هلسغن ، وهو امر غير عادي ، ولم يحدث لنا من قبل وبدأت احس بمضايقة دون ان اعرف لها سبباً... وادرنا المركب في اتجاه الريح، لكننا لم نقرب من الدوّار،

وكدت اهتم باقتراح العودة الى مرسى صيد الاسماك عندما شاهدنا من مؤخرة المركب ، الافق كله وقد حجبتة غمامة رصاصية اللون ، وهي ترحف بسرعة هائلة .

وفي هذه الاثناء انقطعت الريح واحاط بنا سكون مطبق وصرنا نندفع في كل اتجاه دون ان نتاح لنا اية فرصة لاعمال الفكر ... وفي اقل من دقيقة ادركتنا العاصفة ، وفي اقل من دقيقتين تلبدت السماء بالغيوم الداكنة والظلام الخالك حتى امسينا لا نرى بعضنا بعضاً .

اما الاعصار الذي هبّ وقتئذ فمن الجنون محاولة وصفه ، ولا اعتقد ان اقدم بحار في النروج قد سبق له واختبر هذه المحنة .. فما كان منا الا ان اطلقنا شراعنا للريح ، غير ان الاعصار ادركنا وفي اول هبة سقط الصاريان كلنا نشرًا بمشار ، وذهب اكبرهما باخي الذي كان متشبهاً به طلباً للامان .

لقد كان مركبنا وقتئذ كانه اخف ريشة حملها البحر ، فظهره متساو وفيه كوة قرب المقدمة كان من عادتنا اقفالها عندما نمر بالتيار على سبيل الاحتياط من تحولات البحر ، ومن المفروض في ذلك الظرف ان نفرق على الفور لان المياه ظلت تغمرنا لحظات ... اما كيف نجا اخي الكبير من الهلاك فلا ادري ، اذ لم تتح لي فرصة للتحقيق ، اما انا فحالما اطلقت الشراع ارتقيت على ظهر المركب ووضعت قدمي عند حاجز مقدمته وامسكت بحلقة قرب قاعدة الصاري الامامي ... ان الغريزة هي التي دفعتني لان افعل ما فعلت ، وهو خير ما فعلت ولا ريب ، لانني كنت في حالة من الاضطراب الشديد بحيث لا استطيع التفكير والتأمل .

اجل غمرتنا المياه للحظات كما ذكرت ، وقد حبست انفاسي ، وانا

متشبث بالحلقة ، واذ عدت لا استطيع تحمل هذا الوضع ، ركعت قليلاً وانا لا ازال اتمسك بالحلقة، وبذلك استطعت رفع رأسي والتطلع الى ما حولي ... وفي هذه الاثناء افلت المركب بعض الافلات من سيطرة البحر وكان يهتز في خضمه كما يهتز الكلب الخارج من الماء ، ثم اخذت احاول التخلص من الذهول المستولي عليّ ، واجمع حواسي لاعرف ما يتوجب عليّ عمله ، واذا بشخص يمسك بيدي ، وكان اخي الاكبر، فطار قلبي من شدة الفرح لانني كنت اعتقد ان اليم قد ابتلعه، لكن سرعان ما انقلبت غبطني هلعاً حين وضع فمه على اذني وصرخ « موسكوي - ستروم » .. اي تيار موسكوي !!

وليس بوسع اي انسان ان يدرك الشعور الذي انتابني في تلك اللحظة ، فقد اخذتني الرعدة من قمة رأسي حتى اخمص قدمي ، كأنما أصبت باعنف نوبة من نوبات الحمى .. لقد عرفت جيداً ما الذي يعنيه بتلك الكلمة ، كما عرفت ما يود ان افهمه منها ... فالريح تدفعنا الى دوّار التيار وليس لنا سبيل الى النجاة .

لقد تبين لك من حديثي اننا عند عبورنا مجرى التيار ، كنا نظل دائماً بعيدين عن الدوّار ، حتى في اهدأ طقس، كما كنا ننتظر استرخاء البحر ونراقبه بعناية فائقة، غير اننا الفينا انفسنا اثناء عودتنا ونحن نتجه الى الدوار مباشرة وفي جو من الاعصار رهيب .. كنت ارجو الوصول الى المنطقة التي أسرنا فيها والبحر في حالة من الاسترخاء ، لكنني ما لبثت ان لغنت نفسي لهذه الحماقة التي ابديتها بالاعتماد على رجاء واهٍ ... فتيقنت تماماً اننا مقضي علينا حتى ولو كنا في سفينة حجمها عشرة اضعاف حجم مركبنا .

وفي تلك اللحظة فرغ الاعصار من هباته الاولى، ولعلنا لم نشعر

بوطأته كثيراً بسبب السرعة التي اندفعنا بها قبل انقضاؤه ، الا ان
البحر الذي استسلم للهدوء مع هدوء الرياح ، ظل يرغي ويزبد مستوياً
الى ان تفجر من جديد، وانقلب الى ما هو شبيه بالجبال الشوامخ ، ثم
وقع تبدل آخر لقد انفجرت فجأة في السماء، المنعقدة فيها سحب سوداء
كالقطران ، دائرة من الصفو التام لم ار لصفاءها مثيلاً ، لها لون ازرق
مشرق ، وقد بزغ منها القمر بدرأ مع بهاء لم اكن لادري قبلاً انه
يتحلى به ، وكانت يضيء كل شيء حولنا بجلاء كلي ... ولكن
يا للسماء.. ما هذا المنظر الذي اضاءه القمر ؟..

حاولت مرة او مرتين ان اتحدث الى اخي فلم افلح لانت هدير
البحر اخذ يتعاضم بطريقة عجزت عن ادراك كنهها ، ولم استطع ان
أسمعه كلمة واحدة مع انني كنت اصرخ في اذنه باعلى صوتي .. كان
اخي يهز رأسه ويبدو في صفرة الاموات ، ويرفع احد اصابعه كمن
يقول : إسمع !..

لم افقه اول الامر ما يعني بقوله إسمع.. وفجأة طرأت علي فكرة
مخوفة فاخرجت الساعة من جيبي والقيت نظرة على ميناها في ضوء
القمر فوجدتها لا تدور ، فروعت واخذت ابكي وانا اقدف بها بعيداً
في المحيط... كان عقرب الساعة يقف عند السابعة ، وهذا يعني اننا
تعدينا فترة استرخاء البحر وان دوّار التيار الآن في اوجه .

ولما كان المركب حسن البناء محكم الصنع ، وغير مثقل بالاحمال ،
فان الامواج في العاصفة القوية ، تبدو وكأنها تنزلق من تحته ، الامر
الذي يثير دهشة رجل البر واستغرابه ، اما نحن ، فندعو هذا المنظر
بلغة الملاحين : « امتطاء » البحر...

لقد امتطينا قباب الامواج كثيراً في حياتنا البحرية ، وبمهارة

فائقة ، الا ان البحر الجبار في هذه المرة اخذنا بقبضته وكان يرفعنا
عالياً.. عالياً.. كأننا الى السماء... انها اول مرة في حياتي ارى فيها
البحر يبلغ هذا الحد من العلو ، ثم يهبط بنا بانحراف وانزلاق وغوص
مما يجعلني احس بالضيق والدوار ، كمن يحلم انه يسقط من قمة جبل
شاهق، واغتنمت الفرصة اثناء الارتفاع والقيت نظرة سريعة الى ما حولي
فادركت مركزنا الحقيقي في لحظة ، لقد كان دوّار تيار - موسكوي
على بعد حوالي ربع الميل امامنا مباشرة ، لكنه يختلف عن مظهره
اليومي، كما يختلف عما رأيته انت عليه الآن فهو اشبه برحى الطاحون...
ولو لم ادر اين كنا ، وما هو المصير الذي ينتظرنا ، لما تمكنت من
تعرف المكان الذي بلغناه قطعاً ، فاغضت عيني على كره مني من
شدة الرعب ، والنصقت جفوني معاً وهي ترتجف وتختلج .

وما مرت دقيقتان حتى شعرنا ان الامواج اخذت تهدأ ، والزبد
يغمرها من كل جانب ، وبعد ان انحرف المركب الى الجانب الايسر
انطلق في اتجاه جديد كالصاعقة... وفي الوقت ذاته ضاع هدير المياه في
زعيق حاد ، وكأنه صادر عن صفارات الف سفينة بخارية ، تطلقها
معاً... وبلغنا طوق اللبج الذي يحيط بالدوّار عادة ، واعتقدتُ بداهة
انه لن تنقضي لحظة الا وتبتلعنا الهاوية التي لا نراها بجلاء نظراً لسرعة
التيار الهائلة التي كانت تقودنا اليها... لكن المركب لم يسقط في
الهاوية وانما ظل يرتقي على العُباب كما ترتقي فقائيع الهواء، يحاذيه الدوّار
من الجانب الايمن ، ويحاذيه المحيط من الجانب الايسر ، المحيط الذي
خلفناه ورائنا ليحجب عنا الافق كسور متعرج هائل .

قد يبدو غريباً بعد ان اصبحنا بين فسكي الدوّار ، انني بت اكثر
اطمئنانا عما كنت قبل ان يقترب مركبنا منه ، فقطعت الامل من

الحلاص وتحررت نفسي من الرعب الذي استولى عليها ، وخيل اليّ ان اليأس والقنوط قد شدا اعصابي واعطياها قوة ومناة .

واقول لك غير متباه وانما هي الحقيقة بعينها ، انني بدأت احس بروعة الموت على هذا النحو ، كما بدأت استقبح محاولاتي للاهتمام بحياتي الشخصية ، ازاء هذا العرض البديع لقدرة الله جل جلاله ... ولا تعجب ان قلت لك انني احمررت خجلاً حين راودتني فكرة العناية بمصري ... وما هي الا لحظات حتى تملكني الفضول لدراسة الدور ذاته ، ورغبت في ارتياده وسبر غوره حتى ولو كلفني ذلك حياتي ، ان ما كان يجلب لي الأسى هو انني لن اتمكن ابداً من ان اقص على رفاقي القدماء المقيمين على الشاطئ ما سأشاهده من خفايا البحر وأسراره ... ومن المستغرب حقاً ان تشغل هذه التخيلات ذهن امرئ وهو في مثل هذا الموقف الحرج ، وبت اعتقد ان دوران المركب قد جعلني خفيف الاحلام قليلا ..

والعامل الآخر الذي اعاد الي طمأنينتي هو انقطاع الريح عن البقعة التي تدور فيها ، لان طوق اللجج كان كما رأيت ذلك بنفسك ادنى من مستوى البحر الذي كانت يرتفع فوق رؤوسنا مثل الجبال السود الشاخات ... ويتعذر على المرء ان يدرك ما تحدثه الرياح ورشاش الامواج من اضطراب في نفسه وفكره ، اذا لم يختبر البحر ابان إعصار اهوج ... انهما يعميان ، ويطرشان ، ويخنقان ، ويسلبان كل قدرة على العمل والتفكير ... اما نحن فقد تخلصنا الى حد بعيد من هذه المضايقات ، ومثلنا في ذلك مثل الاشقياء المحكوم عليهم بالموت حين يسمح لهم بالتمتع في السجن بما كانوا منه محرومين قبل ان يقرر مصيرهم .

وظلنا ندور حول الطوق ساعة من الزمن على وجه التقريب بل
بالأحرى كنا نظير ولا نطوف ، ونغضي أكثر فأكثر الى وسط
الهاوية، ونقترب شيئاً فشيئاً نحو حافتها الداخلية الرهيبة دون ان افلت
الحلقة من يدي طوال هذا الوقت ، وكان اخي في المؤخرة ممسكاً
برميلاً واسعاً فارغاً، وضع في مكان امين تحت رفرف حافة المركب ،
وهو الشيء الوحيد الذي لم تقذف به العاصفة الى البحر حين اغارت
علينا... وعندما اقتربنا من حافة الهاوية تخلى اخي عن البرميل وامسك
الحلقة محاولاً في غمرة من الذعر ان ينزع يدي منها ، لانها لم تكن من
اللاتساع لتمنح كلا منا الممسك الامين ، فما ان احسست بمحاولته هذه
حتى اصابني غم لم يسبق ان اصبته به مع انني كنت اعلم انه لم يفعل
ذلك الا بدافع جنوني، مصدره الرعب، وعلى ذلك لم اسع الى منازعته
الحلقة فلا فرق ان امسكتها انا ام هو، فتركتها له وذهبت الى البرميل
في المؤخرة ولم اجد في ذلك كبير صعوبة لان المركب كان يدور في
ثبات واستواء ويتحرك جيئة وذهاباً ، بفعل تحرك الدوار واجهاده
الهائل.. وما كدت اثبت نفسي في مركزي الجديد حتى جنح بنا
المركب الى الجانب الايمن بقوة ، واندفع في جوف الهاوية رأساً ،
فتوجهت الى الله بصلاة عاجلة وظننت ان الامر قد قضي .

وعندما احسست بهول الانحدار ، احكمت امساك البرميل غريزياً،
وانغمضت عيني وظللت ثواني لا اجرؤ على فتحهما ، وانا اتوقع الهلاك
السريع ، واسائل نفسي فيما اذا كنت قد دخلت في صراع مميت مع
البحر ، وانقضت لحظة اثر لحظة وانا لا ازال على قيد الحياة ، ثم
احسست ان المركب قد توقف عن الانحدار وانه عاد الى حركته
السابقة عندما كان في طوق الزبد ، الا انه الآن اكثر استواء ،

واستجمعت قواي وتطلعت الى فوق..

لن انسى ابداً ذلك الرعب الممزوج بالاعجاب الذي استولى علي اذ ذاك... لقد لاح لي المركب و كأن يداً سحرية قد علقتة في منتصف الهاوية وعلى ما يشبه فوهة مدخنة واسعة المحيط ، عظيمة العمق يخال للمتطلع الى جوانبها الملساء كأنها مصنوعة من الابنوس ، لولا السرعة الحيرة التي تدور بها ، ولولا الاشعاع اللامع الشاحب الشبيه باشعاع البدر، الذي كان ينبعث من تلك الفرجة المستديرة ، الظاهرة في وسط الغيوم - وقد اتيت على وصفها - فيغمر بسنائه الذهبي اللون الجدار الابنوسي كله ، وينساب بعيداً الى اعماق اللجة .

لقد كنت في بادىء الامر مبلبل الفكر ، بحيث لم استطع ملاحظة اي شيء حولي.. كنت مأخوذاً بالعظمة المروعة التي كانت تحف بي... وعندما عدت الى رشدي قليلاً ، دفعني الغريزة لان القي نظرة الى اسفل ، فظفرت بمشهد كامل للوضع الذي اتخذته المركب على سطح الهاوية المنحرف... كان المركب مستوياً ، اي ان ظهره مواز لسطح الماء ، ثم انحدر هذا السطح بزاوية تزيد عن خمس واربعين درجة ، فترأى لنا وكأننا نستقر على طرف عارضة المركب ومع ذلك لم يفتني ان الاحظ انني لم اعد القي كثير صعوبة في المحافظة على موقعي ، كما لو ان المركب يطفو على صفحة مياه ساكنة... وانني اعزو السبب في ذلك الى سرعة دوران المياه ليس الا .

وبدت اشعة القمر تتسرب الى اعماق الهاوية. ومع ذلك فقد كنت لا اميز الاشياء بجلاء نظراً للضباب الكثيف الذي كان يغلف تلك الاعماق ، الضباب المتوج بالوان قوس قزحية رائعة ، تشبه ذلك الجسر الضيق المتأرجح ، «السراط المستقيم» ، الذي يرى فيه المسلمون انه الطريق

الوحيد الذي يصل الزمن بالسرمدية ... وما من ريب ان هذا الضباب او الرشاش ناتج عن تصادم جدران الهاوية الهائلة عند التقائها في القعر ... اما ذلك الزعيق الذي كان يتعالى من ثنايا الضباب الى السماء فلا اجد في نفسي الجرأة على وصفه .

لقد ساقطنا الانحدارة الاولى من فوق طوق الزبد الى مدى بعيد في الهاوية ، ثم اصبح هذا الانحدار غير متعادل ، فكنا ندور باستمرار بحركة لا تناسق فيها ، ولكن في تأرجحات وهزات مجلبة للدوار ، تدفعنا حيناً الى اسفل الهاوية على بُعد مئات من الياردات ، وتأسرنا حيناً آخر في نطاق الدوار ... وكان انحدارنا في كل دورة بطيئاً ، الا انه جد محسوس .

واذ تطلعت الى ما حولي في هذا الحضم من الابنوس الشاسع ، الذي يحملنا على راحتيه ، ادر كت ان مر كبنا لم يكن الشيء الوحيد الذي احتضنته الهاوية ... فقد كانت تطفو فوقنا وتحتنا انقاض السفن ، وقطع كبيرة من خشب البناء ، وجدوع الاشجار ، واشياء صغيرة كثيرة كاجزاء من الاثاث المنزلي والصناديق ، والبراميل ، والالواح الخشبية المحطمة ... كنت اتيت على ذكر الفضول غير الطبيعي الذي حل في نفسي محل الرعب الاول ، ولقد صار هذا الفضول يتضاعف كلما ازددنا اقتراباً من النهاية الرهيبة ، فاخذت ارقب باهتمام واستغراب تلك الاجسام العديدة التي كانت تطفو معنا ... ولا ارتاب في انني كنت هاذياً حين اخذت اتسلى في تقدير السرعة النسبية لانحدار هذه الاجسام نحو الزبد المتقلب في اسفل الهاوية ... ووجدتني مرة اقول لنفسي : ستكون شجرة صنوبر هذه المادة التالية للغوص الرهيب ، والاختفاء عن الانظار ... فيخيب ظني واجد حطام سفينة تجارية هولندية تسبقها

وتهوي قبلها... واخيراً ، وبعد تخمينات كثيرة من هذا القبيل ،
اخفقت فيها كلها ، جالت في رأسي سلسلة من الافكار جعلت اطرافي
ترعد فرقاً وقلبي يخفق بشدة .

ولم تكن هذه الحالة التي استولت على مشاعري نوعاً جديداً من
الرعب ، وانما هي بدء رجاء جديد اشد اثاره للنفس ... ولقد بعث
هذا الرجاء بفعل عاملين وهما : ذاكرتي اولاً ومشاهداتي ثانياً ...
لقد استعادت ذاكرتي تلك الاشياء المتنوعة التي تنتشر بكميات عظيمة
على شواطئ جزيرة « لوفودن » بعد ان ابتلعها دوار « موسكوي -
ستروم » ثم يلفظها ، فمعظم هذه الاشياء كان محطماً على نحو خارق
للعادة ، انه مفروك ومنحوت نحتاً خشناً ، وقد اتخذ شكل عصي مليئة
بالشظايا ، غير انني كنت الحظ ان بعض هذه الاشياء كان سليماً من
كل تشويه .

فأوضح لي ان ليس من تفسير لهذا الاختلاف سوى ان الاشياء
المنحوتة قد ابتلعها الدوار ابتلاعاً كاملاً ، واما السليم منها فهو الذي
دخل الهاوية في وقت متأخر عن مد البحر وجزره ، او انه لسبب ما
قد دخل الهاوية ببطء ، فامتد البحر وارقد وهو لا يزال في منتصف
الطريق ... ففي هاتين الحالتين تطوف الاشياء التي ابتلعها الدوار ،
وتظهر على سطح البحر ثانية دون ان تلاقي مصير تلك الاشياء التي
سقطت في الهاوية في وقت مبكر ، او اجتذبتها السرعة الى قاع اليم ..
وعلى ذلك خرجت بثلاث ملحوظات هامة : الاولى هي انه كلما كانت
الاجسام الساقطة ضخمة كان انحدارها اسرع ، والثانية هي انه اذا
اجتذب الدوار ككتلتين متساويتين في الاتساع ، الاولى كروية
الشكل والثانية غير كروية ، فانحدار الكتلة الكروية اسرع من تلك ،

والملاحظة الثالثة هي انه اذا اجتذب الدوار كتلتين متساويتين في الحجم ،
الاولى اسطوانية الشكل والثانية غير اسطوانية فانحدار الكتلة
الاسطوانية ابطأ من تلك ...

وكثيراً ما تجادلت في هذا الموضوع ، بعد ان أفلتت من قبضة
البحر ، مع احد معلمي الناحية ومنه تعلمت استعمال كلمتي « اسطواني »
و « كروي » وهو الذي شرح لي - وقد نسيت هذا الشرح - ان
ما لحظته انما هو في الواقع النتيجة الطبيعية لاشكال القطع الطافية ،
وافهمني كيف ان الجسم الاسطواني يبدي مقاومة شديدة للدوار ،
ويكون غرقه اصعب من الاجسام الضخمة مهما كان شكلها ، وان
ارخميدس قد اثبت صحة هذه النظرية .

وكان هناك ظرف ادعى للدهشة قد اثبت صحة ملحوظاتي الى ابعاد
حد ، وجعلني شديد الاهتمام للافادة منها ، وهو اننا كنا نمر في كل
دورة باشياء كالبرميل ، او لوحة محطمة او صارٍ ، وكانت معظم هذه
الاشياء ، عندما فتحت عيني لأول مرة على عجائب الدوار ، يطوف
في مستوانا لكنني اصبحت اراه الآن يعلونا قليلاً .

ولم اتردد كثيراً فيما عليّ ان افعله وعقدت النية على ان اقيّد نفسي
جيداً الى البرميل الذي أمسك به وان اخرجه من تحت الجافة والقي
بنفسي معه الى اليم ... وقد استرعت انتباه اخي بالاشارة واومأت
الى البرميل العائمة بالقرب منا وبذلت كل جهدي لافهمه ما انوي القيام
به ، واعتقد انه قد ادرك القصد من اشاراتي في نهاية الامر ، لكنه سواء
ادركه ام لم يدركه فقد هز رأسه في يأس ورفض التخلي عن الحلقة
وقد تعذر علي ارغامه على تركها والاقتداء بي . فالطاريء لم يقبل
التمهل ، وهكذا وجلت نفسي والالم يعترض قلبي التخلي عن اخي ليلاتي

المصير الذي ينتظره ، فشددت نفسي الى البرميل بالحبال التي تربطه الى الحافه واندفعت معه الى البحر دون تردد .

وكانت النتيجة وفق ما رجوت .. ولما كنت انا اقص عليك هذه القصة بذاتي ، وها قد نجوت كما تراني ، ولما كنت انت قد تحققت من الكيفية التي افلت بها ، فانك تتوقع ولا ريب الاستماع الى ختام القصة ، وها انا اضعه بين يديك على عجل : فبعد مضي ساعة على وجه التقريب من تركي المركب ، رأيته ينحدر الى الاعماق ويدور على نفسه ثلاث او اربع دورات في تنابع سريع ضارٍ ، ثم يغوص الى الابد في عجاج من الزبد ، حاملاً معه اخي الحبيب .

اما البرميل الذي تشبثت به ، فانه ما كاد يتجاوز منتصف المسافه الواقعة بين النقطة التي قفزت منها وقعر الدوّار ، حتى طرأ على هذا الدوّار تبدل عظيم ، فقد ضمرت جوانب الفوهة فجأة ، وقل انحدارها وخفّت حدة الدوار بالتدريج ، واختفى الزبد ومعه قوس القزح ، وبدأ جوف الدوّار يرتفع شيئاً فشيئاً ... ثم وجدت نفسي على سطح اليم فوق البقعة التي كان يشغلها دوّار « موسكوي - ستروم » ، وساحل لوفودن في متناول نظري ، وكانت السماء صافية ، والرياح قد جنبحت الى الهدوء ، والبدر يسطع في الغرب .. انه وقت استرخاء البحر ، غير ان الامواج كانت لا تزال ترتفع جبلاً بتأثير الاعصار ... وحملت بعنف الى مجرى التيار ، وما هي الا دقائق حتى قذف بي الى منطقة صيادي الاسماك على الشاطئ ، وهناك التقطني قارب وانا خائر القوى ، عاجز عن النطق ، مأخوذ بذكرى الاهوال التي شاهدها واختبرتها ، فالاشخاص الذين التقطوني هم اصدقاؤى القدامى ، ورفاقي في العمل ، لكنهم لم يتعرفوني ابداً ، وكنت ابدو لهم كمسافر آتٍ من عالم

الارواح ... فشعري الذي كان اسود فاحماً قد ابيض في ليلة
وضحاها ... وهم يقولون ايضاً ان جميع ملاحي قد تبدلت ، ولما
رويت لهم قصتي لم يشاؤا تصديقها ، وهما انا ارويها لك الآن ، غير
متيقن تماماً بانك ستصدقها ، مثلك في ذلك مثل صيادي لوفودن
المرحين .

جريدة في شارع مورغ

تعالج المظاهر العقلية عادة من الوجهة التحليلية ، في حين ان هذه المظاهر مجرد ذاتها قلما تخضع للتحليل ... ولكننا نقدره بما يتركه من اثر في النفس ، واننا نعرف فيما نعرف من اشياء ، انه عندما يكون التحليل مفرطاً يجلب لصاحبه متعة ما بعدها متعة ... وكما ان الرجل القوي يجذل لما هو عليه من مقدرة جسمانية ، ويلتذ بتمرين عضلاته ، فكذلك المحلل يزهو بتحليل العقد المعنوية ... ويشفق المسرة من أنفه الامور التي يشغل بها فكره .. فهو يحب الالغاز والاحاجي ، والعقد الهيروغليفية ، ويعرض في تحليله درجة من الحذق تبدو للفهم العادي انها خارقة للطبيعة ... فالنتائج التي يتوصل اليها المحلل هي في الحقيقة وليدة حسه وادراكه ... اما مقدرته على تقرير الامور فتتوقف على دراسات حسابية ، يطلق عليها اسم « التحليل النفسي » .. ومع ذلك فان العمليات الحسابية مجرد ذاتها ليست تحليلاً ... فلاعب الشطرنج مثلاً يخطو خطوة دون ان يسعى الى الخطوة التي تليها ، وبالتالي يساء فهم الأثر العقلي الذي تحدثه لعبة الشطرنج في اللاعب .

انني لا اكتب الآن بحثاً ولكنني اقدم لقصة غريبة بملحوظات

عرضت لي اتفاقاً ... وعلى ذلك فاني اغتم الفرصة لادال على ان قوى التفكير تكون اشد يقيناً ، واكثر فائدة في لعبة بسيطة كالعبة (الداما) بدل ان تكون في لعبة الشطرنج وما تقتضيه من خفة واحكام ... ففي اللعبة الاخيرة ترى القطع متنوعة ، وتقوم بحركات غريبة ، لها قيم شتى والتشابك فيها ينعت بالعمق خطأ .. وهي تقتضي الانتباه الزائد ، واذا ما سها اللاعب لحظة واحدة تعرض للأذى او للهزيمة ... والحركات فيها ملتوية وعديدة ، وبجال السهو فيها واسع وتسعة اعشار اللعب فيها تهدر في التفكير والتأمل ... اما لعبة الداما فهي على النقيض من ذلك ، انها موحدة الحركات ، وقليلة التعقيد ، وبجال السهو فيها محدود ، والانتباه فيها نسي ، فالرابع فيها هو الحاذق ... ولكي نبعد الغموض نفترض ان هناك لوحة للداما وقد أنقصت قطعها الى اربع ، فعدت ولا مجال للسهو فيها قطعاً ، فمن الجلي ان الفوز فيها تقرره بعض حركات تفتيشية ناتجة عن الاجتهاد في التفكير .

وكذلك الامر في ورق اللعب فلا يتطلب كثير حساب ، وترجع المهارة فيه الى التنبؤ ، وقوة الملاحظة في هذا اللعب تعتمد على قوة الذاكرة ، فاللاعب هنا يدرس اوضاع خصمه فيلاحظ في اية يد يحمل الورق ، ويقرأ تعابير وجهه من دهشة ، وفوز ، وحزن ، ويراقب الطريقة التي يلقي فيها اوراقه ، ومدى هدوءه او اضطرابه في قلب تلك الاوراق وما يوافق ذلك من لجوء الى الحيلة ، او الوقوع في البلبلة والحيرة ، او الاعراب عن النشاط او القلق ..

فجميع هذه المظاهر تدله على الخطوات التي سيخطوها خصمه ، او خصومه ، وتوقفه على الوضع الراهن لسير اللعب ، ولا يلبث حتى

يسيطر عليه، ويأخذ في القاء أوراقه كأن خصمه أو خصومه يلاعبونه على المكشوف ..

وعلى ذلك فإن قوة التحليل لا تتركز على البراعة المجردة، والمحلل هو على الجملة بارع، في حين أن البارعين من الناس قلما يجيدون التحليل... وهناك اختلاف بين القدرة على التحليل والبراعة، أعظم من الاختلاف القائم بين الوهم والتصور، ولو أن التشابه بين هذه الحالات بارز جداً، وانك لو اجد دائماً أن المرء البارع هو واهم، وأن المرء التصوري حقاً هو محلل.

وهذه المقدمة ستلقي بعض الضوء على القصة التي سأعرضها على القارئ:

كنت اقيم في باريس في ربيع سنة - ١٨ و شطر من صيفها، وهناك تعرفت الى الميسوس . اوغست دوبان ، وهو شاب رقيق الحاشية ، ويتحدر من أسرة بارزة ، غير أن الحوادث التي تعاقبت عليه قد حطت به الى مستوى الفقر والحاجة ، ووطأته بنعالها فصار يتجنب الظهور في المجتمعات ، ويعزف عن بذل أية محاولة لاستعادة ثروته .. وقد شفق عليه دائنوه وتركوه يتصرف ببعض ماله وما يدره عليه هذا المال القليل من دخل ، فاتبع سياسة اقتصادية صارمة تقوم على التوفير والتقيير ، لكنه لم يحرم نفسه من الكتب ابداً، وهذه الكتب موجودة في باريس بوفرة وسهولة المنال .

التقينا للمرة الاولى في مكتبة تقع في شارع مونمارتر، وكنا اثنانا نبحث عن كتاب واحد نادر الوجود ، وتعارفنا على هذا الصعيد ، ثم اجتمعنا المرة تلو المرة ، فروى لي سيرة اسرته بكل ما يتسم به الفرنسي من صراحة في القول ، فأثار في اهتماماً بالغاً في مصير هذه

الاسرة... لقد ادهشتني كثرة مطالعته ووجدت ان نفسي تستعر ازاء همته الضارية ، وتصوراته الفتية الحية ، ورأيت في عشرة هذا الرجل فائدة جليلة ، واعربت له عن شعوري هذا صراحة ... فاتفقنا معاً على ان نسكن تحت سقف واحد طوال مدة اقامتي في باريس ، ولما كانت ظروفنا اقل اضطراباً منه فقد استأجرت بيتاً مهجوراً ، وموثلاً على طراز يناسب خيالنا ، ومزاجنا ، يقع في ناحية نائية منعزلة من ضواحي سانت جرمان .

فلو علم الناس بهذا النمط من المعيشة ، الذي اخترناه لنفسيما حسبوا اننا ولا ريب من المجاذيب ، او من المجانين المسالمين ... فقد احكمنا العزلة ، ولم نستقبل ضيوفاً ، وضربنا حول بيتنا نطاقاً خفياً وانقطعنا عن معارفنا في باريس انقطاعاً تاماً ... وبعبارة أخرى لقد قررنا على ان نعيش لنفسيما ولنفسيما فقط .

ومن نزوات خيال صديقي ان يتعشق الليل من اجل الليل ... وقد وقعت تحت تأثير شذوذه هذا ، بل وتحت تأثير كل ما يصدر عنه من شذوذ مستسلماً لأهوائه ، ومتخلياً عن كل معارضة لها .

ولم يكن الليل ليعقيم معنا دائماً غير اننا كنا نحتال عليه ونخلقه ... فما ان يرسل الفجر طلائعه حتى نقفل مصاريع النوافذ الثقيلة ، ونضيء بعض الشموع ذات الرائحة القوية ، فترسل علينا اشعاعات ضئيلة خافتة ... ومن ثم ننهمك في اشباع احلامنا النهمه فنطالع ، ونكتب ، ونتذاكر ، الى ان تعلن الساعة حلول الظلام من جديد ... فنتسلل الى الشوارع يتأبط احدها ذراع زميله ، ونوالي التحدث في المواضيع الحساسة ، او نطوف هنا وهناك بافكارنا المهتاجة ، وسط الاضواء الزائفة ، وفي ظلال المدينة المأهولة بالسكان .

ولا يسعني هنا الا ابداء اعجابي بمقدرة دوبان على تحليل الامور ،
حتى انه هو نفسه كان يسر بهذا الضرب من الممارسة الفكرية ، ويعترف
به ، فيتباهى امامي والضحكة الخفية على ثغره .. ان اغلب الرجال
بالنسبة اليه هم عبارة عن « نوافذ بالية » ، كان يتحدث عن نفسه وفي
ملاحه جمود وغموض ، وفي عينيه سهو ، وفي صوته ارتعاش ... واذ
كنت اراه على هذا الوضع انصرف على الفور الى التأمل بفلسفة الروح
الثنائية ، وامتع نفسي بتأمل شخصية صديقي المزدوجة ، دوبان الخالق
ودوبان المحلل .

انني لا اقصد فيما انيت على ذكره ، الدخول في تفصيلات روائية
غامضة ، فحالة دوبان التي وصفتها ناتجة عن قلق او عن اضطراب في
الجهاز التفكيرى ليس إلا .

كما ذات ليلة نجوب شارعاً قدراً بالقرب من باليه رويال بباريس ،
وكلانا منهمك بالتفكير في امر ما ، وانقضت حوالي خمس عشرة دقيقة
ونحن في صمت مطبق ، واذا بدوبان يقول على حين غرة : « انه شخص
قصير جداً ... ويصلح ولا ريب للعمل في « تياترو دي فاريتيه » ! ..
فاجبته وانا في غمرة من التأمل ، ومن غير ان لاحظ الحالة الخارقة
للعادة التي كان عليها محدثي : « لاريب في ذلك ! » ، وما هي الا لحظات
حتى عدت الى نفسي ، وقلت له بوقار : انني اعجز عن فهم هذا كله ...
انني دهش ولا استطيع الوثوق بمشاعري . فكيف عرفت انني كنت
افكر بـ ... ؟ وتوقفت عن الكلام قليلاً لانا كد فيما اذا كان صديقي
قد ادرك ما يدور بخلدني .

فقال : اجل كنت تفكر بشأنتيلى .. فلماذا توقفت عن الحديث ..
د كنت تتصور ان هذا القزم اعجز من ان يحدث تلك المأساة ؟ ..

لقد كنت حقاً افكر في هذا الشخص، انه اسكاف سابق يعمل في شارع سانت دينيز، ثم استهواه المسرح وصار يمثل دور اغرنيس ابن داريوس ملك الفرس في مأساة كريبيون.

فقلت له مرتعباً حدثني بربك، ما هي الاساليب التي اتبعتها في معرفة ما كنت افكر فيه؟..

قال: ان بائع الفاكهة هو الذي اوحى لك ان الاسكاف لا يصلح لتمثيل دور اغرنيس.

قلت دهشاً: بائع الفاكهة؟.. من هو هذا؟.. انني لا اعرفه!..

قال: انه الشخص الذي اصطدم بك ونحن نعبث الشارع منذ خمس عشرة دقيقة...

لقد تذكرت فعلاً ان بائع فاكهة، يحمل التفاح في سل كبير على رأسه، قد طرحني ارضاً بالمصادفة ونحن نعبث شارع (س) ... ولكن ما علاقة هذا الرجل بشانتيلي؟.. انني لا افقه شيئاً ..

فاجابني دوبان، وانني انزهه عن الدجل، ساوضح لك الامر وستدرك كل شيء بلا موارد، فلنسر في اثر تفكيرك مرحلة فمرحلة، اي منذ ان تحدثت اليك، حتى التقائك ببائع الفاكهة... فاحطوط العامة تتجه على هذا النحو - شانتيلي، واريون، والدكتور نيكولس، وابقور، وستريوتومي، وحجارة الشارع، وبائع الفاكهة...

هناك عدد قليل من الناس، لم يمتعوا انفسهم بتتبع مراحل تفكيرهم، في حين ان هذا العمل كله طرافة، وكل شخص يقوم بهذا التتبع لأول مرة يأخذه العجب لبعد الشقة بين نقطة الانطلاق

وبين الهدف الذي توصل اليه ... فاي عجب استولى عليّ حين
سمعت من صديقي الافرنسي حقائق لا يمكن انكارها ، قال :

لقد كان الموضوع الذي تطرقنا اليه قبل ان نترك شارع (س)
هو موضوع الحيل ... ثم التقينا ببائع الفاكهة وهو يحمل سلة كبيرة
على رأسه ، وكان يحث الحطى ، فاصطدم بك والفاك على كومة من
الحجارة معدة لتعبيد رصيف الشارع ، فتعثرت بحجر ، وانزلق كعبك ،
والتوى التواء طفيفاً ، فامتعضت وعبست وتمتمت في بضع كلمات ،
والقيت نظرة على الحجر الذي تعثرت به ، ثم تابعت سيرك ساكناً ...
اما انا فلم ابد كثير عناية بما فعلته انت ، غير ان ما لحظته قد تحول فيما
بعد الى ما يشغل فكري ويكده .

اجل يا عزيزي ... لقد سددت نظرك الى الحفر والاخاديد المحدثه
في الرصيف حتى بلغنا زقاقاً ضيقاً يدعى زقاق لامرتين ، عبّد طريقه بكتل
من الحجارة المتراصة المتماسكة .. وهنا شعّ وجهك وتحركت شفّتك ،
ولا ارتاب في انك كنت تتمم بكلمة « ستريوتومي » التي تنطبق على
مثل هذه الطرق ... وانني لاعلم جيداً انك لا تستعمل كلمة
« ستريوتومي » الا وانت تفكر بالذرة ، وبالتالي بنظريات ابيقور ...
ولعلك تذكر اننا عندما تناقشنا في هذه النظريات منذ امد غير بعيد ،
بيّنت لك ان ما ابداه ذلك النبيل اليوناني من افتراضات اثبتها علم
تكوين مخلوقات في وقت متأخر ... وقد لحظتك في ذلك الوقت
وانت تسدد نظرك الى الكوكب اوريون فزاد يقيني بانني لا ازال
اتبع مجرى تفكيرك ... لقد ادركت انك تقارن بين ذلك الممثل
الاسكاف القزم وكوكب اوريون المتألق ، وهناك قطعت عليك حبل
تأملاتك وقلت لك « انه شخص قصير جداً ... ويصلح ولا

ريب للعمل في مسرح فاريتيه » .

ولم تمض فترة من الوقت حتى كنا نتصفح جريدة « غازيت دي تريبون » وقد استرعى انتباهنا الخبر التالي :

« جريئة فوق العادة » ... لقد حدث في الساعة الثالثة من صبيحة هذا اليوم ان استيقظ سكان حي سانت روش على اصوات مروعة ، صادرة من بيت في الطابق الرابع في شارع مورغ ، تسكنه مدام لاسباناي وابنتها الانسة كاميل لاسباناي ... فاسرع ثمانية او عشرة من الجيران ودركيان ، الى الدار التي صدر منها الصراخ المروع ، وفتحوا بابها عنوة وصعدوا على عجل الى الطابق الرابع ، وفي هذه الاثناء انقطع الصراخ ، ولكنهم ما كادوا يقتربون من الشقة حتى سمعوا صرخات غضب عنيفة وانقطعت ثانية ... وحاول القوم دخول الشقة لكنهم كانت مقفلة من الداخل فاقتحموها واذا بهم يقفون امام مشهد مشير للعجب والذعر .

كانت غرفة النوم في حالة لا توصف من الفوضى ، فالاثاث محطم ومبعثر هنا وهناك ، والفراش ملقى على الارض ... وقد عثر على موسى حلاقة ملطخاً بالدماء ومطروحاً على المقعد .. كما عثر على كتلة شعر شائبة عالقة بحافة الموقد ، وهي ملطخة بالدماء ايضاً ويلوح انها اقتلعت من الرأس اقتلاعاً ... وقد نشرت على الارض اربع ليرات ذهبية وقرط وثلاث ملاعق فضية ، وثلاث قطع من المعدن الجزائري ، وكيسان يتضمنان حوالي اربعة آلاف فرنك ذهباً ... اما ادراج الخزانة الكائنة في زاوية الغرفة فقد فتحت بينما الكثير من محتوياتها لم تمسها يد ... واكتشف القوم صندوقاً حديدياً صغيراً موضوعاً تحت

الفراش (لا تحت السرير) وقد فتح بمفتاح ، ولم يكن فيه سوى رسائل قديمة واشياء طفيفة أخرى ...

اما السيدة لاسباناي فلم يعثر لها على اثر ولكن لوحظ ان كمية غير عادية من سواد الدخان قد تجمعت في الموقد ، فاقدم القوم على فحص المدخنة فاذا بهم ويا للهلع يجدون جثة ابنتها محشورة فيها ورأسها الى اسفل فانزلوها وكان جسمها لا يزال دافئاً ، وقد سلخ جلدها في اكثر من موضع بسبب سحبها من المدخنة بالقوة ... اما وجهها فقد تخدش كثيراً بشكل ضار ، كما رُضت رقبتها ، وآثار الاظافر العميقة ظاهرة فيها مما سبب لها الوفاة .

وبعد فحص كل جزء من اجزاء البيت فحصاً دقيقاً توجه القوم الى الفناء الواقع خلف الدار فعثروا على امها وقد قطع حلقها قطعاً ... فلما حاولوا رفعها انكفأ رأسها الى الوراء ... وكان جسمها ورأسها مشوهين تشويهاً شنيعاً ...

وختمت الجريدة الخبر بقولها : « ونحن لا نزال في حيرة تامة ازاء هذه الجريمة المروعة الغامضة . »

وطالعنا الجريدة ذاتها في اليوم التالي على التفصيلات التالية : « فاجعة بشارع مورغ » لقد استمع الى شهادة عدد كبير من الناس بصدد هذه القضية الخارقة ، ولكن لم يصل المحققون الى اية معلومات تلقي بعض الضوء عليها ، وها نحن نورد اقوال بعض من حقق معهم .

قالت الغسالة « بولين دوبورغ » كنت اغسل للسيدة لاسباناي وابنتها مدة ثلاث سنوات على التوالي . وقد تبين لي انهما كانتا على وفاق

تام ، ولم اصادف عندهما اي شخص غريب ، ولم يكن في خدمتهما احد .

ويقول بائع التبغ « بيير مورو » انه كان يبيع التبغ والسعوط من مدام لاسباناي ... وانه يعرف السيدة وابنتها منذ ان انتقلتا الى بيتهما هذا قبل ست سنوات . ويدعي ان السيدة وابنتها كانتا منظويتين على نفسيهما ، وهو يظن بناء على ما يشاع انها كانتا قد خزان مالا ... ولا يذكر انه رأى غرباء يدخلون البيت باستثناء حمّال جاءه مرة او مرتين ، وطبيب زاره ثنائي او عشر مرات ...

وشهد كثير من الجيران ، لكن احداً منهم لم يكن ليتروّد الى الدار ، ولا يعرفون فيما اذا كان بعض الناس يزور السيدة وابنتها ... اما درفات النوافذ الامامية للشقة فعلمنا كانت تفتح ، ودرفات النوافذ الخلفية كانت مغلقة دائماً باستثناء درفات نوافذ القاعة الكبرى .

ويقول الدركي « ايسدور موسيت » انه استدعي الى بيت السيدة لاسباناي حوالي الساعة الثالثة صباحاً ووجد عند الباب الخارجي مسا يقارب من العشرين او الثلاثين شخصاً ، وفتح الباب عنوة بحجرته فما ان ولج الدار حتى انقطع الصراخ فجأة ، ولما صعد الى الطابق الرابع سمع مع من رافقه من الناس صوتين صاخبين غاضبين احدهما خشن فظ والثاني عالٍ حاد ... فالاول صوت افرنسي ، ولم يلتقط منه الا هاتين الكلمتين : « مقدس » و« شيطان » اما الصوت الثاني فيغلب على ظنه انه اجنبي بل يعتقد انه اسباني ..

ويقول « هنري دوفال » جار القميلتين ، ومهنته صانع ، انه كان احد الاشخاص الذين دخلوا البيت حين سمع الصراخ ، وانهم اغلقوا

الباب وراءهم في وجه الجمهور المحتشد ، وفي رأيه ان الصوت العالي الحاد كان يتحدث بالاطالية ... وهو يجزم انه لم يكن صوت الام او ابنتها لانه يعرفهما جيداً ، وسبق له وتحدث اليهما كثيراً .

ويقول « اود نهيمر » المعماري ، وقد تطوع للشهادة وهو لا يتحدث بالفرنسية ، انه هولندي من امستردام وكان يمر بالبيت عندما سمع الصراخ الذي استمر حوالي عشر دقائق وكان صراخاً متتابعاً وعالياً ، وفي رأيه ان صاحب الصوت الحاد افرنسي ، اما صاحب الصوت الحشن فكان يردد كلمات « مقدس » ، « شيطان » و « يا الهي » .

ويقول « جول مينود » المصرفي ، احد اصحاب مصرف مينود اخوان في شارع ديلورين ان مدام لاسباناي فتحت عنده حساباً جارياً منذ ثماني سنوات غير انها جاءت البنك قبل الجريمة بثلاثة ايام ، وسجبت مبلغ اربعة آلاف فرنك ذهباً ، وضعت في كيسين ، وقد رافق السيدة احد موظفي البنك المدعو « ادولف لوبون » حتى بيتها ، وهناك كانت ابنتها تفتظر في الباب فاستلمت منه الكيسين من يد الى يد ... ويقول هذا الموظف انه لم يلاحظ اي شخص في الجوار .

ويقول « ويليام بيرد » وهو خياط انكليزي يقيم في باريس منذ سنتين انه كان في عداد من دخل الدار ، وانه سمع صراخاً متوالياً ، اما صاحب الصوت الحشن فأفرنسي ، واما صاحب الصوت الحاد فهو اقرب الى القساوة ويعتقد انه الماني وليس انكليزياً وربما يكون صوت امرأة ... لكنه لم يفقه الكلمات التي كان يرددها لانه يجهل اللغة الالمانية .

ويقول « الفونسو كارسيو » وهو متعهد يقيم في شارع مورغ ،

ومن مواليد اسبانيا انه كان في عداد من دخل البيت ، وفي رأيه ان صاحب الصوت الحشن هو فرنسي اما صاحب الصوت الحاد فهو سريع فوق العادة ، ويعتقد انه انكليزي ولا ريب ، وهو يحكم بذلك من اللهجة فقط .

ويقول «البرتو مونتاني» صاحب محل الحلويات انه دخل الدار وسمع الاصوات ويوافق على ان صاحب الصوت الحشن فرنسي و كأنه يكلم شخصاً في غير لياقة ويعاتبه، اما صاحب الصوت الحاد السريع النبرات فهو روسي ولا شك في ذلك ، ولما كان هو ايطالي الجنسية فلم يفقه ما كان يتمم به الروسي .

وقد اجمع هؤلاء الشهود على ان مداخلن غرف الدار كانت ضيقة حتى يستحيل ان يمرّ منها انسان، اما الآنسة لاسباناي فقد حُشرت في المدخنة بعنف زائد وقد تضافرت جهود اربعة رجال لانزالها من جوفها .

ويقول الدكتور « بول دوماس » انه استدعي لفحص الجثتين في الصباح ، وكانت جثة الفتاة اكثر تشويهاً من امها ، اذ فُرك حلقها بشدة، وخُدشت ذقنها بعمق، وأعملت الاظافر في رقبته، وشوه وجهها بشكل مخوف ، ونتأت عيناها وقُرُض قسم من لسانها ... وفي رأي الطبيب دوماس ان عدة اشخاص قد تضافروا على قتل الآنسة لاسباناي ... اما الأم فقد شوّهت تشويهاً مروعاً ، فعظام ساقها اليمنى وذراعها الايمن قد خُلعت من اماكنها ... وحُطمت بعض ضلوعها اليسرى ... ويلوح ان رجلاً جباراً قد قضى عليها بضربات هراوة ثقيلة او بقضيب حديدي او بأي شيء آخر من هذا القبيل .

واكد الجراح « الكسندر إينين » تشخيصات زميله الدكتور
دوماس ولم يزد عليها شيئاً .

ولم تؤد هذه الشهادات الى كشف القناع عن الجريمة الغامضة التي
اقامت باريس واقعتها ... وطالعنا الصحيفة المذكورة في طبعتها
المسائية بانباء تقول ان القلق لا يزال يسود حي سانت روش ، وان
الشرطة جددت البحث والتحقيق دون جدوى لكنها اعتقلت موظف
البنك ادولف لوبون دون ان تتمكن من تجريمه .

وقد لاح لي ان صديقي دوبان قد اظهر اهتماماً بالغاً في هذه
القضية ، ولم يعلق عليها بشيء لكنه لما قرأ الخبر الخاص بتوقيف لوبون
التفت الي وسألني رأيي في مقترفي هذه الجريمة .

قلت : انني اشارك باريس بأسرها رأيها في غموض الجريمة وتعذر
اقتفاء اثار القتل .

قال : انني ارتاب في حذق البوليس الباريسي ، اذ ليس له اسلوب
خاص يتبعه في مثل هذه الحالات ، انه يتبع الطرق السطحية التظاهرية
في التحليل لا اكثر، اما النتائج التي يتوصل اليها فلا تثير دهشة قط...
هل تعرب عن خيبة امل مريرة ، فمفتش البوليس فيدوك مثلاً هو نمحن
جيد لكنه غير مثقف الفكر، ويقع في سلسلة من الاخطاء في تحقيقاته،
انه يتفحص الاشياء عن كثب اكثر مما يتطلب الامر فيبتين نقطة او
اكتر من نقطة لكنه لا يتبين معالم القضية ... فهناك حالات تتطلب
البحث العميق ، والحقيقة تبدو سطحية لكنها في الواقع تكمن في
اعماق الوديان وليس على قمم الجبال .

ولعل الاجسام السماوية تكون خير مثل في ادراك هذا الموضوع،

فاذا ما القينا على الكوكب نظرة بمؤخر العين ، اي اذا ما حولنا
نحوه الاقسام الخارجية لشبكة العين ، نراه شديد التآلق ، ولكننا اذا
ما حولنا نظرنا كاملاً الى هذا الكوكب نراه يأخذ بالقوام شيئاً
فشيئاً ... فالأكثر من تسديد النظر الى الشيء يمنعنا من ادراك
كنهه !..

وعلى ذلك ارى ان نقوم كلانا بتحقيقات بصدد هذه الجريمة قبل ان
نكون لنا رأياً فيها ، والتحقيقات هذه ستجلب لنا متعة ولا ريب ،
واعتقد ان مدير الشرطة السيد ج وهو احد معارفي سيسهل لنا
مهمتنا .

وحصلنا على الاذن المطلوب وتوجهنا للتو الى شارع مورغ الواقع
عند مفرق شارعي ريشيليو وسانت روش ، وما ان اقتربنا من المنزل
الذي وقعت فيه الجريمة حتى شاهدنا جمعاً غفيراً من الناس يتطلعون الى
نوافذه المغلقة بكثير من الفضول ... لقد كان المنزل عادياً مثل بقية
المنازل الباريسية ... وتجولنا حوله قليلاً ودوبان يتفحص كل
ما يراه في الجوار بدقة تامة ... ثم دخلناه وصعدنا الدرج الى
الشقة التي وقعت فيها الجريمة ، وكانت الجثمان موضوعتان في غرفة
الآنسة لاسباناي .

وانصرف دويان الى فحص غرف المنزل وفنائه ، ثم عابن الجثتين
باهتمام زائد .. وظللنا على هذا الحال من بحث وتدقيق الى ان حل
المساء ، وعدنا ادراجنا الى بيتنا ، وقد عرج زميلي في الطريق الى
مكتب صحفية يومية ، وظل فيه مدة من الزمن ثم خرج وتابعنا
المسير .

واحجم صديقي عن التحدث بصدد الجريمة حتى ظهر اليوم التالي

حين سألني على حين غرة : ألم تلاحظ شيئاً خاصاً في مسرح الجريمة ؟ .

قلت : كلا لم الحظ شيئاً خاصاً زيادة على ما قرأناه في الصحيفة .

قال : يلوح لي ان الصحيفة هذه لم تدخل في صلب الجريمة ... وفي رأيي ان هذا الحادث المروع قابل للحل بقدر ما هو معقد ... والشرطة محيرة في تفسير القساوة التي ارتكبت فيها الجريمة ، وما يزيد حيرة ان القوم الذين هرعوا على اصوات الاستغاثة لم يلتقوا اي شخص يهبط على درج المنزل ، وجميع معالم الفاجعة كانت في وضع من التعقيد بحيث بلبلت افكار الشرطة الحذقة وواقعتها في اخطاء فاحشة ... فالسؤال الذي يجب ان يتبادر الى الذهن في هذه القضية هو : ما السر في هذا الحادث الذي لم يقع له شبه قبلاً ؟ ...

وتابع دربان كلامه وهو يتطلع الى باب دارنا وقال : انني اتوقع الآن قدوم شخص اعتقد انه ليس مديراً للمجزرة ولكن له ضلعاً فيها .. اجل انني اتوقع ان ارى هذا الرجل في هذه الغرفة في كل لحظة ، والواجب يتطلب منا ان نعتقله في حالة قدومه .. وهاك مسدسك ، وهذا هو مسدسي واننا نعرف كيف نلجأ اليهما عند اللزوم .

فأخذت المسدس منه وانا لا افقه اي معنى لما ارى ولما اسمع ... كان دوبان يوجه كلامه اليّ بصوت عال حتى ظننت انه يخاطب شخصاً بعيداً ، اما عيناه فكانتا خاليتين من كل تعبير ومسدستين الى الجدار ... قال :

فالاصوات التي سمعها القوم وهم يصعدون الدرج لم تكن صادرة عن القميتين ، والتحقيق اثبت ذلك نهائياً .. وهذه النتيجة قد ابعدت كل ظن في ان الام هي التي فتكت بابنتها ثم انتحرت ... اذكر

ذلك على سبيل البحث فقط، لأن الام الضعيفة اعجز من ان ترج بابقتها
في جوف المدخنة ، ثم ان الجراح البالغة ، والتشويبات الشنيعة التي
حلت بالام لا تصدر عن منتحر ابدأ، لذلك فان مرتكبي الجريمة هم من
خارج المنزل ... وقد تضاربت الآراء في الاصوات الصادرة عنهم او
عنهما ... فهل استرعي انتباهك شيء خاص في شهادات الشهود بصدد
الاصوات ..?

قلت: لقد اجمعوا كلهم على ان صاحب الصوت الحشن هو فرنسي ،
ولكنهم اختلفوا في صاحب الصوت الحاد .

قال : هذه شهادة الشهود بمجد ذاتها ، لكنها ليست الدلالة الخاصة
التي تمتاز بها شهاداتهم ، لقد اتفقت آراؤهم في صاحب الصوت الحشن ،
لكنها تضاربت في صاحب الصوت الحاد ، وصار كل منهم ينفيهما عن
لغة قومه ... ولعلك تقول ربما يكون صاحب هذا الصوت آسيوي او
افريقي، لكنني استبعد ذلك لندرة الآسيويين والافريقيين في باريس ...
وعلى ذلك فاني استرعي انتباهك الى ثلاث نقاط: فاحد الشهود يقول
ان الصوت الحاد كان اقرب الى القساوة ، واثنان منهما يقولان ان
الصوت كان سريعاً فوق العادة ... ثم ان الشهود كلهم لم يميزوا في
الصوت كلمات معينة ...

فتضارب الآراء في الصوت الحاد يثير فينا الريبة ، ويقودنا الى
الاستقراء الجائر ، ويدفعنا الى متابعة التحقيق في هذه الجريمة الغامضة ،
فالاستقراء هو الطريقة الوحيدة لحل اللغز ، اما الشبهة فهي نتيجة حتمية
لل قضية .

فلننتقل الى الغرفة التي وقعت فيها الجريمة ، فما هو الشيء الذي نود
الاهتمام اليه ؟ ... انه المخرج الذي فر منه الجناس ولا ريب ... اذ

ليس من المعقول ان تكون الارواح هي التي فتكت بالأم وابنتها...
فالقتلة هم من الاحياء وقد لاذوا بالفرار من غرفة الفتاة او من الغرفة
المجاورة لها... والشرطة قد طوّقت المنزل من كل جهاته ، ولم تدع
منفذاً الا وخفرتة ، فبابا الغرفتين موصدان بالمفتاح من الداخل ،
والمدخنة ضيقة لا تسمح لانسان ان يمر منها ، اما النافذتان فلا يمكن
لامرء ان يخرج منهما دون ان تراه جموع الناس المحتشدة في الشارع..
ثم ان النافذتين كانتا مغلقتين من الداخل باحكام ، بل قد سُمرتاً جيداً
بمسارين كبيرين .

وافترضت ان يكون القتلة قد نزعوا مسمار احدي النافذتين
وخرجوا منها ، ولكن من اعاد المسمار الى مكانه ؟.. فانزعته
على سبيل التجربة ، ثم حاولت فتح النافذة فلم افلح ، لان هناك رفاصاً
خفياً يمسك بأطار النافذة ، وقد اهدت اليه وفتحتها ، ولكن كيف
يعاد الرصاص الى مكانه بعد اغلاق النافذة ، وهو لا يكون الا بالضغط
من الداخل ؟.. وهكذا تبين ان القتلة لم يخرجوا من هذه النافذة
ولعلهم خرجوا من النافذة الثانية ... وافترضت ان يكون الرصاص
فيها شبيهاً برصاص اختها ، ولكن من يدري ان المسمار المثبت فيها
يختلف عن تلك في طريقة وضعه ، فصعدت على السرير العاري واخذت
اتفحص النافذة الى ان عثرت على الرصاص الشبيه بالنافذة الاولى ، ثم
تطلعت الى المسمار فوجدته شبيهاً بمسار تلك... وتابعت البحث الى ان
تبين لي ان السر يكمن في هذا المسمار بالذات... لقد لحظت ان وضعه
هنا يختلف قليلاً عن ذاك ، كان مرفوع الرأس قليلاً ، فلمسته بيدي واذا
به مكسور وخارج من مكانه ، فانعمت النظر بالكسر فاتضح لي انه
قديم العهد ، وقد أُجهز عليه بضربة مطرقة ، فاعدته الى مكانه فاخفي

الكسر ، وكان لا يختلف بشيء على أخيه المثبت في النافذة الثانية ...
ثم ضغطت على الرفاص ، ورفعت درفة النافذة بلطف ، وإذا بالجزء
الأعلى من المسار يرتفع معه ، ثم أغلقتها فعاد المسار الى وضعه
الطبيعي .

واستنتجت على الفور ان القاتل قد فرّ من هذه النافذة القريبة من
السريـر ، ثم أغلقها وراءه ، فاطبق الرفاص على جزئيه بحكم
سقوط درفة النافذة العليا ، الامر الذي ضل الشرطة ، وزاد في غموض
الجريمة .

وننتقل الآن الى كيفية هبوط القاتل ... لقد تبيننا اثناء جولتنا
في المنزل وحواليه ان على بُعد خمسة اقدام من النافذة المعنية يقوم
قضيب للصواعق ، وكانت درفات النافذة الخارجية من النوع الذي
يسميه الافرنسيون (فرّاد) وهو قليل الاستعمال في ايامنا هذه ،
لكننا لا نزال نراه بكثرة في ليون وبوردو ، وهو شبيه بالباب العادي
لكن الجزء الاعلى منه مصنوع على شكل صفوف مستقلة من العوارض ،
مما يجعلها خير ممسك لليدين ... وكان عرض درفتي النافذة حوالي ثلاثة
اقدام ونصف القدم ، ولما تطلعنا اليهما من الخارج ظهر لنا وكأنهما شبه
مغلقتين ، الأمر الذي ضل الشرطة ايضاً ولم تعيرهما كثير اهمية ...
وقد استنتجت ان هاتين الدرفتين لو فتحتا الى الخارج تماماً تصلان
الى بعد قدمين من قضيب الصواعق ، وبوسع المرء مع شيء من النشاط
والجراحة ان يتسلق القضيب ، ثم يضع قدمه على الجدار ويمد ذراعيه الى
الدرفتين فيمسك بهما ويندفع معهما اغلاقاً ، فيجد نفسه وقد صار على
حافة النافذة ، وإذا صادف وكانت هذه مفتوحة من الداخل ، يلج
الدار على الرحب والسعة .

لقد اردت من الاشارة الى « النشاط والجرأة » اللذين يتطلبهما هذا العمل ان الفت نظرك الى امرين : اولاً الى كيفية انجازه ، وثانياً الى شناعة الجريمة الخارقة للعادة .

والهدف الذي ارمي اليه من ذلك كله ، هو الوصول الى الحقيقة...
اما غايي المباشرة من ذلك فلأعرض عليك التماس القائم بين « النشاط غير الطبيعي » الذي تحدثت عنه الآن ، والصفات الخاصة بالصراخ « الحاد القاسي » والذي لا شبيه له ... الصراخ الذي لا جنسية له ، ولا يتفق عليه اثنان ، وليس له لفظ او مقاطع .

ولما بلغ دوبان هذه النقطة من حديثه بدأت بعض الخواطر تتردد الى ذهني ، وكنت على وشك ان افهم ولو انني عاجز عن الفهم ، ومثلي في ذلك هو مثل الانسان عندما يبلغ حافة الذكرى لكنه يجد نفسه لا يستطيع تذكر شيء بالمرة ...

ثم تابع صديقي حديثه وقال فلنشرح الآن الوضع الذي وجدت فيه الغرفة ، كانت ادراج الخزانة مكتسحة مع ان يداً لم تمس محتوياتها... ولكن من يدري ما الذي كانت تحتويه هذه الادراج؟..
واذا كان اللص قد اخذ شيئاً فلماذا ترك الباقي؟.. بل لماذا انصرف الى سرقة الاصواف وترك كيسين من الذهب كانت القتيلة الأم قد سحبتها من البنك كما افاد المسيو مينود بشهادته؟..

فما اريده منك هو ان تنزع من فكرك اي بحث في الدافع لأرتكاب الجريمة ، والشرطة مضللة في هذا الامر ، لان المصادفة دفعت موظف البنك لان يرافق السيدة الى بيتها ، وشاءت المصادفة ايضاً ان تقتل الام وابنتها ، بعد استلام الذهب بثلاثة ايام ... والمصادفة على

الجملة هي العائق الكبير الذي يعترض سبيل المفكرين الذين لا يعتقدون بنظرية الاحتمال ، هذه النظرية التي تقول بان معظم الاهداف العظيمة التي بلغها الانسان مدينة الى الشروحات العظيمة ... فالذهب والحالة هذه ليس الدافع للجريمة اذ ليس من المعقول ان يقترف الجاني جريمة ويتخلى عن الدافع ، الا وهو الذهب ...!

فلنحتفظ بهذا كرتنا إذن بما توصلنا اليه من ملاحظات ، وهي الصوت الذي له طابع خاص ، وشناعة الجريمة ، وافتقار الدوافع لاقتوافها ، ولننظر الآن في المجزرة بحد ذاتها .. فالفتاة جُذبت الى مدخنة الموقد عنوة وخُنقت فيها ، ورأسها متدل الى اسفل ، فهذه حالة خارقة للعادة وغريبة عن افعال البشر ، ولك ان تتصور مبلغ القوة التي حشرت الفتاة في المدخنة حتى اقتضى اخراجها الى توحيد مجهود عدة اشخاص ممأ ...!

ولنتحول الآن الى نقطة ثانية لها مساس بوحشية الجريمة ، لقد عثر المحققون عند الموقد على كتلة كثنة من الشعر الاشهب وقد اقتلعت مع جذورها اللحمية اقتلاعاً ، وباله من منظر مروع ، فتصور مبلغ القوة التي اقتلعت نصف مليون شعرة مع جذورها بسحبة واحدة؟ .. اما الجرح البليغ الذي أحدث في رقبة الام فقد ادّى الى انفصال رأسها عن جسمها تقريباً وكأنها ذبجت بموسى حلاقة ... اما الجراح التي اصببت بها السيدة لاسباناي فقد كانت بالغة ، الامر الذي حدا بالطبيب دوماس وبالجراح إيتين الى القول انها متسببة عن آلة كلىة ... وهما على حق في هذا الاستنتاج ، اما الآلة الكلىة هذه فهي حجارة فناء الدار ، لان الضحية القيت من النافذة القائمة فوق السرير ، فسقطت على أرض الفناء مهشحة تهشماً ، وهذه النقطة قد خفيت عن محققي الشرطة

لأنهم لم ينتبهوا بالمرّة الى قصة النافذة ومسارها ، واحتمال دخول
القاتل منها وخروجه منها ايضاً ..

فاذا ما اضفنا الى هذه الاشياء كلها ، الفوضى التي عمّت الغرفة وصلنا
الى نتيجة هامة وهي ان الجريمة اقتصرت بايد تفوق الطاقة البشرية، وقد
رافقتها وحشية مروعة ، وفضاعة مرعبة ، لم تعرف البلاد لها مثيلاً ،
ومذبحة لا مبرر لها ، مقتونة بالفاظ مبهمّة ليس لها علاقة بآية لغة من
اللغات !.. فما الذي نستنتجه من هذا كله ؟.. وما هي الانطباعات
التي تركتها هذه الاستقراءات في نفسك ؟..

لقد وجدت نفسي في حيرة ازاء هذا السؤال وقلت : لعل مقتوف
الجريمة مجنون مزمن فرّ من مستشفى المجاذيب ؟..

قال : ولكن المجنون ينتمي الى امة من الامم ، ويلفظ كلاماً له
مقاطع ... زد على ذلك ان شعر المجنون لا يشبه هذه الشعرات التي
عثرت عليها في راحة السيدة لاسباناي .. فما رأيك فيها ؟...

فتفحصت الشعرات بوجل وقلت : هذا شعر غير طبيعي .. انه
شعر غير بشري ..

قال : والآن اتي نظرة على هذا الرسم للبقعة السوداء ولأثر الاظافر
التي وجدت على رقبة الآنسة لاسباناي ، والتي اشار اليها الشهود في
بياناتهم ... فحاول ان تضع يدك عليها وتبين بذاتك اذا كانت تشبه
اليد البشرية ؟..

ففعلت ما طلبه مني دوبان فرايت الفارق الكبير بين يدي والرسم
وقلت له : ان اليد التي رسمتها ليست يدأ بشرية .

قال : فاقراً الآن هذه الفقرة التي كتبها العالم الطبيعي جورج كوفير .

فقراتها وهي تتحدث عن نوع من الاورانغ - اوتانغ المستوطن جزر الهند الشرقية ، قوامه هائل ، وقوته خارقة ، ووحشيته مروعة... فادركت على الفور فظاعة مقترف الجريمة .

وقلت لدوبان : ان الوصف الذي سجله كوفير عن هذا النوع من الاورانغ - اوتانغ ينطبق تماماً مع ما رسمته انت... والشعرات التي في حوزتك تشبه شعر الحيوان الذي تحدث عنه العالم الطبيعي الفرنسي... غير ان الامر الذي لا افقه في هذه القصة سماع صوت شخص افرنسي...

قال : حقاً ما تقوله... لقد اجمع الشهود على انهم سمعوا صوتاً يقول بالفرنسية « يا إلهي » .. واتهموا صاحب هذا الصوت باقتراف الجريمة لكنني افترض ان هذا الرجل بريء منها.. فهو صاحب الاورانغ - اوتانغ، وقد فر منه هذا الوحش وتعبه حتى غرقة مدام لاسباناي وابنتها ، لكنه لم يتمكن من الامساك به... وفي رأيي ان الاورانغ - اوتانغ لا يزال طليقاً !!

فما اقله بصدد براءة الرجل ان هو الا افتراض ، ولكي اتأكد من افتراضي هذا عرجت على صحيفة «موند» وهي صحيفة تهتم بشؤون السفن والبحارة، وسألتها نشر اعلان سيجمل الرجل للحضور الى منزلنا هذا .

وسلمني عدد الصحيفة التي نشرت الاعلان ، وقرأت فيه ما يلي :
« لقد قبض في هذا الصباح الباكر على اورانغ - اوتانغ ، وهو يجوب غابة بولونيا . وبوسع صاحبه وهو يجري يعمل في سفينة مالطية ان

يستلم الحيوان ثانية بعد ان يدفع ما يترتب عليه من مال أنفق للقبض على الحيوان والاحتفاظ به . اطلب تلفون رقم ... شارع ... صاحبة سان جرمان .

قلت: وكيف عرفت ان صاحبه بحري ويعمل في سفينة مالطية? ..

قال : عثرت على قطعة من شريط ، يعقده بحارة السفن المالطية على ضفائرهم الطويلة ، عالق على قضيب الصواعق ، فاستنتجت من ذلك ان الفرنسي يعمل في سفينة مالطية... فاذا ما صح استنتاجي هذا فان البحار الفرنسي البريء سيتردد في تلبية الدعوة الخاصة بالاورانغ - اوتانغ وسيخاطب نفسه قائلاً: « انني بريء ومسكين، وحيواني قيمة كبيرة، وهو بالنسبة لي ثروة هائلة فما الذي يحملني على ان اخسره? .. لقد اصبح في قبضي ثانية .. انهم عثروا عليه في غابة بولونيا ، وعلى بعد شائع من مسرح الجزرة.. ومن من الناس سيتصور ان هذا الحيوان الضاري ، هو الذي قضى على الأم وابنتها? .. والشرطة قد اخفقت في ادراك كنه ما حدث ... ولو افترضت ان هذه الشرطة قد اهتمت الى اثر الاورانغ - اوتانغ لكانها لا تستطيع اتهامي بالقتل .. وفوق هذا وذاك انني رجل « معروف » .. والاعلان يشير الي صراحة كمالك للحيوان ، فاذا ما اجمعت عن المطالبة به ، فاني اعرضه للشبهة وليس من مصلحتي ان الفت الانظار الي والى حيواني .. فعلياً اذن ان الي الدعوة .

وفي هذه الاثناء سمعنا وقع خطوات على الدرج .. فقال دوبان استعد .. اقبض على مسدسك ، ولكن حذار من ان تظهره او ان تستعمله قبل ان اعطيك الاشارة! ..

كان دوبان قد ترك باب الدار شبه مغلق ، فوجه الزائر دون ان

يقرع الجرس ، وصعد على الدرج وهو ييدي ترددأ ، فسمعناه يهبطه ،
ثم يرتقيه ثانية ، وتوقف عند باب غرفتنا وطرقه .

فاجابه دوبان مرحباً : تفضل وادخل ..!

فدخل الرجل وكان مجّاراً شديداً البأس جريئاً قمحي اللون ، وقد
ستر شاربه وشعر وجنتيه نصف وجهه ، وكانت يحمل هراوة ضخمة
لكننا يبدو انه غير مسلح ، فأنحنى بقلة لياقة وقال بالفرنسية أسعدتم
مساء ..!

فقال له دوبان : اجلس ايها الصديق .. اظن انك قد اتيت تطلب
أورانغ — اوتانغ؟.. قسماً انني احسك على امتلاكه ..! انه حيوان
نفيس .. ولا ريب في ان قيمته عظيمة .. فكم له من العمر حسب
رأيك؟..

فتنفس البحار الصعداء ، كمن يطرح عن نفسه حملاً ثقيلاً واجاب
بلهجة الواثق : اظنه في الرابعة او الخامسة من عمره .. فهل هو عندكم
هنا؟..

فقال له دوبان : اننا لم نَرَ موافقاً الاحتفاظ به في منزلنا ولقد
وضعناه في مزود في شارع دوپورغ القريب من حيننا هذا ، وبوسعك
استلامه غداً صباحاً ... فهل انت مستعد لتشخيص هذا الحيوان
خاصتك؟..

فاجاب : طبعاً يا سيدي .

فقال : يؤسفني ان افارقه ..!

فاجابه الرجل : انني اقدر المتاعب التي سببها لك الأورانغ —
اوتانغ ، وتجديني على استعداد لان اكافئك في حدود المعقول .

فقال : اجل ، دعني افكر قليلاً في المكافأة التي اريدها .. إن افضل مكافأة تقدمها لي هي اطلاعي على تفصيلات جريمة شارع مورغ !. لفظ دوبان هذه الكلمات بهدوء تام ، وسار نحو الباب بهدوء ايضاً ، واقفله واودع المفتاح في جيبه ، ثم اخرج المسدس ووضعه على الطاولة .

اما البحار فقد تدفق الدم في وجهه ، وامسك بالهراوة ، لكنه سرعان ما ارتقى علي مقعده وهو يرتعش بشدة، وقد ارتسمت على حياه إمارات الموت ، فاشفقت عليه فعلاً .

فقال له دوبان بلهجة رقيقة : انك تحاول عبثاً ازعاج نفسك ، فنحن لا نضر لك شراً ... انني اعرف تمام المعرفة انك بريء من جريمة شارع مورغ ، ولديّ من المعلومات التي تثبت برائتك هذه .. كما انك غير متهم بالسطو والسرقة ، وعلى ذلك ليس من موجب لأن تخفي عنا حقيقة هذه القضية ... ولا تنسى ان الشاب البريء المتهم في هذه القضية لا يزال رهين السجن .

فهذأت اعصاب البحار ، لكن مظاهر شدة بأسه قد توارت تماماً .. قال : أسأل الله العون .. وسأفضي لك بكل ماحدث .. ولك ان تصدقني او لا تصدقني .. انني بريء وسأزيل عن ضميري كل عبء فيما اذا مت بسبب هذه القضية .

وروى لنا قصة خلاصتها انه سافر الى جزر الهند الشرقية ، ونزل في البورنيو ، ثم قام برحلة في داخل البلاد مع صديق له ، وهناك التقيا بالاورانغ - أوتانغ واسراه ... اما صديقه هذا فقد مات فيما بعد ، وانتقلت ملكية الحيوان للبحار الفرنسي .. واخيراً تمكن من نقله الى بيته في باريس .. وقد بذل جهده كي لا يسترعي انتباه جيرانه

قطعاً ، واحتجزه في المرحاض حتى اذا ما شفي من جرح اصابه وهو على متن السفينة عرضه للمبيع .

وعاد البحار ذات ليلة من سهرة في وقت متأخر ، ووجد الحيوان في غرفة نومه ، وهو يجلس الى المرأة ويده موسى الخلاقة يمرره على خديه مقلداً بذلك صاحبه ، فارتعب البحار لهذا المنظر ولجأ الى تهدئة الحيوان بطريقته الناجعة المعتادة ، وهي ضربه بالسوط ، غير ان الأورانغ - اوتانغ ما ان رأى السوط بيد صاحبه حتى اسرع الى باب الغرفة ، وهرب منه والموسى مشرعة بيده .

وبدأت الملاحقة والمطاردة ، فالحيوان يركض ويتلفت بين الفينة والفينة ، والبحار الفرنسي يدعو ويحري في اثره في شوارع خالية من المارة، اذ كانت الساعة تقارب الثالثة صباحاً... واخيراً اندفع الحيوان الى شارع مورغ، وقد استبد به نور كان يشع من الطابق الرابع الذي كانت تسكنه مدام لاسباناي وابنتها ، فصعد اليه بحفة القرد ، وامسك بقضيب الصاعقة وصعد عليه ، ثم امسك بدرفتي النافذة المفتوحتين وقفز منهما الى داخل الغرفة مباشرة .. ويبدو ان الأم وابنتها كانتا في ذلك الوقت تتدثران في لباس النوم ، وتجلسان وظهرهما الى النافذة، وهما منهمكتان في ترتيب بعض الاوراق في الصندوق الحديدي الذي رؤيت محتوياته مبعثرة على الارض .

ولحق البحار بالحيوان وتسلق القضيب ، وتطلع من النافذة فوجد القرد الكبير يمسك السيدة لاسباناي من شعرها وهو يمرر الموسى على وجهها ذهاباً واياباً ... وكانت ابنتها ممددة الى جانبها فاقدة الوعي .. اما خلع كتلة الشعر من رأس السيدة والجراح العديدة المصابة بها فتدل على ان الحيوان انتقل من حالة الهدوء الى حالة الوحشية ... فقد اثاره

منظر الدم ، وكشر عن انيابـه ، وصارت عيناه تقدحان شرراً ،
فضرب رقبة السيدة ضربة شديدة ادّت الى فصلها عن جسمها تقريباً ،
ثم تحول الى الفتاة واطبق على عنقها حتى اجهر عليها !... والتفت
الحيوان الى النافذة فلمح صاحبه يتطلع اليه جزعاً والسوط في يده ،
فخشى العقاب ، وراح يسعى الى اخفاء معالم اعماله الدامية وصار يقفز
في الغرفة هنا وهناك ، ويعبث فيها فساداً ، ثم حمل جثة الفتاة وحشرها
في المدخنة محاولاً اخفاءها ، وانقلب بعدئذ الى الأم وقذف بها من
النافذة .

وما ان رأى البحّار ما فعله الاورانغ اوتانغ حتى انزلق على القضيب
مسرّعاً ، وعاد الى بيته وهو لا يلوي على شيء خشية العقابة .

وليس لديّ ما اضيفه على هذه القضية ، فالاورانغ - اوتانغ فرّ
من النافذة التي دخل منها قبل ولوج القوم الغرفة ، وكان صراخه
ممتزجاً بنداءات صاحبه الفرنسي ، ويحتمل ان يكون الحيوان قد اغلق
درفتي النافذة بعد خروجه منها ... واخيراً اهتدى البحّار الى مكان
الاورانغ - اوتانغ ، وقبض عليه وباعه بثمان باهظ الى « حديقة
النباتات » ، اما الشاب لوبون فقد اطلق سراحه على الفور بعد التوضيحات
التي قدمها دوبان الى مدير الشرطة .. غير ان هذا المدير كان يخفي في
نفسه استياءً من التحول الذي اتخذته القضية ، وراح يستخر من الناس
الذين يتدخلون في شؤونه !..

ولم يجبه دوبان بكلمة واحدة ولسان حاله يقول : « دعه يتكلم ،
فالكلام يرفع العبء عن ضميره ، اما انا فيرضيني انني انتصرت عليه في
حصنه ، وعيبه انه لا يتعمق في تحقيقاته ، وبعبارة اخرى ان حكمته
خالية من اللقاح !.. انه رأس بلا جسم مثل صورة الاله لافرنا ، او

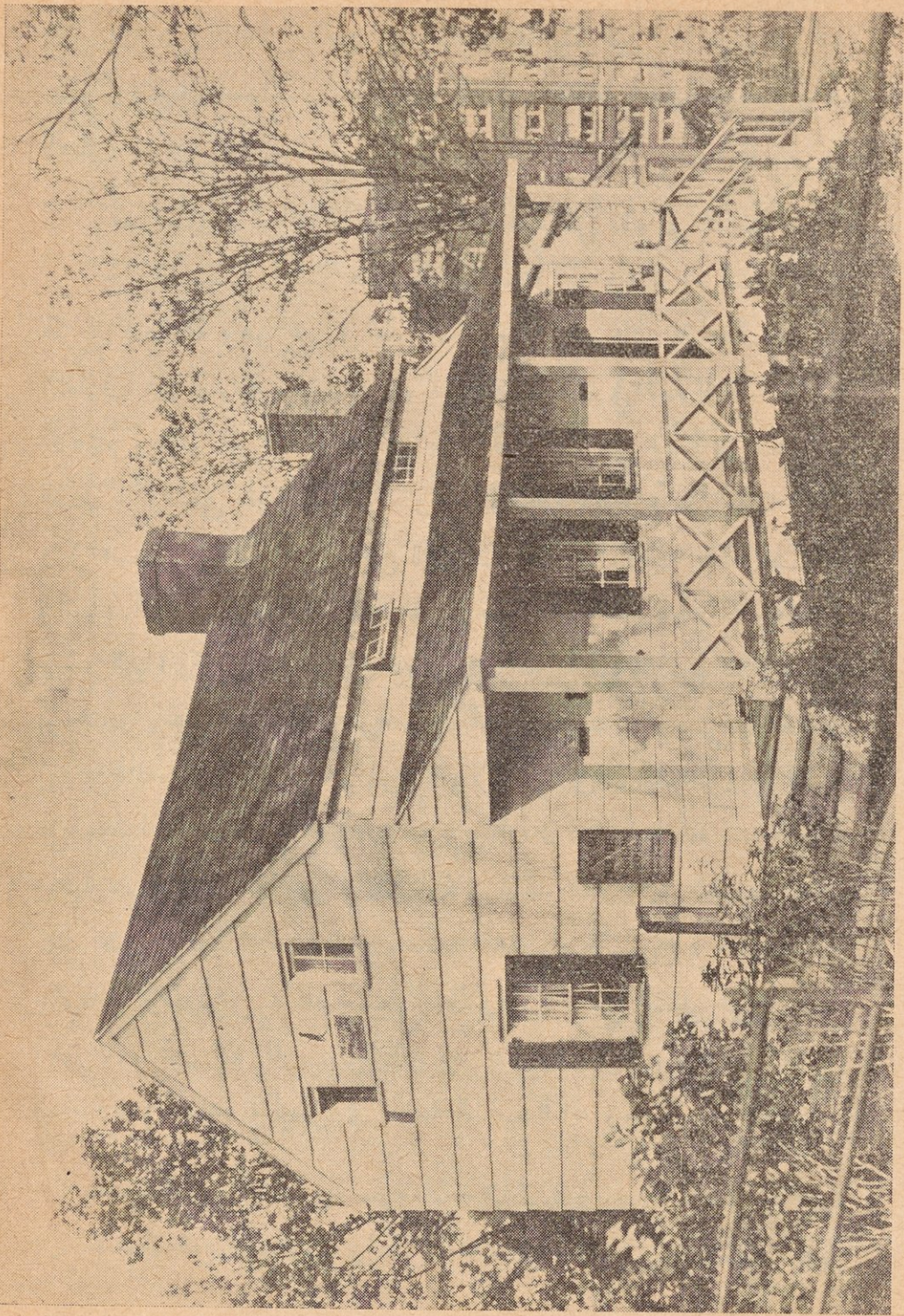
هو رأس وكتفان فقط مثل الحوت ... وعلى كل انني معجب به ،
لانه اكتسب سمعة طيبة مبنيّة على قول روسو في روايته (هلويز)
انه ينكر ما هو ثابت ، ويفسر ما هو منفي ! .. »

الخنفسة الذهبية

توثقت صداقتي منذ سنوات عديدة مع السيد ويليام لوغراند، وكان هذا الصديق ثرياً يتحدر من اسرة هونغونوتية قديمة ، لكن سلسلة من النكبات نزلت به 'ورדתه موارد الفاقة ، ولكي يتحاشى المهانة والمزلة ترك نيو - اورليان ، مدينة اسلافة ، واستقر في جزيرة سوليفان ، بالقرب من شارلستون ، جنوب كارولينا .

وهذه الجزيرة فريدة في نوعها ، فهي في الواقع ، بحر من الرمال ، طولها ثلاثة اميال على وجه التقريب ، اما عرضها فلا يتعدى ربع الميل ، ويفصلها عن البر جون يكاد ان يكون غير ملحوظ ، يشق طريقه الموحلة عبر ارض بور من الحمأ والقصب ، المكان المحبب الى دجاج المستنقعات ، اما الحضرة في هذه الجزيرة فنادرة جداً ، او انها على الاقل صغيرة النبت ، ولا يرى المرء فيها اشجاراً من اي حجم او ارتفاع ، باستثناء بعض نخيلات لا تحمل الا الشوك نبتت في الطرف الغربي من الجزيرة ، حيث يقوم حصن مولتري ، وبعض المنازل الحفيرة التي تؤجر صيفاً للهاربين من حر مدينة شارلستون وغبارها ... فالجزيرة كلها ، باستثناء هذه الناحية الغربية ، والساحل ، مغطاة

البيت الريفي في فورد هام حيث اقام الكاتب في ضيافة عمته



بكميات كثيفة من نبت الرند الحلو الطعم ، الذي يقدره البستانيون الانكليز كثيراً ... وشجيرات الرند هذه تبلغ من الارتفاع بين خمسة عشر وعشرين قدماً ... وتؤلف أجساماً كثيفة تحمل الهواء بروائحها العطرة .

وقد اختار لوغراند اعماق هذه الآجام ، التي تقع في الناحية الشرقية من الجزيرة وشيد لنفسه هناك كوخاً صغيراً ، وقد تعرفت اليه عن طريق المصادفة وهو يقيم في هذا الكوخ ، وسرعان ما تحول هذا التعارف الى صداقة وثيقة العرى ، وقد وجدت في معتزله هذا ما يثير الاهتمام ويدعو الى التقدير ، ووجدته هو ايضاً على مستوى عال من العلم ، ويتحلى بقوة فكرية خارقة ، ولكنه مطبوع على مقت الناس وكرهه عشرتهم ، ويدعن للنزوات الحبيثة المترودة بين الجماعة والسويداء ... وقد حمل معه الى كوخه كتباً كثيرة غير انه قلما يرجع اليها ، وكانت هواياته الكبرى في قنص الطيور ، وصيد الاسماك ، او التجول على امتداد الشاطئ وبين اشجار الرند ، للبحث عن اصداف او عن نماذج من الحشرات والهوام ، ولا ريب في ان «سوامردام» يحسده على ما تراكم عنده من مجموعات ... وكان لوغراند يصطحب في تجواله زنجياً مسناً يدعى جوبيتر ، كانت الاسرة قد اعتقته قبل انخلها ، لكنه كان يعتبر الوقوف عند عتبات سيده الشاب «ماساويل» حقاً من حقوقه ، وقد حمل ، بالترغيب او بالارهاب ، على التخلي عن هذا الحق ... غير ان اقارب لوغراند قد اعتبروا الزنجي مزعزع العقل ، فساندوه في عناده ، ليظل في خدمة الشاب التائه وحراسته .

وفصل الشتاء في جزيرة سوليفان معتدل ، ويندر ان يلجأ المرء فيه الى استعمال النيران ولكن حدث في يوم من ايام منتصف شهر

اكتوبر سنة - ١٨ ان اشتد البرد في تلك المنطقة اشتداداً ملحوظاً...
ورأيت نفسي قبيل غروب الشمس وانا اسعى عبر الحشائش ، الى كوخ
صديقي ، بعد انقطاع عنه دام بضعة اسابيع ... كنت اقطن وقتئذ في
شارلستون ، وهي تقع على بعد تسعة اميال من الجزيرة ، وطرق
المواصلات اليها متأخرة جداً بالنسبة لأيامنا هذه ، ولما بلغت الكوخ
طرقت بابه ، كما هي عادتي ، ولما لم اتلق جواباً بحثت عن مفتاحه ،
وكنت اعلم ان نخباءه ، وفتحت الباب ، ودلفت الى الداخل ، فوجدت
فيه ناراً جميلة المنظر ، مشتعلة في الموقد ، وهي بدعة في حد ذاتها لكنها
قليلة الجدوى .. وطرحت عني معطفي واستلقيت على مقعد ذي
مسندين ، يتحرك على جذعين مطبطين ، ورحت انتظر عودة صديقي
والزنجي جوبيتر بأناة وصبر ..

وما ان اسدل المساء ستاره حتى اقبلا ، فرحبا بي ترحيباً حاراً ،
وابتسم الزنجي ابتسامة عريضة ، وراح يعد لنا دجاجة من دجاجات
المستنقعات ... اما لوغراند فكان في نوبة من الحماسة لأنه عثر على
صدفة مجهولة مشطورة ، هي من نوع جديد من الصدف ، والاهم من
هذه الصدفة انه اسقط خنفسة من نوع « سكارابوس » بمساعدة جوبيتر
واحتفظ بها ، وهو يعتقد ان هذا النوع من الخنافس جديد كلية ،
ويود الاطلاع على رأي بصددها في الصباح .

فسألته وانا افرك يداً بيد على الموقد ، وارجو الهلاك لجميع انواع
الخننافس : ولماذا لا يكون ذلك هذه الليلة ؟ ..

فاجابني : ليتني عرفت انك في كوخني .. لقد مضت مدة طويلة
من الزمن لم ارك في اثنائهما ، فكيف لي ان اتنبأ بمقدمك هذه
الليلة بالذات ؟ .. فحين كنت عائداً الى البيت التقيت بالملازم (ج)

التابع للحصن ، وقد دفعني الحلق لأن اعيره الخنفسة الذهبية ، ولذلك
يستحيل عليك ان تراها هذه الليلة .. انها ابداع شيء في الكون ..

فقلت : أهى بزوغ الشمس ؟...

قال : ما هذا الهراء ؟ .. انني اعني بها خنفسة في حجم البندقية ،
براقة ، ذهبية اللون ، وتزين ظهرها بقعتان سوداوان الى فوق ، وبقعة
مستطيلة الى اسفل .. اما الخنفسة هذه فهي ..

وهنا قاطعه الزنجي بقوله : ان الخنفسة ذهبية حقاً ، وهي صلبة تماماً
ولم ار لها مثيلاً في الثقل ...

فاجابه لوغراند بشيء من الجداكثر مما يقتضيه الامر : « فلنفترض
صحة ما تقوله يا جوب ... ولكن هل هذا ما يبرر تركك الدجاجة
لـ«محترق» ... ثم وجه حديثه لي قائلاً : ان لون الخنفسة يسوغ رأي جوبيتر ...
وانك لم تر ابدأ ماعاناً معدنياً كالذي يشع من حراشفها ، وستحكم على
ذلك بنفسك غداً صباحاً ... وفي هذه الاثناء اعطيك فيكرة عن
شكلها ... قال لوغراند ذلك وجلس الى خوان صغير عليه قلم ومحبرة
باستثناء الورق ، وعبثاً بحث عنه في الدرج .

وقال في نهاية الامر ، لا بأس في ذلك ، فهذه الورقة ستقوم
بالمهمة ... واخرج من جيبه طلحية ورق قدرة جداً ، ورسم عليها رسماً
غليظاً .. وفيما هو منهمك بعمله هذا قربت مقعدي من النار لانني
احسست بالبرد يسري في جسمي ، وحين اتم الرسم قدّمه لي وهو
جالس وما ان امسكته بيدي حتى سمعت همهمة عالية ، تبعها خمخ على
الباب ... فاسرع جوبيتر الى الباب وفتحه ، واذا بكلب كبير من نوع
نيوفوند لاند يقتحم الغرفة ، ويقفز على كتفي ويغمرني بتميليسه ،
لأنني كنت ابدى له في زياراتي السابقة كثيراً من الاهتمام واذ كفّ

عن قفزة وقمزه ، القيت نظرة على الورقة ، والحق يقال انني وجدت نفسي في حيرة مما رسمه صديقي .

فقلت له بعد ان تأملتها قليلاً: عليّ ان اقر بأن خنفسه «سكارابوس» هذه عجيبة الشكل ، وهي جديدة بالنسبة لي بل ولم ار لها مثيلاً في حياتي ، كما انني لا اجد لجمجمتها شبيهاً في كل ما وقع تحت نظري من هوام . فرد عليّ قائلاً : الجمجمة ... حقاً انها تبدو على القرطاس كما تراها ... فالرقتان السوداءوان تبدوان وكأنهما حدقتا العينين ... والبقعة الطويلة في اسفلهما تشبه الفم ، والشكل على الجملة بيضاوي .

فقلت له : لعل ما تقوله هو الصواب ... لكنني اخشى يا لوغراند انك لست رساماً ... وعليّ ان انتظر رؤية الحشرة ذاتها لكي اكون عن هيئتها فكرة معينة .

فاجاب بشيء من الامتعاض: لا ادري ان كنت رساماً ام لا ... لكنني رسمتها بتؤدة واثابة ، وبعد ان اتممتها تملت نفسي بدفع بلادة الذهن عني .

فاجبته : أمازح انت يا صديقي العزيز ... لقد توفقت في رسم الجمجمة بل انها ممتازة جداً ، وفاقاً للرأي الدارج في هذا النموذج الطبيعي ، وما من ريب في ان خنفستك هذه هي اعجب خنفسه في عالمها ... وبوسعها ان تخلق فينا اعتقاداً باطلاً .. وفي رأيي ان ندعوها خنفسه « سكارابوس كابوت هومينيس » او خنفسه نهاية الانسان ، او ما شابه ذلك من الاسماء الموجودة بكثرة في التاريخ الطبيعي ... ولكن اين هي الخنفسه التي رسمتها ..?

فأجابني لوغراند بحماسة : الا تراها ... لقد فرزتها بالنسبة لأصولها وفي ذلك كفاية كما اظن .

فقلت له حسناً تقول .. لكنني لا اراها ... وناولته الورقة دون ان اضيف اية ملاحظة ثانية متحاشياً اثاره طبعه الحاد ، لكنني دهشت جداً للتحول الذي طرأ عليه ، وحيرني اضطراب مزاجه ، اما الورقة فلم تحمل رسم خنفسة وانما رسم جمجمة انسان عادية لا أكثر .

وتناول الورقة بنكد ، واحكم قبضته عليها وكأنه يود القاءها في الموقد ، ولم يردعه عن ذلك سوى نظرة القاها على الرسم على حين غرة .

كان وجهه يحمر تارة ويمتقع تارة أخرى ، وهو يسبرغور الرسم الذي خطه بدقة تامة ، ثم هبّ واقفاً ، وتناول الشمعدان عن الخوان وراح ليجلس على صندوق في ابعد ركن من اركان الغرفة ... وهو يتفحص الورقة ويقلبها في كل اتجاه ... فلم يتفوه بكلمة واحدة لكن سلوكة حيرني وادهشني ، وعقدت النية على الا ابدي له اية ملاحظة تثير نفسه ، وتؤثر في اعصابه ... ثم رأيت يخرج من جيب معطفه جراباً ويضع فيه الورقة بعناية تامة ، ثم يحمله الى درج مكتبه ويقفل عليه بالمفتاح ... وقد بدا لي بعد ذلك انه جنح الى الهدوء ، الا ان حماسته المعهودة قد تلاشت تماماً واتسم وجهه بمعالم التفكير بدلاً من السخط .. ولما حلّ الليل امسى وقوراً لا تثيره نكتة او بديهة خاطر ، وكان في نيتي ان اقضي الليل في الكوخ ، كما كنت افعل دائماً ، غير انني لما رأيت صديقي على هذا الحال من تعكير المزاج قررت العودة الى المدينة ، ولم يصبر هو على بقائي ، بل انني حين ودعته صافحتي بجرارة اكثر من المعتاد .

وبعد انقضاء شهر على هذه الزيارة (ولم يبلغني اي خبر عن لوغراند خلال هذه المدة) ، زارني في شارلستون الزنجي جوبيتر ، وكانت ملاحظته تدل على اليأس فخشيت ان يكون صديقي قد أصيب بسوء

وقلت له ، ما وراءك يا جوب و كيف سيدك ؟...

فقال : الحق يقال ان سيدي ليس في حالة جيدة .

قلت : لا بأس عليه .. لقد احزننتي بهذا الخبر .. فهم يشكو؟..

قال : انه لا يشكو من شيء ، لكنه مريض جداً .

قلت : أجباً مريض ؟.. فلماذا لم تقل ذلك منذ البدء .. أيلازم

الفراش ؟..

قال : كلا .. انه لا يلزم الفراش .. وهو لا يجد ضرورة في

ذلك .. وهذا ما يسعدني حقاً .. لكنه مسكين مستر ويل !..

قلت : اريد ان افقه ما تعنيه يا جوبيتر .. فانت تقول ان سيدك

مريض .. او لم يقل لك ما علة مرضه ؟..

قال : ليس من موجب يا سيدي لان تهتم كثيراً بالامر ، فمستور

ويل لم يقل شيئاً عما يشكو منه ولكنه يتجول مطأطأ الرأس ..

ويحمل لوحاً دائماً .

قلت : ماذا يحمل يا جوبيتر ؟...

قال : يحمل لوحاً عليه ارقام ... وهذه الارقام هي من اعجب

ما رأت عيناى .. ولقد قلقت من اجله وشدت عليه المراقبة ، لكنه

رحل ذات يوم خفية وتركني بمفردي منذ شروق الشمس حين غروبها ..

و كنت قد اعددت عصاً لاقرعه بها جيداً حين يعود ، ولكن قلبي لم

يطاوعني ، فرأيتة مسكيناً حقاً يستحق الشفقة .

فقلت له : ماذا تقول ؟.. كلا يا جوبيتر .. عليك الا تقسو على

هذا المسكين كثيراً ، بل عليك ان تمتنع عن جلده ، فهو لا يحتمل

الجلد والضرب ، ولكن هل لك ان تحدثني عن سبب علمته او عن هذا

التغير الذي طرأ على مسلكه ؟.. فهل حدث له ما لا يسره منذ ان

تركتكما؟..

قال : كلا يا سيدي ، لم يحدث لنا ما يزعجنا منذ ان تركتنا ،
وانني اخشى ان يكون هذا الازعاج قد حصل قبل قدومك .. او في
يوم وصولك .

قلت : افصح عما تعنيه .

قال : انني اعني الخنفسة يا سيدي .

قلت : ماذا ؟

قال : انني على يقين بان الخنفسة الذهبية قد عضت المستر ويل في
قفا رأسه .

قلت : وما الذي حملك على هذا الافتراض يا جوبيتر ؟..

قال : للخنفسة فم ومخالب .. انني لم ار في حياتي خنفسة شرسة
مثلا .. انها تركل وتعض كل شيء يعترض سبيلها .. وقد امسكها
مستر ويل بشدة لكنها افلتت منه وعضته ... وانني لأمقت النظر الى
هذه الخنفسة الحبيثة ، ولا ارفعها باصابعي ابداً ، وانما التقطها بقطعة
ورق اعثر عليها .

قلت : وانت تظن ان هذه الخنفسة قد عضت سيدك حقاً ،
وامرضته ؟

قال : انني لا اظن شيئاً .. ولكن لماذا يحلم سيدي بالذهب كثيراً ،
ان لم تكن الخنفسة الذهبية قد عضته ؟..

قلت : ولكن كيف تعرف ان سيدك يحلم بالذهب ؟..

قال : عرفت ذلك منه هو يتحدث عنه في نومه .

قلت : طيب يا جوب .. ربما تكون على حق في رأيك هذا ..
ولكن ما هي المناسبة السعيدة التي دعمتك الى هذه الزيارة المشرفة ؟..

قال : ماذا تعني يا سيدي ؟..

قلت : هل حملك مستر لوغراند رسالة ما ؟..

قال : كلا يا سيدي ... وانما اوصاني بان اسلمك هذه الورقة ...
وقرات فيها ما يلي :

عزيزي ...

لم ارك منذ امد بعيد ... ارجو الا تكون نزواني قد حملتك على
اعتبارها اهانة لك ، انني استبعد ذلك تماماً .

فمنذ ان رأيتك وانا عرضة لقلق عظيم ، وعندي ما اقله لك ،
ولكنني لا ادري كيف اقول لك ذلك ، وأين .

انني لم اكن مرتاح البال في الايام الاخيرة ، ولقد تضجرت من هذا
الشيخ جوبيتر المسكين وهو يطوفني بعنايته ورعايته ... فهل تصدق
انه اعد عصاً غليظة ليقرعني بها عقاباً لي على تركه اياه خفية وقضائي يوماً
كاملاً بمفردي بين التلال !..

ولا ارتاب بأن معالم التعب التي بدت على ملاحي ، قد شفعت بي ،
وانقذتني من العقاب .

لم اصف شيئاً الي مكنتي منذ لقائنا الاخير .

فارجو ان تحضر مع جوبيتر اذا لم يكن في ذلك اي ازعاج لك ..
فهل لك ان تحضر ؟.. انني ارغب في اطلاعك هذه الليلة على امر هام ،
بل انه عظيم الهمية .

المخلص لك

ويليام لوغراند

كانت لهجة هذه المذكرة غير اعتيادية ، واسلوبها هو غير اسلوب
لوغراند الذي اعلمه ، لقد اقلقتني في الواقع .. فما الذي يحلم به
صديقي ؟ ... وما كنه هذه الحواطر الجديدة التي تشغل دماغه
المضطرب ، وما هو هذا « الامر العظيم الالهية » الذي يود ان يطلعني
عليه ؟ .. ان حديث جوبيتر عنه لما يندر بسوء .. وخشيت ان تكون
النواب المتتالية قد مسّت عقله ، وهكذا لم اتردد لحظة واحدة في
اعداد نفسي لمصاحبة الزنجي .

ولما بلغنا وصيف الميناء استرعى انتباهي وجود منجل كبير ،
وثلاثة محافر جديدة الصنع ملقاة في الزورق الذي سيقلنا الى الجزيرة ،
وقلت لجوبيتر : وما لزوم هذه الادوات ؟ ..

قال : انها محافر ومنجل .

قلت : حقاً ما تقول ... ولكن لماذا تنقلها في الزورق ؟

قال : لقد سألتني مستر ويل ان ابتاعها له من المدينة ... وابتعتها
بمال الشيطان .

قلت : ولكنني اقسم عليك باسم هذه الاسرار والمعميات ان
تخبرني ما الذي سيفعله مستر ويل بالمنجل والمحافر ؟

قال : هذا ما لا اعرفه ، وليأخذني الشيطان اذا كنت اعرف عنها
شيئاً اكثر مما يعرفه سيدي .. ولكنني اعزو السبب في ذلك الى
الحنفسة .

واذ وجدت ان من العبث الحصول على جواب شاف من جوبيتر ،
وان « الحنفسة » تشغل حيزاً كبيراً من تفكيره ، نزلت الى الزورق
وابجرت .. ودفعتنا الرياح ، معتدلة حيناً ومشتدة حيناً آخر الى ان
بلغنا الجون الواقع الى شمال حصن مولتري ، ثم قطعنا مسافة ميلين

سيراً على الاقدام الى ان بلغنا الكوخ حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ،
وكان لوغراند ينتظرنا بفارغ الصبر .. ولما صافحته شدّ على يدي
باستعجال عصبي ، فذعرت ، وزادت شكوكي فيه .. كان شاحب اللون
مروعاً ، وعيناه غائرتان تشعان بهريق غير عادي .. وبعد الاستفسار
عن صحته لم اجد موضوعاً لمتابعة الحديث ، غير الاستفهام عن الخنفسة
الموجودة عند الملازم (ج) .

فاجابني ، وقد تلوّن وجهه : اجل ، لقد استعدتها منه في صبيحة
اليوم التالي .. وما من شيء يستطيع حملي على ان اتخلى عنها .. أتدري
ان جوبيتر على حق في ذلك ؟...

فسألته والألم يحز في نفسي : ماذا تقصد ؟...
قال : انه على حق بقوله ان الخنفسة هي ذهبية فعلاً .. قال ذلك
وقد صعقني بامارات الجد التي لاحت على محياه .

وارتسمت على شفثيه ابتسامة الفوز وقال : ستكون هذه الخنفسة
مصدر ثروة لي ، وستعيد لي مركزتي في اسرتي .. فهلا تراني استحق
ذلك بعد ان تتحقق اماني ؟... فما دامت الثروة بمنوحة لي فما عليّ الا
ان اعرف كيف استفيد منها ، اجل عليّ ان ابلغ مكان الذهب المشار
اليه في الجدول .. فيما جوبيتر هات خنفسة السكاربوس !..

فقال الزنجي مرتعباً : ماذا ؟.. الخنفسة ؟.. كلا انني لا ازج نفسي
في المتاعب فانفض واحضرها بنفسك !..

فنهض لوغراند ، وسار بتؤدة ووقار ، الى حيث كانت الخنفسة
واخرجها من علبة زجاجية ، فرأيتها حقاً خنفسة جميلة ، غير معروفة
لعلماء الطبيعة ، ولها اهمية عظيمة من وجهة نظر العلم الطبيعي .. ورأيت
بقتين سوداوين مستديرتين على اعلى ظهرها ، ورقعة سوداء مستطيلة

في اسفله .. اما حراشفها فكانت قاسية ومصقولة، وهي على الجملة ذهبية اللون ، وثقيلة الوزن ، وبعد ان دقت فيها وجدت ان جوبيتر محق في رأيه ، ولكن ما الذي يدعو لوغراند لأن يتفق في رأيه مع رأى الزنجي ؟... هذا ما عجزت عن ادراكه .

وقال صديقي ، بلهجة كلها تفخيم : لقد ارسلت في طلبك بعد ان اتممت دراستي للحشرة .. وسألتك المجيء لاسترشد بنصحتك ، ولأعتمد على معونتك في مجابهة القدر .. والحنفسة !..

فصحت فيه قائلاً : انك متوعك يا عزيزي لوغراند ، ويجدر بك ان تحتاط لنفسك ، فاذهب الى فراشك وساطل انا هنا اياماً قلائل حتى تتأثل الى الشفاء .. انك ولا ريب محموم و ...

فقاطعني قائلاً : جس نبضي !..

فجسسته ، والحق يقال انني لم اجد فيه اقل اثر للحمى .

قلت : ولكنك ربما تكون مريضاً وانت غير محموم .. واسمح لي هذه المرة ان اصف لك ما عليك ان تفعله ، فأول شيء اذهب الى فراشك ، وثاني شيء هو ان ...

فقاطعني قائلاً : انك لعلی خطأ يا صديقي ، فانا لا اشكو شيئاً ، وكل ما في الامر انني منفعّل واذا اردت ان تراني معافي حقاً فما عليك الا ان تمد لي يد المعونة للتخلص من انفعالي ..

قلت : وكيف السبيل الى ذلك ؟..

قال : الامر جد بسيط ، فساقوم انا وجوبيتر في رحلة الى التلال الواقعة على البر ، وسنحتاج في رحلتنا هذه الى شخص نوليه ثقتنا ، وانت هذا الشخص ولا ريب .. اجل ، انت هو الشخص الوحيد الذي نشق به .. اما انفعالي الذي تلاحظه فسيلطف بقطع النظر عما

نلاقيه في رحلتنا من توفيق ام فشل

قلت : انني مهمت بامرك كيفما كان الحال .. ولكن هل لهذه الحشرة
الحسيسة علاقة بالرحلة التي ستقوم بها بين التلال ؟ ..

قال : اجل

قلت : اسمع يا لوغراند .. انني غير مستعد للاشتراك في هذه
الرحلة التافهة ! ..

قال : يؤسفني الا اقبل بغير اشتراكك .. يجب ان تسعى الى
ذلك معاً .

قلت : ولم لا تسعى الى ذلك بمفردك ؟ .. حقاً ان الرجل قد فقد
عقله .. ولكن قف .. كم تستغرق هذه الرحلة من وقت ؟ ..

قال : يحتمل ان تستغرق طوال الليل .. وعلينا ان نتحرك على
الفور ، وسنعود عند شروق الشمس .

قلت : وهل تعديني بشرفك ، انك بعد ان تفرغ من قضاء نزوتك
هذه في الجري وراء الحنافس ، ستعود الى بيتك ، وستتبع نصائحي كما
تتبع نصائح الطبيب ؟

قال : اجل ، اعدك ، وليتحرك ركبنا الآن ، حتى لا يذهب
الوقت سدى .

واصطحبت صديقي بقلب مثقل بالغم ، وشرعنا في رحلتنا حوالي
الساعة الرابعة بعد الظهر ، وكان ركبنا يتألف مني ومن لوغراند
وجوبيتر ، والكلب ، وقد حمل جوبيتر المنيجل والمحافر ، وهي كل
ما كان يصّر على حمله لا لوثوقه بمشاريع سيده ، وانما تهرباً من الافراط
في الكد والعمل .. وكان وجهه متجهماً ولا ينفك طوال الطريق عن
التمتمه في هذه العبارة : «يا لهذه الحنفسة الحبيثة» .. اما انا فقد حملت بعض

الفوانيس في حين تولى لوغراند حمل الحنفسة ، وقد ربطها الى طرف
خيط سوط وتركها تحوم ذهاباً واياباً كمن يقوم بشعوذة او سحر ..
وما كان لحركات صديقي هذه الا ان ضاعفت ظنوني في خفة عقله ،
ولم ائمالك عن ذرف الدموع من اجله .. وعلى كل تبين لي ان افضل
وسيلة في معاملته ابان الرحلة ، هي في مسابرتة وانعاش مخيلته ، ثم
استبدال هذه المعاملة عندما تحين الظروف المناسبة بمعاملة اخرى اكثر
حزماً وصرامة .. واخذت احداثه عبثاً بصدد الغاية من الرحلة ، وكان
هو بعد ان تمكن من استدراجي لمرافقته ، يتهرب من النقاش ويقول
لي دائماً : « سوف نرى ! »

واجتزنا الجون بالزورق من الجهة العليا للجزيرة ، ثم هبطنا منه الى
البئر وسرنا في اتجاه شمالي غربي ، عبر مناطق موحشة عزلاء ليس
فيها للانسان اي اثر ، وكان لوغراند يقودنا في رحلتنا هذه بتصميم ،
فيتوقف هنا وهناك للحظات مستطلعاً بعض العلامات التي تركها في
الرحلة الاولى التي قام بها بمفرده .

ودامت رحلتنا على هذا الحال مدة ساعتين ، وما ان اشرقت الشمس
حتى بلغنا مكاناً اشد وحشة من غيره من الاماكن التي مررنا بها ،
فالمكان الذي بلغناه هو منبسط عال ، يقع على مقربة من قمة جبل منيع
الحجاب ، تتكاثف فيه الاشجار من سفحه حتى اعاليه ، وتتشابك مع
صخور جمة متعددة الاشكال ، بل ان هذه الصخور تقف سداً منيعاً في
سبيل الاشجار وتحول دون انحدارها الى الوادي ، وهناك الجاري
البعيدة الغور ، المتعرجة في كل اتجاه التي تخلع على المسرح مهابة شديدة
المتجههم .

فالمنطقة التي صعدنا اليها كانت مغطاة بكميات كبيرة من شجيرات

العليق ، ويتعذر علينا شق طريقنا في ما بينها الا باستعمال المنجل ،
وراح جوبيتر يعبدها لنا لتقودنا الى سوسنة عالية جداً ، تقوم على
المنبسط المذكور الى جانب ثنائي عشر صنوبرات ، وتسمو على زميلاتها
كثيراً ، ثم ان كل الاشجار التي رأيتها في تلك المنطقة كانت على غاية
الجمال من حيث شكلها ، وطبيعة اوراقها ، واتساع اغصانها ، وعظمة
مظهرها .. وما ان بلغنا السوسنة حتى التفت لوغراند الى جوبيتر ،
وسأله اذا كان يستطيع تسلقها ، فذهل الزنجي والتزم الصمت قليلاً ..
ثم تقدم من الجذع الضخم وصار يدور حوله ببطء ، ويتفحصه بدقة
تامة ، ولما انتهى من تطوافه قال : اجل يا سيدي فان جوب يصعد
على شجرة لم ير لها مثيلاً في حياته !..

فقال لوغراند : فاصعد إذن بأسرع ما يمكن قبل ان يحل المساء .
فاجابه الزنجي : وما هو الارتفاع الذي سابلغه ؟...
قال : عليك ان تصل الى نهاية الجذع الرئيسي أولاً ، ثم اخبرك
عن الاتجاه الذي ينبغي عليك ان تتجه اليه والآن قف .. خذ هذه
الخنفسة معك !..

فصرخ الزنجي وهو يتقهقر مشمئزاً وقال : الخنفسة !.. الخنفسة
الذهبية !.. وما الحكمة من حمل هذه الخنفسة الى اعالي الشجرة ؟..
كلا لن افعل ذلك !..

فقال له لوغراند : اذا كنت تحشى يا جوب ، وانت الزنجي
الضخم ، اخذ هذه الحشرة غير المؤذية بيدك ، فلماذا لا تحملها وهي
مقيدة الى طرف الحيط .. اما اذا كنت تأبى حملها بأي شكل كان
فساخطر الى تحطيم رأسك بهذا الحفر !..

ويبدو ان الزنجي قد خجل من نفسه وقال : انك يا سيدي تلج

دائماً في كلامك مع الزنجي المسن .. فهل تظنني اخشى الحنفسة ؟ ..
وامسك الحيط حذراً ، وقد ابعد عنه الحشرة قدر المستطاع ، وهم
بالصعود على الشجرة .

كانت السوسنة في صغرها ، وهي من ابداع الاشجار التي تنمو في
الغابات الاميركية ، تقوم على جذع ملس ، وقد ارتفعت الى مسافة عالية
دون ان تبرز فرعاً ، ولكنها لما نضجت اعجز قشرها واحدودب ،
ونبتت عليها جذوع صغيرة كثيرة .. وهكذا كانت الصعوبة في
الصعود عليها وهمية ، وتقدم منها جوبيتر ، واحتضنها بذراعيه وركبتيه ،
وامسك ببعض النتوءات ، وبعد ان تلوي على الجذع ، متحاشياً السقوط
مرة او مرتين ، بلغ غصناً كبيراً في اعلاه ، وتهاى له انه انهى المرحلة
الاولى من الصعود .. والواقع انه انجز شطراً كبيراً من المشروع
الخطر ، وارتفع مسافة ستين او سبعين قدماً عن الارض .

وسأل جوب سيده : اي طريق علي ان اتبع ؟ .. فقال له
لوغراند : اصعد الى اضخم غصن في الشجرة ! ..

فاطاع الزنجي امره على الفور ، وتابع الصعود اكثر فاكثر دون
صعوبة ، الى ان اختفى بين اوراق الشجرة الكثيفة .. وصاح من
فوق : اتابع الصعود ؟ ..

فسأله لوغراند : وما هي المسافة التي بلغتها ؟ ..
فاجابه الزنجي : ارتفعت كثيراً .. انني ارى السماء من اعالي
الشجرة .

فقال : لا بأس من ذلك .. ولكن انظر الى اسفل ، وعد الفروع
التي صعدت عليها .

فاجابه : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة ... اجل لقد

تخطيت خمسة فروع من هذا الجانب ، وأقف على الفرع السادس .

فقال : تابع الصعود الى فرع آخر .

وبعد دقائق سمع صوت الزنجي يعلن بلوغه الفرع السابع .

فقال له لوغراند بانفعال : والآن يا جوب .. اريدك ان تسير على الفرع قدر استطاعتك .. واذا شاهدت شيئاً غريباً اشعري به على الفور .

وفي هذه الاثناء زال مني كل شك في سلامة عقل صديقي ، وتأهبت لأفناعه بضرورة العودة الى المنزل ، واذا بجوبيتر يقول من اعالي الشجرة : انني اخشى تسلق هذا الفرع بعيداً ، انه فرع ميت .

فسأله لوغراند بصوت مرتعش : أتقول ان الفرع ميت يا جوبيتر ؟ .. فاجابه : اجل يا سيدي انه ميت مثل « مسمار الباب » انه فاقد الحياة .

فبدت على وجه لوغراند علامة الغم وقال : بحق السماء .. ما العمل ؟ ..

فاغنمت هذه الفرصة وقلت له : عليك ان تعود الى منزلك .. ألم تعدني بذلك فهيّا بنا قبل ان يداھننا المساء .

فلم يصغ الى كلامي وصاح باعلى صوته : أأسمعني يا جوبيتر ؟ .. فاجابه ذلك : اجل اسمعك يا مستر ويل بكل وضوح .

فقال له : جرّب الفرع بموسك وتيقن فيما اذا كان كثير العطب .

فاجابه الزنجي بعد لحظات : انه عطب ولا شك ، ولكنه ليس على درجة كبيرة ، وبوسعي التعلق به مسافة ابعد بذاتي ..

فقال له ماذا تعني بكلمة بذاتك ؟ ..

فاجابه : اعني الحنفسة .. انها ثقيلة جداً .. واذا ما اسقطتها يسهل

على الفرع حملي بمفردي .

فصاح لوغراند وقد انتعش كثيراً : اسمع أيها المنافق اللعين ..
ما هذه الترهات التي تحدثني بها ، فشق بانني سأحطم عنقك اذا ما القيت
الحشرة .. اسمع ما اقوله لك ؟

فاجابه : اجل اسمعك ... وليس من موجب لان تتعامل على
هذا الزنجي المسكين .

فقال له : اذا ما تسلقت الفرع مسافة ابعد ، واذا ما تمسكت بالحنفصة
ولم تلقها فاني مانحك دولاراً فضياً حالما تهبط الى الارض .

فاجابه الزنجي على الفور : سافعل ما تريد .. وها قد بلغت نهاية
الفرع .

فقال لوغراند : هل بلغت نهاية الفرع ؟ .. هل ترى شيئاً عند هذه
النهاية ؟ ..

فاجابه : اجل بلغتها يا سيدي ... ولكن ... ولكن ... ما
هذا ... رحماك يا رب .. ما هذا الذي اراه على الشجرة ؟ ..

فقال له لوغراند وقد افعمه السرور : ما هذا الذي تراه ؟ ..
فاجابه : لا شيء ، انها جمجمة ، ويلوح ان احد الناس قد ترك
رأسه معلقاً على هذه الشجرة .. والعقبان لم يترك عليه اي اثر من آثار
اللحم .

فقال له سيده : تقول انك تشاهد جمجمة ، فهل هي مقيدة الى الفرع
جيداً .. وبهم هي مقيدة ؟ ..

فاجابه : اجل انها مثبتة الى الفرع بمسمار كبير .
فقال : والآن افعل ما قلته لك بدقة يا جوبيتر أسمعني ؟ ..
فاجابه : اجل اسمعك .

فقال : انتبه جيداً .. انظر الى عين الجمجمة اليسرى .
فاجابه الزنجي : هذا شيء بديع .. وهل لهذه الجمجمة عين .
فقال : تبساً لحماقتك يا جوبيتر .. هل تميز يدك اليمنى عن يدك
اليسرى ؟ ..

فاجابه : انني اميزهما طبعاً .. فهذه التي أفري بها الفرع هي
اليسرى .

فقال : تأكد من ذلك .. انك تنزع الى اليسار في كل شيء ..
فعينك اليسرى تقع في جهة يدك اليسرى ، والآن فاني افترض بانك
عثرت على عين الجمجمة اليسرى ، او على المكان الذي تقع فيه هذه
العين .. أليس كذلك ؟ ..

وهنا ساد الجو صمت طويل ، واخيراً تساءل الزنجي : هل عين
الجمجمة اليسرى تقع في جهة يدها اليسرى ايضاً ؟ .. ولكنها في الواقع
جمجمة بلا يد .. وعلى كل ساعثر على العين التي تريدها .. وها هي ..
والآن قل يا سيدي ما عليّ ان افعله ؟ ..

قال : اطلق الحشرة من فتحة العين اليسرى ، واتركها تدخلها
بقدر ما يسمح الحيط الممسك بها ، ولكن حذار ان يفلت من يدك
قبل ان امرك بذلك .

لم يظهر لجوبيتر وجهه اثناء هذا الحوار الا ان الحشرة التي آلمه امر
العودة بها كانت تتراءى لنا مقيدة بطرف الحيط، وهي تتألق كما تتألق
الكرة الذهبية تحت اشعة الشمس ، وكانت بعض اشعاعات الحشرة
تتساقط علينا ، وتضيء البقعة التي نقف عليها بنور باهت .. واذا ما
سقطت من علٍ فانها تستسقط بيننا مباشرة ، ولذا اخذ لوغراند المنجل
ونظف به دائرة ، تقع تحت الحشرة ، قطرها ثلاث او اربع ياردات ،

وبعد ان اتم عمله هذا امر جوبيتر ، بان يطلق الحيط والخنفسة معه ويهبط الى الارض .

ودقّ لوغراند وتداً في المكان الذي سقطت فيه الحشرة بالضبط ، ثم اخرج من جيبه مقياساً من الشريط واثبت احد طرفيه في جذع الشجرة من الناحية القريبة للتود ، ثم ابتعد بالشريط مسافة خمسين قدماً ، وكان جوبيتر يقتفي اثره منظفاً الدرب من شجيرات العليق .. ولما بلغ النقطة التي يريد دق فيها وتداً آخر ، ورسم حولها دائرة قطرها اربعة اقدام على وجه التقريب ، ثم حمل محفراً وسلم الزنجي محفراً آخر ، كما سلمني المحفر الثالث وقال فلنعمل معاً على احداث حفرة في هذه البقعة وباسرع وقت ممكن .

والحق يقال انني لم اشعر برغبة للقيام بهذا الضرب من التسلية ، وكنت اود رفض طلبه بداعي التعب وحلول المساء .. لكنني وجدت الا مفرّ من ذلك ، وخشيت ازعاج صديقي المسكين ، ولو كنت اعتمد على معونة جوبيتر لما توانيت لحظة واحدة في حمل المعنوه الى بيته بالقوة ، لكنني تيقنت ان الزنجي لن يناصرني ويخاصم سيده ، كما ان هذا الزنجي لا يزال اسير اوهام جمّة يدعن لها اهل الجنوب ، اوهام تتعلق بالكنوز المدفونة ، وجاءت الخنفسة الذهبية وقوّت فيه هذا الوهم ، وربما يكون هو الذي اصرّ على سيده ان يحتفظ بالحشرة لتصبح خنفسة من الذهب الحقيقي . وقد لاقت هذه الفكرة هوى في نفس المعنوه ، وتوافقت مع الافكار المحببة الى نفسه ، فلم يقل لي في حديث سابق انه يعقد اماله على الحشرة لتكون « دليلاً الى الثروة » التي يسعى اليها ؟ .. وعلى الجملة لقد احترت في امر هذا الرجل الحالم ، وعولت على مسايrote في حفر الارض بطيبة خاطر ، لأثبت له عقم افكاره

وفسادها عن طريق الاختبار والمشاهد .

واضأنا الفوانيس واندفعنا الى العمل بغيرة ، ليتها كانت من اجل
شئ واقعي ، وكان منظرنا عجبياً مريباً ونحن نجد في حفر الارض ،
والفوانيس ترسل اشعاعاتها علينا .

وتابعنا الحفر مدة ساعتين باصرار وعناد ، ولم يزعجنا شئ سوى
كلبنا فقد كان في بادىء الامر ، هادئاً ، يراقب اعمالنا بانتباه زائد ثم
صار ينبج نباحاً مستمراً خشناً معه ان يسترعي انتباه بعض المتجولين
في تلك المنطقة النائية ، والواقع هذا ما كان يخشاه لوغراند ، اما انا
فكنت اتمنى مجيء اي شخص يساعدني على اعادة هذا التائه الى منزله ،
وحينما تضاعف ضجيج الكلب ، خرج له جوبيتر من الحفرة وكلم فمه
باحكام ، وعاد الى مواصلة عمله وقد ارتسمت على محياه علامات
التشفي .

وفي هذه الاثناء كنا قد تعمقنا في الحفر الى مسافة خمسة اقدام ،
ومع ذلك لم نعثر بعد ذلك على اي اثر الكنز . وتوقفنا عن العمل
قليلاً ، فظننت ان بداية الاخفاق قد اقبلت وكاث لوغراند مجدداً ،
مقطب الحاجبين ، ثم تابعنا العمل فوسّعنا الحفرة وزدناها عمقاً ، لكننا
لم نصل الى اية نتيجة ، فتوقف لوغراند عن العمل ثانية وخرج وعلائم
الحيرة مرتسمة على محياه ، ووضع سترته على كتفيه ، واثار الى جوبيتر
ان يجمع ادوات العمل ، ورفع الكمامة عن فم الكلب ، وقفلنا عائدين
الى البيت .

وبعد ان سرنا مسافة قليلة التفت لوغراند نحو جوبيتر فجأة وحملني
في وجهه ، ثم امسكه من ياقة سترته ، فاجفل الزنجي وفغرفاه وترك
المنجل يقع عن الارض ثم خر على ركبتيه .

فقال له لو غواند حانقاً : قل لي ايها اللعين .. اجبني على الفور ..
اين هي عينك اليسري ؟ ..

فاجابه رحماك يا مستر ويل .. ان عيني اليسرى تقع هنا .. ووضع
يده على عينه اليمنى ! ..

قال : فلنعد الى السوسنه مرة اخرى .. فالعمل لم ينته بعد .. ثم
خاطب جوبيتر قائلاً : اسمع يا جوبيتر ، هل كانت الجمجمة مسمرة
ووجهها الى الامام ام الى الخلف ؟ ..

فاجابه : كانت الجمجمة مسمرة الى الامام ، حتى تتمكن منها
العقبان دون مشقة .

فانفعل لو غرانند ووضع يديه على عيني الزنجي وسأله : في اية عين
وضعت الحشرة في هذه ام في هذه ؟ ..

فاجابه الزنجي : وضعتها في هذه العين .. واثار الى عينه اليمنى .
قال لو غرانند : علينا ان نعيد الكرة مرة أخرى .

وشرع صديقي ، الذي تأكد لي جنونه ، يعمل من جديد ، فنزع
الوتد من المكان الذي سقطت عنده الحنفسة ودقه في مكان يبعد مسافة
ثلاث بوصات الى الغرب من مكانه السابق ، ومدّ المقياس الشريط من
الشجرة في خط مستقيم الى مسافة خمسين قدماً ، كنا قد نظفناه
سابقاً ونحن نحفر الارض .

واحدثنا دائرة جديدة ، اوسع من سابقتها ، وباشرنا اعمال الحفر
ورأيت نفسي هذه المرة مندفعاً بل ومتحمساً للعمل بالرغم من السأم
المستولي علي .. فمن يدري ان صديقي الشاذ يهدف الى شيء واقعي ؟ ..
وشرعت احفر الارض وانا امني نفسي بالعثور على كنز وهمي ، اي
انني صرت اماطر صديقي التمس خيالاته ، وبعد عمل دام ساعة ونصف

هبّ الكلب يذبح نباحاً شديداً كما فعل في السابق، ولما حاول جوبيتر ان يكلمهم فيه قاومه مقاومة عنيفة، وقفز الى داخل الحفرة وصار يرفع التراب بمخالبه كأنه أصيب بصرع، وما هي الا ثوان حتى كشف عن هيكلين بشريين وعليهما بعض الازرار المعدنية، والى جانبهما خنجر اسباني، ولما تعمقنا في الحفر عثرنا على ثلاث او اربع قطع من الذهب والفضة.

ولم يكن لوغراند راضياً عن هذه النتيجة، فألحّ علينا بمواصلة الحفر، ولا ادري كيف زلت بي قدمي فسقطت على وجهي، وعندما تبينت السبب وجدت قدمي قد علقت بحلقة حديدية نصفها مدفون في الارض والنصف الثاني بارز فوقها.

وضاعفنا العمل بشدة وعزم الى ان كشف لنا عن صندوق كبير طوله ثلاثة اقدام ونصف القدم، وعرضه ثلاثة اقدام، وعمقه قدمان ونصف القدم، تحيط به اطواق من الحديد، وله ست حلقات قوية تمكن ستة رجال من حمله، وعبثاً حاولنا زحزحته من مكانه لثقله، ولما كشفنا غطاءه، أصبنا برجفة ووجوم بالغين، ونحن نتراجع الى الخلف، كان الصندوق طافحاً بالجواهر الثمينة والذهب من كل شكل ونوع، وهي تشع بهريق يأخذ الابصار.

لقد ذهلت حقاً لمراى الجواهر، اما لوغراند فقد خارت قواه، ولم يتفوه الا بكلمات معدودات.. اما الزنجي فقد امتقع لونه، وانعقد لسانه، ثم ركع في الحفرة ودفن ذراعيه العاريتين في الذهب كأنه يمتع نفسه بحمام فاخر، ثم تنفس الصعداء وقال: أهذا هو ما جلبته لنا الخنفسة الذهبية؟.. هذه الخنفسة الطبية، المسكينة.. الا تبتأ لي على تلك المعاملة القاسية التي عاملتها بها.. الا تحجل من نفسك ايها الزنجي؟..

أجب ؟ ..

والحجت على صديقي والزنجي بضرورة رفع الكنز من الحفرة ، ونقله الى البيت قبل طلوع الصباح .. وبعد ان انعمنا الفكر طويلاً وصلنا الى قرار واحد وهو رفع ثلثي محتويات الصندوق لتخفيفه ، ثم رفعه كله من الحفرة .. وهكذا كان فقد اخرجنا كميات كبيرة من الجواهر ووضعناها بين العليق وفي حراسة الكلب ، وزودنا جوبيتر بتعليمات صارمة بالالتزام بحرك من مكانه او يفتح فمه قبل عودتنا ، واسرعنا الى المنزل ونحن نحمل الصندوق ، فبلغناه الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، ثم تناولنا العشاء واسترحنا قليلاً ، بعد ان بذلنا مجهوداً فوق الطاقة البشرية ، ثم عدنا الى التلال ونحن نحمل ثلاثة اكياس متينة الصنع ، وبلغنا الحفرة قبل الساعة الرابعة صباحاً ، وحملنا ما تبقى من جواهر وذهب وعدنا بها الى المنزل تاركين الحفرة كما هي ، فبلغناه مع طلوع تباشير الصباح واشعاعات الشمس الاولى تتألق على قمم اشجار الرند .

لقد اضننا التعب ، غير ان اعصابنا المهتاجة المتوترة لم تدع لنا مجالاً للراحة طويلاً ، وبعد غفوة مضطربة دامت ثلاث ساعات او اربع نهضنا ثانية لنتفحص محتويات الصندوق .

كان الصندوق طافحاً حتى بابه بالمجوهرات ، فقضينا طوال النهار ، وشطراً من الليل ونحن نحصيها ونرتبها بعناية ودقة ، فاتضح لنا اننا غدونا نملك ثروة اكثر مما تصورنا عند الهولة الاولى .. كان الصندوق يحتوي على اربعمائة وخمسين الف قطعة ذهبية .. ومجوهرات مختلفة قديمة فرنسية واسبانية والمانية ، وكميات من الجنيهات الانكليزية ، ونقود ذهبية تابعة لبلدان أخرى لم نرها شبيهاً ابداً ، لكننا لم نعثر

بينها على نقد امريكي .. وقد تعذر علينا تقدير ثمن هذا الكنز ، فهناك
الاماس باحجام كبيرة وعددها مائة وعشر ماسات ، وكلها بديعة
ورائعة .. رقد ظهر لنا انها خُلعت من قواعدها وألقيت في الصندوق
اتفاقاً .. اما تلك القواعد فقد دُقت دقاً عنيفاً لازالة معالمها .. وكان
في الصندوق بالإضافة الى ذلك كميات من الزخارف الذهبية ، وثلاثمائة
خاتم وقرط من النوع الثقيل ، وثلاثون عقداً نفيساً ، وثلاثة وثمانون
صليباً ، وخمس مباخر باهظة الثمن ، وطبق ذهبي كبير مزين باوراق
العنب ، وبشقي الصور البديعة ، وقبضتا سيفين من الذهب الخالص ، وكثير
من الاشياء الصغيرة التي لا تحصى .. وترت هذه المجوهرات جميعها
اكثر من ثلاثمائة وخمسين وقية ، ويستثنى من كل ما ذكرته حوالي
مائة وسبع وتسعين ساعة ذهبية محلاة بالمجوهرات ، ومعظمها قديم جداً ،
لكنها متعطلة عن العمل بسبب تأكل آلاتها ، وقد قدرنا قيمة محتويات
الصندوق جملة بمليون ونصف مليون دولار .

واخيراً ، وبعد ان انتهينا من عملية الاحصاء ، وهذأت اعصابنا
نوعاً ما ، التفت اليّ لوغراند وقال لي اراك مضطرب الخاطر ، وتبدي
رغبة ملحة في حل هذا اللغز .. وها انا اضعه بين يديك :

قال : انذكر تلك الليلة التي سلمتك فيها الرسم السريع للخنفسة ..
انذكر كيف امتعضت منك لانك كنت تلج في القول بان الرسم
يشبه الجمجمة .. فلما ابديت تلك الملاحظات وقتئذ ظننتك مازحاً ،
لكنني لما نظرت الى البقع السود التي تحلي ظهر الخنفسة اتضح لي ان
في كلامك بعض الحق .. واستهزأوك بي كرسام لا يزال يهزني لانني
اعتبر نفسي رساماً ماهراً ، وكان بودي وقتئذ ان القي الى النار ذلك
الرق الذي رسمت عليه الحشرة .

قلت : لعلك تعني بالرق قصاصة الورق ؟..

قال : انها تبدو قصاصة ورق وما هي كذلك ، فحين اخذت ارسم عليها تبين لي انها رق رقيق جداً ، ولما رحت اطويه حانقاً رأيته في الواقع يحمل رسم جمجمة ، وان هذا الرسم يقع في المكان ذاته الذي رسمت فيه الحشرة .. وقد اخذتني الدهشة لما في الرسمين من تشابه ودقة رغم الاختلاف القائم في التفاصيل .. واخذت الشمعدان وجلست على صندوق في احد جوانب الغرفة وانا ادقق النظر في الرق ، وحينما قلبته على الجهة الثانية رأيت الرسم الذي خطته يدي قبل لحظات فدهشت جداً للتشابه الواقع بين الرسمين في خطوطهما العامة ، فمن جهة الجمجمة ، ومن جهة اخرى رسم الحشرة ، والتشابه قائم فيما بينهما شكلاً وحجماً .. وانصرفت وقتئذ الى ايجاد الرابطة العارضة التي تربط بين الرسمين ، واذ عجزت عن ذلك أصبت بما يشبه الشلل الموقت ، ولما صحوت بدأت انظر الى الامر بانه اكثر من مجرد مصادفة ، فقد تذكرت انني قاسمت الرق على الجانبين وانا ابحث عن مكان نظيف لأضع عليه رسم الحشرة فلم ار للجمجمة اثرأ ، وقد اثارني هذا السر وتعذر عليّ حله ، ومنذ ذلك الحين واشعاع خافت يضيء قرارة نفسي ، وصور باهتة تنسج خيوطها في خيالي ، كانت من نتائجها الوصول الى هذا الكنز الذي تراه .. ونهضت من على الصندوق ووضعت الرق في مكان امين ، عاقداً النية على اغتنام فرصة للاختلاء بنفسي لاستجلاء غوامض هذا السر .

وكان ما فعلته بعد ان تركتني وبعد ان ذهب جوبيتر الى فراشه ان باشرت التحري المسأله بدقة تامة ، فأول ما جال في خاطري كيفية وصول الرق الى حوزتي .. كنت قد عثرت على الخنفسة عند ساحل

البر ، وعلى بُعد ميل من شرقي الجزيرة ، ولما التقتها عضتني في يدي
وسقطت على الارض فاسرع جوبيتر الحذر ليلتقطها بأي شيء يقع تحت
يده ، فوقع نظره على ما ظنه وظننته انا ايضاً انه ورقة ، فرفعها
ونصفها مخفف في الارض ، والنصف الثاني ظاهر فوقها.. وقد لاحظت
ان بالقرب من المكان حطام سفينة قديمة العهد .

ولف جوبيتر الحنفسة بالرق وسلمها لي ، ثم عدنا الى البيت والتقينا
في طريقنا بالملازم (ج) وهو يتحمس جداً للتاريخ الطبيعي ، واطلعت
على الحشرة فسألني ان آذن له بحملها الى الحصن ، فلم امانع في ذلك
ووضعها في جيب صدرته ، دون الرق الذي لُفت به ، وذهب هو في
سبيله ، ووضعت انا الرق في جيبى بصورة عفوية .

ولعلك تذكر ايضاً انني لما جلست الى الخوان لأرسم الحشرة لم
اجد في درجه ورقة ، وبحث في جيوبى لعلي اجد رسالة قديمة ارسم
عليها ، فوقعت يدي على الرق .

وسرعان ما اخذت اجمع الامور الى بعضهم ، واثبت الروابط
القائمة فيما بينها ، فاول ما استرعى انتباهي ان هناك حطام سفينة ملقاة
على الشاطئ ، والى جانبها رقاً وليس ورقة - وقد رسمت عليه صورة
جمجمة .. وستسألني ولا ريب وما علاقة هذه بتلك ؟... فاجيبك ان
الجمجمة هي شعار القراصنة المشهور ، وكانوا يضعونه على اعلامهم في
جميع المعارك التي يخوضونها . والشعار هذا مرسوم على الرق لا على
ورقة عادية ، والقصد من ذلك المحافظة عليه من البلى ، فالرق إذن هو
سجل شيء ما !..

فقاطعته قائلاً: ولكنك ذكرت في حديثك بانك لم تر للجمجمة اثرأ

عندما شرعت تصور الحشرة ، فكيف اهتديت والحالة هذه الى الصلة القائمة بين حطام السفينة والجمجمة ؟..

قال : حقاً انني لما رسمت الحشرة لم ار للجمجمة اثرأ ، ولكنني حين انتهيت من رسمها ناولتك اياها فرأيت انت فيها صورة الجمجمة .. فما السر في ذلك ؟..

لقد كان الطقس يومئذ شديد البرودة ، والنار تتأجج في الموقد ، وكنت انت تجلس بقربه ، فلما سلمتك الرق لتتفحص صورة الحشرة ، وثب الكلب بين كنفيك ، واخذت تلمسه بيدك اليسرى ، بينما كنت تقبض على الرق بيدك اليمنى ، فسقط الرق من يدك على الارض وبالقرب من الموقد تماماً ، وكاد اللهب يلتهمه ، وما ان رفعته حتى ظهرت عليه صورة الجمجمة .. اذن فحرارة النار هي التي اظهرت الصورة على الرق .. فالكتابة بالمواد الكيماوية كانت معروفة في العهود الماضية ، وكانت تستعمل في الكتابة على الورق او على الجلود .. فمادة «الزفر» اذا ما مُزجت بماء « ريجيا » تعطي جبراً اخضر .. وحجر الزرنيخ اذا ما مزج بروح النشادر يعطي جبراً احمر ... وهذه الالوان تختفي عن النظر اذا ما حفظت الكتابة بها في اماكن باردة ، ولكنها تبرز ثانية اذا ما عرضت لوهج النيران .

واتضح لي إذ ذاك ان الجهة العليا من الجمجمة اكثر وضوحاً من غيرها فاستنتجت من ذلك ان الجبر المستعمل في الرسم لم يكن متعادلاً .. فاسرعت واوقدت ناراً وعرضت الرق عليها من كل جانب ، فبرزت في اسفل الرق صورة شبيهة بالعنزة ، ولما دقت فيها وجدتها جدياً .

فضحككت ولكنني استدركت الامر وقلت له : لا يحق لي ان اضحك وامامي ككنز يساوي مليوناً ونصف مليون من الدولارات،

ولكنك لم تصل الحلقات ببعضها بعد فما علاقة القراصنة بالعنزة .. وهم
كما تعرف لا يرعون الماعز ؟ ..

قال : ولكنني افدتك بان الصورة الجديدة التي رأيتها هي صورة
جدي .

قلت : ولنفترض انه جدي فما الذي نستنتجه من ذلك .
فاجاب لوغراند : لعلك سمعت بالقراصان الشهير المدعو « كابتن
كيد » او الربان الجدي ، فرسم الجدي جاء محل التوقيع تماماً ..
وصرت اتوقع ظهور شيء بين الجمجمة شعار القراصنة وتوقيع القرصان
الشهير .

قلت : لعلك كنت تتوقع ظهور رسالة بينهما ؟ ..
قال : اجل كنت اتوقع شيئاً من هذا القبيل ... لقد استحوزت
عليّ فكرة العثور على ثروة ما ، وهذه الفكرة مبنية على الرغبة لا على
الاعتقاد ، وجاءت كلمات جوبيتر التافهة بصدد « الخنفسة الذهبية حقاً »
مشيرة لنفسي ولخيالي .. ثم بدأت بعد ذلك سلسلة من الحوادث المتتالية
المتعارضة ، حوادث خارقة للعادة .. فجاء ذلك اليوم الوحيد من ايام
السنة، ببرده القارس ، فاضطررنا الى ايقاد النيران في الموقد، وظهرت
الجمجمة .. فلولاً انسجام هذه الحوادث لما توصلت الى هذه النتائج .

قلت : تابع حديثك يا صديقي .
قال : ما من ريب بانك سمعت شائعات كثيرة عن الاموال التي
دفنها الربان كيد ورجاله ، انها شائعات تقوم على اساس من الصحة ،
وهي في الواقع وليدة الظروف التي دفن فيها الكنز وظل مدفوناً
دون ان يعثر عليه احد من الناس .. فجميع الشائعات والقصص التي
تروى بهذا الشأن تتحدث عن الباحثين عن الكنز لا عن واجديه ..

ولكن هل عاد كيد واخرج الكنز ثانية ؟ .. يلوح لي انه قد طرأ له
حادث ، كنسيان المسكان الذي دفن فيه الكنز ، منعه من استخراج
من مكانه ، وان رجاله كانوا على علم بهذا الحادث ، وحاولوا فيما بعد
عبثاً الاهتداء اليه ، ومن ثم سرت الشائعات بصده وتواترت القصص ..
فهل بلغك انت ان كنزاً مدفوناً في مكان ما من الشاطئ ؟ ..

قلت : كلا .

قال : اجل ان مجوهرات « كيد » كانت هائلة ، وذائعة الصيت ..
و كنت انا مقتنع بانها لا تزال في بطن الارض ، وكانت لذلك الرق
العجيب ، ان قوتى في الرجاء للاهتداء الى مكانها .

قلت : وكيف تابعت تحقيقاتك ؟ ..

قال : امسكت بالرق الى جانب النار فلم يظهر عليه شيء جديد ،
فقلت ربما تكون الاوساخ العالقة به هي التي تحول دون ظهور الرسالة ،
فغسلته بمياه دافئة ، ثم وضعته في صفيحة جاعلاً المبخرة الى اسفل ،
ووضعت الصفيحة على فرن حتى اشتدت حرارتها ، ثم رفعت الرق ،
فغمزني فرح عظيم اذ رأيت صفوفاً من الارقام ترسم عليه .. وهما
هي كما تراها الآن .

وناولني لوغراند الرق وعليه ارقام تتخللها رموز شتى ، فتفحصتها
لكنني لم افقه ما تعنيه قطعاً .. فاعدتها له قائلاً انني لا ازال في ظلمة
حالكه .

فقال لوغراند ان حل هذه الارقام صعب ولا شك ، انها (شيفرة)
تضمن معنى يعرفه الربان كيد ، وقد اتضح لي على الفور انني لا
استطيع تفسيرها بلا مفتاح .

قلت : وهل استطعت حلها بالفعل ؟ ..

قال : لقد سبق لي ان حللت الغازاً اعوص من هذا الغز . . والمهم في هذا الشأن ان تعرف اولاً اللغة التي كتبتها الشيفرة ، فتصوير الجدي كدلالة لمعنى (كيد) يوهن على ان الرسالة كتبت بالانكليزية ، اما نصها فهو مزيج من الارقام والحركات ، وقد بدأت احلل الكلمات المختصرة المؤلفة من حرف واحد ، ثم احصيت الارقام المتشابهة فوجدت ان رقم ٨ هو اكثرها عدداً اذ بلغ ٣٣ ، ولما كان حرف E بالانكليزية هو اكثر الحروف استعمالاً فقد استنتجت ان رقم ٨ يعني E ، وكثيراً ما يضاعف هذا الحرف في الكلمات الانكليزية مثل Speed, Fleet, Meet الخ . . اذن فحرف E هنا قابل للمضاعفة .

فاعتبرت والحالة هذه رقم ٨ بمثابة حرف E ولما كان هذا الحرف يأتي كثيراً في كلمة THE ، وهي اكثر الكلمات استعمالاً بالانكليزية استنتجت ان الارقام التي تسبقها هي T , H فتؤلف معاً كلمة THE اي ال التعريف .

ثم تابعت تحري الشيفرة على ضوء هذه القاعدة فظهر لي ان هناك ارقاماً تؤلف كلمات « شجرة » و « جيد » و « ثلاثة عشر » الخ . . وكانت النتيجة في نهاية الامر استخراج هذه الرسالة :

« نظارة جيدة في فندق المطران ، في مقر الشيطان - واحدى واربعون درجة وثلاث عشرة دقيقة - الى الشمال الشرقي والى الشمال - الفرع الاساسي هو الفرع السابع والى الشرق - يسقط من الغين اليسرى لرأس الميت - خط مستقيم من الشجرة لمسافة خمسين قدماً . »

قلت له وما الذي نفهمه من كلمات « مقر الشيطان » و « رأس

الميت » و « فندق المطران » ؟ .. لقد بلبلت هذه الرسالة افكاري اكثر من ذي قبل ، وانا لا ازال في ظلمة حالكة !..

قال : لقد بلبلت هذه الرسالة افكاري انا قبلك خلال ايام قليلة ، الى ان اجريت تحقيقاً في الاماكن المجاورة لجزيرة سوليفان عما اذا كانت هناك بناية تسمى « فندق المطران » فلم اصل الى نتيجة مرضية ، واخيراً قلت لنفسى ربما ترجع كلمة BISHOP المطران الى BESSOP وهو اسم شخص كان يملك في قديم الزمان بيتاً صغيراً على بعد اربعة اميال من شمالي الجزيرة ، فتوجهت الى ذلك المكان والتقيت بعجوز زنجية ، وعلمت منها انها تعرف مكاناً اسمه « بيسوبس كاستل » ، وقادتنى اليه فلم اجد هناك لا قصرأ ولا حانة ، وانما مجموعة من الصخور ، وقد برزت من بينها صخرة عالية ، فارقيتها ، ولما كنت منهمكا في تأملاتي ، وقع نظري على حافة ضيقة تقع الى الناحية الشرقية من الصخرة ، تشبه المقعد ، فاستنتجت على الفور انها هي « مقعد الشيطان » .

اما « النظارة الجيدة » فهي ترمز الى المنظار ، فالبحارة يستعملونها في الغالب بهذا المعنى ، فاستنتجت من ذلك ان من الضروري استعمال منظار والتطلع فيه من اتجاه معين للوصول الى نقطة معينة .. ولم اتردد في الاقتناع بان الدرجة الواحدة والاربعين ، والثلاثين دقيقة ، والشمال الشرقي ، انما تعني الدرجات التي يجب ان يتجه اليها المنظار .

فاسرعت الى البيت واحضرت منظاراً ، وعدت الى الصخرة التي وقفت عليها ، ثم انحدرت حيث مقعد الشيطان وجلست عليه في اتجاهه الطبيعي وتطلعت من المنظار « وفقاً » للمقاييس المذكورة ، فوقع نظري على شجرة بعيدة عالية ، كما وقع على شيء ابيض اللون ، يقبع على اعالي الشجرة ، فوسعت المنظار قليلاً لأتبينه جيداً فاذا هو جمجمة انسان .

وهنا ادركت انني قد حلت اللغز نهائياً ، وان عبارة الغصن
« الرئيسي » و « الفرع السابع » انما تدل على المكان الذي تقوم عليه
الجمجمة .. وان عبارة « اسقط من عين رأس الميت اليسرى » هي تفسير
المكان الذي دفن فيه الكنز .. واتضح لي ايضاً انني اذا ما اسقطت
قطعة من الرصاص من عين الجمجمة اليسرى ، فانها ستقع على الأرض
الى جانب جذع الشجرة ، وعلى بعدئذ ان امد شريطاً لمسافة خمسين
قدماً ، وعلى خط مستقيم ، فيحتمل ان ابلغ بذلك المكان الذي اودع
فيه الكنز .

قلت : وماذا حدث لك بعد ان تركت « فندق المطران » ؟ ..

قال : عدت الى البيت .. وقد لاحظ جوبيتر اضطراب خاطري
فشدّ علي المراقبة ، غير انني غررت به يوماً وذهبت الى حيث تقوم
الشجرة العالية التي رأيتها بالمنظار ، ولما عدت من هذه الرحلة كان
الزنجي قد عقد النية على جلدي تأديباً لي وعقاباً .. هذه هي القصة ، وما
تبقى منها فانك تعرفه كما اعرفه انا .

قلت : ولكن ما الذي حدا بك الى استعمال الحنفسة الذهبية في
هذه العملية بدلاً من قطعة الرصاص ؟ .. لقد ظننتك جننت .

قال : اصارحك القول انني سئمت ارتيابك في سلامة عقلي ، وقررت
ان اعاقبك على ذلك بطريقتي الخاصة ، اي بخلع ضرب من الغموض
على القضية كلها .. ولهذا السبب كنت اهز الحنفسة ، ولهذا السبب
ايضاً تركتها تسقط من على الشجرة ! ..

قلت : لقد ادركت الآن .. كل شيء ، ولكن ما رأيك في الهيكليين
البشريين الذين عثرنا عليهما في الحفرة ؟ ..

قال : لا شك عندي الآن ان الرّبان كيد هو الذي اخفى الكنز
في الأرض، وهو الذي قضى على هذين الرجلين، وهما يعملان في الحفرة،
ليدفن معهما سر الكنز الى الابد !..

مخطوطة في زجاجة

ليس لي ما اقله عن بلادي واسرتي الا الشيء اليسير ، فتعاقب
السنين جعلني غريباً عن الاولى ، وسوء التصرف حرمني من الثانية ..
فثروتي الموروثة قد مكنتني من الحصول على ثقافة عالية ، ونزعتي
التأملية افسحت لي المجال لتنظيم ما تراكم في رأسي من معلومات
اكتسبتها في سني حياتي المبكرة .. وفضلاً عن ذلك كله فان تأليف
الاخلاقين الالمات جلبت لي متعة عظيمة ، لا اعجاباً مني بجنونهم
البليغ ، بل للجزالة التي كنت اجدها في تقصي اكاذيبهم .

لقد وبخت كثيراً على يبوسة ذكائي ، ونُسبت الي الجريمة لضعف
خيالي ، والواقع انني اخشى ان تكون الفلسفة الطبيعية ، التي كنت
اجد فيها لذة ، قد اسبغت على عقلي لوناً شائعاً في ايامنا هذه ، واعني
به تفسير الحوادث ، مهما كانت ثانوية ، تفسيراً علمياً .. وعلى الجملة
انني اقل الناس عرضة للابتعاد عن دائرة الحقائق الصارمة .. والقصة
الحارقة التي سارويها ، هي خير برهان على ما اقول ، انها ليست من
نسيج خيالي الحشن ، وانما هي وليدة اختبارات لا بطلان فيها قطعاً .

قضيت سنين عديدة سائحاً في البلاد الاجنبية ، ثم اجرت سنة - ١٨

من ميناء باتافيا من بلاد الجاوه ، الى جزر الارخبيل ، وليس من
باعث على ذلك سوى الاضطراب العصبي الذي كنت ارضح تحت
وطائه .

وكانت سفينتنا التي ابجرنا بها جميلة ، متينة ، حملتها اربعمائة طن
وقد صنعت في بومباي .. وهي محملة بالقطن ، والزيت من حاصلات
جزر لاشايف .. وكانت محملة ايضاً بجوز الهند واليافه ، وبالسكر
المستخرج من التمور ، وبصناديق تحتوي على الافيون .. والمشحونات
هذه قد نضدت بهوج الأمر الذي جعل السفينة تكوِّع باستمرار .

اقلعت السفينة بنا في ربح هادئة . وظلت تتهادى اياماً عدة عند
شواطئ الجاوه الشرقية ، ولم يقع لنا في هذه الاثناء اي حادث يقطع
علينا اتجاهنا الرتيب باستثناء ما كانت يعترض سبيلنا من جزر صغيرة
تابعة لجزر الارخبيل .

وبينما كنت ذات عصر استند الى حاحز مؤخرة السفينة ، تحت
غمامة منفردة فريدة، تنبجه الى الشمال الغربي، وقد استرعت هذه الغمامة
انتباهي بسبب اللون الذي اصطبغت به ، ولانها اول غمامة تراها بعد
مغادرتنا بتافيا .. وبقيت ارقبها باهتمام زائد حتى غروب الشمس ،
عندما انتشرت دفعة واحدة شرقاً وغرباً واستحالت في الأفق الى تيار
ضيق من البخار ، يشبه خطاً مديداً من شواطئ البحر .. ثم استرعى
انتباهي القمر بوجهه الاحمر القاتم ، والبحر وهو في حالة خاصة غريبة
اذ غدت مياهه شفافة اكثر من المعتاد ، حتى انني كنت ارى قعره
بكل وضوح ، ثم امسى الهواء حاراً لا يطاق ، ومحملاً بأبخرة شبيهة
بالأبخرة الصادرة عن الحديد المحمى .. وقد انقطع الهواء تماماً ، فلهيب
القنديل القائم في مؤخرة السفينة لا يحرك ساكناً ، والشعرة الطويلة

اذا ما امسكتها بين ابهامي وسبائتي تظل منتصبه مثل القضيب ... وبالرغم من ذلك كله فقد رأى الربان الاّ خطر من هذه الظواهر، ولما كنا نسير بمحاذاة الشاطئ، فقد اصدر اوامره بطي الأشرعة ، والقاء المرساة .. وكان معظم البحارة من اهل الملايو ، فاستلقوا على ظهر السفينة وهم يغطون في نوم هادىء ، اما انا فقد هبطت الى الطابق السفلي و كلي شعور بان نكبة ستحل بنا، وقد سبق لي واعربت للربان عن مخاوفي هذه لكنه لم يعرها ادنى اهتمام .. وكان للقلق الذي اعتراني ان حرمني النوم فصعدت عند منتصف الليل الى سطح السفينة وما ان وضعت قدمي على الدرجة العليا من سلم المؤخرة حتى سمعت عويلاً عالياً يصم الآذان يشبه صوت الدوران السريع لحجر الطاحون ، فاجفني ، ولم ادرك كنهه ، ورأيت السفينة ترتعش من وسطها ، ثم غمرتها على حين غرة موجة من الزبد ، واكتسختها من ادناها الى اقصاها .

وكان لهذه الفورة المفاجأة ان انقذت السفينة من الغرق ، فبعد ان غمرتها المياه تمكنت من مقاومة ضغط العاصفة الهائل ، واعتدلت في وضعها .

واية اعجوبة انقذتني من الهلاك، فما ان عاد الي رشدي حتى وجدت نفسي محصوراً بين مؤخرة السفينة ودقتها .. ونهضت بكل مشقة ، وتطلعت الى ما حولي ماخوذاً .. وكنت اتصور انني سأجد حطام السفينة متناثرة هنا وهناك غير انني رأيت ما هو اشد هولاً ، رأيت السفينة واقعة في اسر دوّار من دوّارات المحيط ... وانقضت لحظات سمعت بعدها صوت رجل مسنّ اسوجي ، كان قد اجر معنا من بتافيا ، فاسرعت اليه بكل ما اوتيت من قوة واسرع هو اليّ ، وسرعان ما اتضح لنا اننا نحن الاثنان ، كل ما تبقى على ظهر السفينة من احياء ،

فالموجة الساحقة جرفت كل من كان عليها من بحارة والقتهم في الهوة ،
اما الرّبان ومساعدوه فقد غمرتهم المياه وهم نيام في غرفهم ، وهلكوا
غرقاً ، ومن البديهي ان نعجز عن انقاذ السفينة بمفردنا ، وقد تلاشى كل
ما بذلناه من جهد ونحن نتوقع السقوط في الهوة لحظة بعد لحظة ..
وسارت السفينة مسرعة وهي تتخبط في كل اتجاه ، ونحن بين يأس
ورجاء ، وبقينا على هذا الحال خمسة ايام كاملة ، والاعاصير لا تنفك
تتلاعب بنا على نحو لم اعلمه في حياتي ابدأً ، وكنا نقف طوال الوقت
من مخلفات حمولة السفينة ، ففي الايام الاربعة الاولى اتجهت بنا الى
الجنوب الشرقي ثم الى الجنوب في اتجاه شواطئ هولاندا الحديثة ..
وفي اليوم الخامس اصبح البرد فوق المعتاد والرياح تعصف في اتجاه
الشمال ، والشمس ممتعة اللون ترسل اشعتها الخافتة من فوق الأفق
مباشرة ، ولم تكن هناك غيوم مع ان الرياح آخذة في الازدياد وهي
تأر متقلبة مضطربة .

وحلّ اليوم السادس ودخلنا في ظلمة حالكة ، وصرنا لا نرى شيئاً
على بُعد عشرين خطوة ، وظلّ هذا الليل السرمدي يلقنا بردائه من كل
جانب ، واشعاعات البحر الفوسفورية المشهورة في الخط الاستوائي هي
النور الوحيد الذي يداعب اعيننا .. وتعاضمت العاصفة ، واشتد الظلام ،
وكنا كيفما ادرنا وجهينا لا نرى الا صحراء من الابنوس الاسود
البراق ، وقد استولى الرعب على صديقي الاسوجي ، اما انا فقد عقدت
الدهشة لساني ، فاهلنا شأن السفينة تماماً وانصرفنا الى الاهتمام بذاتنا ،
فتشبثنا ، قدر المستطاع بقاعدة الصارية ونحن نجمل النظر في المحيط ،
والغم يعصر قلوبنا ، ولم يكن لدينا من الوسائل ما يدلنا على الوقت او
يفيدنا اين نحن وفي اي اتجاه نتخبط . وكنا نتصور اننا نسير جنوباً

غير ان ما يحيرنا هو عدم اصطدامنا بجليد العائمة .. وكان رفيقي
يحدثني عن قلة حمولة السفينة وعن متانتها ، وانا قد قطعت كل امل
بالنجاة وهيأت نفسي للملاقات الموت في كل لحظة .. وكنا احياناً
نتنفس الصعداء لرؤيتنا طير الباتروس البحري واحياناً نحس بدوار
شديد ونحن نفوس في هوة جهنمية حيث المياه الآسنة والهدوء
الشامل .

وبلغنا ذات مرة قعر احدى هذه الهوات ، واذا برفيقي يصرخ
مرتعباً : انظر .. يا الهي !.. فشاهدت نوراً احمر يشع من جنبات
الهوة الواسعة التي رسبنا في قعرها ، ورفعت ناظري الى فوق فرأيت
منظراً جمّـد الدم في عروقي ، رأيت سفينة ضخمة الحجم لعل حمولتها
تبلغ الاربعة آلاف طن وقد رفعتها الاغصير الى علو مئات الامتار في
السماء ثم هوت بها في قعر اليم .

وفي هذه الاثناء استحوذ عليّ امل لا ادري مصدره ، فسرت الى
مؤخرة السفينة متأرجحاً ، وانتظرت الهلاك دون وجل .. وكانت
سفينةنا قد توقفت عن المقاومة وغاصت في الماء ورأسها الى اسفل ..
فجاءت السفينة الثانية وصدمتها بعنف ، وكانت النتيجة ان قذفت بي
الى ما فوق سطح البحر وسقطت على ظهر السفينة الغريبة !..

وما انت بلغتها حتى ارتفعت من المياه ثانية وسارت في طريقها ،
فتبلمت وصرت احاول الاختفاء عن اعين البحارة، وسرت فيها مختلساً
خطواتي الى ان اقتربت من كوة واسعة وتسالت منها الى الداخل
واختبأت ... وانا اجهل السبب الذي كان يحملني على هذا التستر ،
ولعله يرجع الى الخوف من رؤية بحارة هذه السفينة الغريبة على حين
غرة .

وما كدت استريح في مخبأي حتى سمعت حركة تقترب منه، فرأيت رجلاً يمر بي بخطوات ضعيفة مضطربة.. ولم استطع تمييز وجهه ولكنني رأيت ملامحه على الجملة فهو مسنّ معتل، وركبته تترجفان تحت اثقال السنين، وهيكله كله يرتعش تحت عبء الحياة، وكان يتمتم في صوت خافت وفي لغة لا افقها، ثم تلمس في الزاوية بعض الادوات والخرائط البحرية القديمة.. ومسلكه على العموم هو مزيج من شكاسة الطفولة الثانية ووقار الرجل الطيب... ثم غادر المكان وصعد الى ظهر السفينة، ولم اره اكثر.

* * *

لقد استولى على نفسي شعور لا اعرف كيف انعمته، انه احساس لا يخضع لأي تحليل، ولا اعرف له مثيلاً في دروس السنين الغابرة، واخشى الا اجد له تفسيراً في المستقبل ايضاً.. فهذا الشعور بالنسبة لي هو مصدر شؤم ولا ريب، واني لن ارضى ابداً عن طبيعة افكاري.. ومن المستغرب ان افكاري هذه غير واضحة بعد، لأن مصادر اصولها مستحدثة تماماً، وعلى ذلك فان الشعور الجديد قد اضاف على نفسي كياناً جديداً.

* * *

وانقضى وقت طويل قبل ان اخرج من مخبأي في هذه السفينة المروعة.. وقد خيل اليّ ان اشاعات مصيري قد تركزت في مصدر واحد.. فمن هم هؤلاء الناس الذين لا ادرك لهم كنهها؟.. لقد كانوا يرون بي ملتفين بالتأملات ولا يلحظون وجودي.. وقد تراءى لي ان اختفائي لا معنى له بتاتاً لأن القوم لا يرونني على كل حال.. وخرجت من مخبأي فعلاً، واخذت التجول بين البحارة، ثم تجرأت ودخلت غرفة

ربّان السفينة بالذات ، وهناك كتبت ما كتبت ، وصرت اوالي زيارة تلك الغرفة بين حين وحين وادوّن مذكراتي فيها.. حقاً لقد جال في خاطري انني لن اجد وسيلة لا يصلح هذه المذكرات الى العالم ، واخيراً عزمت على وضع مخطوطاتي في زجاجة والقائها الى اليمّ .

وحدث لي حادث حملني على التأمل من جديد.. فهل تقع لنا هذه الامور يا ترى في نطاق حظوظ لا سلطة لنا عليها.. وخرجت ذات يوم الى ظهر السفينة ثم نزلت الى الطابق الاسفل منها دون ان استرعي انتباه احد ، وهناك وجدت كومة من سلالم الجبال ، وشراعات قديمة ، وتعثرت من غير عمد بفرشاة للدهان ، هي حزمة من الاشرطة الطويلة ، كانت ملقاة الى جانب برميل ، ولطخت بها.. وقد نبهتني حزمة الاشرطة هذه الى ان الوثئها بالدهان واضعها على ظهر السفينة اذ ربما يمسها احد عرضاً كما مسستها انا عرضاً فيعرف مصيرنا .

وقمت فيما بعد بفحص بناء السفينة فكانت جيدة التسليح ، ولو انها غير حربية ، ولم يكن من المتعذر عليّ معرفة ما ليست له هذه السفينة ، ولكن استحال عليّ معرفة ما هي له !.. فهي غريبة الشكل والحجم ، واجد لها شبيهاً في طيات الذكريات القديمة ، شبيهاً غير جلي لكنه يرجع الى العصور الغابرة .

وانعمت النظر في المواد التي صنعت منها السفينة فكانت غريبة جداً ، وما اثار دهشتي بصورة خاصة الخشب الذي صنعت منه ، فقد تبادر الى ذهني انه لا يصلح ابداً لان يستعمل في بناء سفينة .. فقد كان هشاشاً ذا مسامات ، ولعل السوس قد نخره في سني الملاحة الطويلة .. وعلى كل فان متابعة البحث في هذه الناحية حملتني على الظن انها مصنوعة من خشب الصنوبر الاسباني ، وان هذا الخشب قد مُطّط بطرق غير

ولقد ذكرني منظر هذه الاخشاب بما كتبه احد البحارة الهولانديين
القدامى في مذكراته قال : «وان ما ا قوله هو صحيح ، كصحة انتفاخ
السفن في بعض البحار ، وصيرورتها ضخمة الجسم ، كضخامة اجسام
البحارة التي يعملون فيها ! » .

وتجرات واختلطت بالبحارة لكنهم لم يعيروني ادنى التفاتة .. ،
وكانوا كلهم مثل ذلك البحار الذي رأيت في الخبأ ، طاعنين في السن ،
ترتعش ركبهم لعدم وثوقها من نفسها ، وقد قوَّس الهرم اكتافهم ،
وجلود اجسامهم المشنجة تطرطق في الهواء ، واصواتهم خافتة متهدجة ،
تشع اعينهم ببريق السنين ، وشعورهم الشائبة الطويلة تتطاير في العاصفة ...
وقد تبعثرت حواليلهم ادوات حسابية قديمة عجيبة الشكل .

فمنذ ان وضعت فرشاة حزمة الاشرطة على السفينة والاعاصير تتقاذفنا
وتهددنا بالهلاك ، والدوائر البحرية المروعة تسعى الى ابتلاعنا في كل
حين ، فلم اقو على الوقوف على قدمي ، اما بجارة السفينة فلم يبدو
عظيم اهتمام بالاعطار المحدقة بهم ، وبما بلبل عقلي اننا كنا نطوف على
حافة الهاوية السحيقة ، وهذه تأبى اختطافنا ، وكانت اعجوبة الاعاجيب اذ
انزلت السفينة عن الدوار كما ينزلق طير النورس على سطح الماء ،
والامواج تزار فوق رؤوسنا كما تزار الشياطين ، الا ان قوة غامضة
حالت دون هلاك السفينة وتدميرها ، واني اعزوها الى التيار في
اندفاعه الجارف .

والتقيت بالرَّبَّان في غرفته وجهاً لوجه ، لكنه لم يهتم بي وهو رجل
طاعن في السن ، له قامة مثل قامتي على وجه التقريب ، اي خمسة

أقدام وثماني بوصات ، جسمه ضامر ، وتنعكس على محيّا اثار السنين الطوال ، وشعره الشائب هو سجل الماضي ، وعيناه المتقدتان تحترقان حجب المستقبل .. وكانت غرفة الربّان مليئة بادوات علمية غريبة الاشكال ونجرائط قديمة العهد .. وقد اسند رأسه الى راحتيه وهو يتصفح رسالة تحمل توقيع الملك ... وكان يتمتم في لغة اجنبية تصل الى اذني وكأنها آتية من ابعد المسافات .

فالسفينة ومن عليها توحى القدم .. والبحارة ينزلقون جيئةً وذهاباً مثل الاشباح المطوية في احقاب الدهور ، وتنعكس في نظراتهم معاني الشوق والقلق معاً ، واذا ما رأيت اصابعهم تحت ضوء الفوانيس داخلني شعور ضارٍ عجيب ، مع انني قضيت معظم حياتي وانا اتاجر بالتخف القديمة ، واتشرب ظلال اعمدة بعلبك ، وخرائب تدمر وبرسيبوليس الفارسية ، حتى اضحت نفسي ذاتها اطلاقاً من الخرائب .

وتطلعت الى ما حولي والسفينة تندفع نحو الجنوب ، وكان ظلام دامس ، وزبد هائل يطوقنا من كل جانب ، ثم القيت نظرة الى مسافة ابعد فشاهدت خيالات كتل الجليد تلتصّب في الماء الكثيب وكأنها اسوار الكون .

وانضح لي على الفور ان تياراً قوياً يسير بنا سريعاً الى منطقة الجليد بعويل وصخب مروعين ، اننا نتجه نحو القطب الجنوبي ذاته .. فيا لهول هذا الاحتمال .

وكان البحارة يسرون على ظهر السفينة بخطى قلقة مرتعشة ، لكن ملاحظهم تعرب عن الأمل الشديد اكثر مما تعرب عن اليأس القاتل . وتلاعبت العواصف بالسفينة المحملة باكياس الخيش ، ورفعتها الى

ما فوق سطح البحر .. فيا إلهي أرب على رعب ؟ .. فها هي جبال
الجليد المخفية قممها في سماء الظلمة الخالكة ، تتجمع الى يميننا والى
يسارنا ، والسفينة تدور بنا بسرعة هائلة في دائرة مركزية .. ولم يبق
لي الا القليل من الوقت لأفكر في المصير الذي ينتظرني !..

وأخذت الدائرة تضيق شيئاً فشيئاً ، والدوائر الضاري ممسك بنا
باحكام ، وهو يشدنا الى اسفل .. وارتعشت السفينة وسط زئير اعاصير
المحيط ورعوده ، وفتحت الهوة شديها وابتلعتنا .. فيا رب .. اننا
نندفع الى القعر !..

القلب الراوي

كنت وما زلت عصبي المزاج على درجة مروعة ، ولكن ما الذي سيحملك على القول انني مجنون؟... فالامراض قد ارهفت احاسيسي ، ولم تلبدها او توردها موارد التلف.. وكانت حاسة السمع في ارهف من غيرها ، فتصلي اصوات من اعالي السماء ، ومن اعماق الارض ، ومن جهنم بالذات!.. فمن يقول بعد ذلك انني مجنون؟.. فاصغ اليّ ، وراقب سلامة عقلي ، من الطريقة المأدبة التي سأروي لك فيها هذه القصة :

يتعذر عليّ القول كيف جاءتني الفكرة باديء ذي بدء ، ولكن ما ان ادركتها حتى استحوذت عليّ ليل نهار.. لم يكن في الفكرة اي موضوع او هوى.. وكل ما في الامر انني ابغضت شيخاً ، لم يسء اليّ ، ولم يهني ، ولم ارغب في ماله .. ويغلب على ظني ان السر الدفين يكمن في عينيه ، الشبيهتين بعيني العقاب ، فهما زرقاوان ممتعتان وتعلوهما غشاوة ، ولا تقعان عليّ الا واحس ان الدم البارد يسري في عروقي ، وتفاقم الأمر حتى بت افكر في قتله والتخلص من عينيه الى الأبد .

فهذه هي العقدة.. وسيدور بخلك على الفور انني مجنون، الا ان
المجنون لا يعني شيئاً.. وكان عليك ان تراني كيف اقدمت على العمل
بحكمة، وتيقظ، وبعده نظر.. اجل، لقد عاملت الشيخ قبيل اغتياله
باسبوع احسن معاملة، فكنت ازوره عند منتصف الليل فافتح الباب
بتؤدة تستغرق احياناً ساعة من الزمن، واطفىء الفانوس حتى لا تقع
اشعته على عيني العقاب، واطل على الشيخ النائم من شق الباب وانا اضحك
على نفسي لما تحلت به من خبث... وهكذا ظلت سبع ليالي ازوره
الساعة الثانية عشرة ليلاً، وانا اتردد في تنفيذ العمل لا خشية من الشيخ
نفسه وانما خشية من عينيه الشريرتين.. وما ان يطلع الفجر حتى اهرع
اليه، واخاطبه بلهجة عاطفية، واستفسر منه كيف قضى ليله.. ولم
يدر في خلده ابدأ انني كنت ازوره في منتصف الليل، واحدق به
النظر من شق الباب وهو مستلق على فراشه.. فهل تقول بعد هذا كله
ان في عقلي مس من الجنون؟..

و كنت في الليلة الثامنة حذراً في فتح الباب اكثر من الليالي
السابقة، بل ان عقرب دقائق الساعة المعلقة في الغرفة، كان اسرع مني
حركة.. ولم اكن لاشعر سابقاً بتعاضم في قوتي وحكمتي مثلما شعرت
في تلك الليلة.. وفتحت الباب شيئاً فشيئاً والشيخ لا يحلم بما عقدت النية
عليه.. وضحكت من نفسي بلطف، وخيل اليّ انه قد سمعني، لانه
تململ في فراشه فجأة... ولعلك تظن انني تراجع.. كلا انني لم
اتراجع قيد انملة، لأن الغرفة كانت متسربلة بالظلام الحالك، والشيخ
لا يرى شيئاً قطعاً.. وظلت ادفع الباب بثبات واستمرار.. وولجت
الغرفة و كنت على وشك فتح الفانوس الذي احمته، والمغطى بالسواد
من كل جانب.

واذا باصبعي ينزلق على مزلاجه ، فيهب الشيخ في فراشه صارخاً :
من هناك ؟ ..

فالتزمت الصمت ولم افه بكلمة واحدة .. وانقضت ساعة من الزمن
لم تهتز فيها عضلة من عضلاتي ، ولم اسمع في الوقت ذاته انه عاد الى
رقاده .. لقد كانت يجلس في فراشه مرهف السمع ، وانا اصغي الى
دقات الموت الصادرة عن الساعة .

وسمعت في تلك الاثناء زفيراً ضعيفاً لم يكن وليد مرض او
حزن .. وانما هو صادر عن اعماق النفس التي تنوء تحت حمل معنوي
ثقيل ، انه زفير الرعب المميت .. لقد كنت ادري بما كان يشعر به
الشيخ في تلك الآونة ، لانني خبرت هذا الشعور بذاتي ، فاشفقت
عليه ، لكنني كنت اسخر منه بقلبي .. كانت يحاول تهدئة خاطره
وتكذيب سمعه فيقول لنفسه : « ليس ما سمعته الا نفخة من الريح في
المدخنة » ، او « انها فأرة تعبر الغرفة » ، او « انه صرصور يناغي نفسه » ،
وعبثاً حاول الشيخ تهدئة نفسه لان الموت قد اقترب منه ونشر ظلاله
امامه .

فلمّا طال انتظاري عند الباب ، ولم اسمعه قد استلقى على فراشه
ثانية ، ثارت نفسي ، وعزمت على اطلاق بعض اشعاعات من الفانوس
الذي احمله ، وما كدت افعل ذلك حتى وقعت تلك الاشعاعات على
عيني العقاب مباشرة ويا لهول تلك النظرات المروعة .

كانت عيناه جاحظتين ، مطبوعتين باللون الازرق البليد ، وعليهما
غشاوة تسري القشعريرة في الجسم ، فتضاعفت ثورتي ، وسلطت الشعاع
على وجهه كاملاً .

ألم اقل لك ان ما كنت تظنه في جنوناً ان هو الا ارهاق في

احاسيسي ؟.. ثم التقطت اذناي صوتاً سريعاً خافتاً كالصوت الذي
يصدر عن الساعة المغلقة بالقطن .. انني اعرف هذا الصوت جيداً .. انه
صوت خفقان قلب الشيخ ، فصار يهزني كما يهز قرع الطبول الجنود في
ساحة الوغى .

ووقفت ثابتاً في مكاني ، وانا اتنفس ببطيئاً ، واحمل الفانوس بيدي ،
واسلط شعاعه على وجهه .. فتضاعفت دقات قلبه وارتفعت عالياً اكثر
فاكثر ، لقد بلغ الحد الاعلى من رعبه .. الا تلاحظني الآن جيداً ؟..
الم اقل لك انني عصبي المزاج ؟.. وما كان لهذا الصوت الغريب الا
ليزيد في فزعي ، وانا في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ووسط
السكون المرعب الذي يسود هذا البيت العتيق .

واستمر الصوت في خفقاته عالياً .. عالياً ، فخيّل اليّ انه سينفجر ،
فثارت نفسي من جديد ، وبثّ اخشى ان يبلغ هذا الصوت مسامع
الجيران .. لقد حانت ساعة الشيخ ... وصدرت عني صرخة فزع ،
فالقيت الفانوس جانباً ، وقفزت في وسط الغرفة ، فاطلق الشيخ ايضاً
صيحة واحدة لا غير .. ثم جذبته على الفور الى الارض . وقلبت الفراش
الثقيل عليه ، وعلت شقياً ابتسامة السرور للسرعة التي انجزت فيها هذا
العمل .. وكان قلبه لا يزال يخفق ضعيفاً ، ثم توقف تماماً ، فالشيخ قد
مات .. فرفعت عنه الفراش ، وفحصته فتبين لي انه اضحى قطعة من
جماد ، ووضعت يدي على قلبه دقائق معدودات ، فوجدته ساكناً الى
الابد ، لقد مات الشيخ ولن يزعجني بعد الآن بعينيه الشبيهتين بعيني
العقاب .

ألا زلت تظنني فاقد العقل ؟.. لا ريب بانك ستتخلى عن هذا
الظن عندما تطلع على التدابير التي اتخذتها لاختفاء معالم الجريمة .. لقد

انقضى الليل ، واسرعت الى متابعة العمل بهدوء تام ، فأول ما فعلته انني قطعت اوصال الرجل ، وفصلت رأسه عن جسمه ، ثم خلعت ثلاثة الواح من ارض الغرفة ، وحشرت فيها بقايا الشيخ ، واعدت الالواح الى مكانها بدقة وعناية تامين ، وغسلت آثار الدماء وجففتها تماماً .

كانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً حين فرغت من دفنه ، والظلام لا يزال سائداً كما كان عند منتصف الليل ، وسمعت في هذه الاثناء قرعاً على باب الدار الخارجي ، فهرعت الى اسفل لأرى من الطارق بقلب خال من الهموم .. فوجدت ثلاثة ممن ضباط الشرطة .. ويبدو ان صرختي وصرخته قد بلغتا مسامع الجيران الذين اسرعوا واسعروا مكتب الشرطة بوساوسهم ، ثم اوفد المكتب هؤلاء الضباط لتفتيش البيت .

فابتسمت لهم .. اذ ليس من شيء اخشاه .. ورحبت بهم ولما استفسروا عن الصراخ قلت لهم انني انا الذي صرخت في الحلم ، اما جاري الشيخ فقد توجه الى الريف ، وجئت معهم الدار كلها ، ثم ولجنا غرفة القتل ، وبيئت لهم ان شيئاً لم يتغير فيها ، ولما كنت في غمرة حماسي اسرعت واحضرت مقاعد للزائرين وسألتهم الاستراحة قليلاً .. اجل كنت مثلاً بالفوز الضاري الذي حصلت عليه ، فوضعت مقعدي فوق بقايا الضحية مباشرة وجلست .

واقنع الضباط بسلامة مسلكي ، وأجبتهم على أسئلتهم ثم أخذوا يثرثرون فيما بينهم في مواضيع شتى ، ومضى وقت طويل وهم على هذا النحو الى ان مللتهم ورغبت في ذهابهم .. ثم لزمني وجع في رأسي ، وخيل اليّ انني اسمع طنيناً في اذني ، وهم لا يزالون يجلسون هادئين ويثرثرون .. وزاد الطنين وصار اكثر وضوحاً ، فانطلقت في الحديث

لا تغلب عليه ، لكنني اخفقت وظهر لي في نهاية الامر ان مصدر الطنين ليس في اذني .

فامتقع وجهي ، وانطلقت في الحديث بصوت عالٍ اكثر من ذي قبل ، والطنين يزداد اكثر فأكثر.. لقد كان طنيناً خافئاً ، سريعاً ، اشبه بصوت الساعة المغلفة بالقطن .. فحبست نفسي ، واطمئنت اذ رأيت الضباط لا يسمعون هذا الطنين .. ثم اسرعت في الكلام ، وشدت في اللفظ ، والطنين لا يزال في ازدياد ، وانتصبت واقفاً ، واخذت اتحدث بعصبية ظاهرة ، والطنين في ازدياد متواصل .. فما الذي يحمل هؤلاء الضباط على البقاء في الغرفة .. لماذا لا يغادرونها؟.. وأخذت أسير في ارض الغرفة جيئةً وذهاباً ، فنظراتهم المسلطة عليّ قد اقلقتني ، والطنين لا يزال في ازدياد .. فما العمل يا رب ؟.. انني ارغي وازبد .. اني اكاد اجن من الغيظ .. انني اقسم الايمان المغلظة .. والطنين يتعالى ويتعالى ، ويتعالى .. والضباط يجلسون ويثرثرون مسرورين .. أيعقل الا يكونوا قد سمعوا الطنين ؟.. كلا ، كلا يا ايها الاله العلي .. انهم يسمعون الطنين ولا ريب ، انهم يشتهون بأمرى ، بل يعرفون كل شيء ..!.. انهم يسخرون من الرعب البادي على محياي .. فلم اطق صبراً على هزئهم وسخريتهم .. لم احتمل اكثر ابتساماتهم المرائية ، والطنين يتعالى ، ويتعالى الى ان صرخت : ايها الاشرار ، كفوا عن مرءاتكم .. انني اقر بجريمتي ، فانزعوا الالواح الخشبية ها هنا... ها هنا... حيث تجدون قلبه المروع يخفق عالياً !!..

برميل امونتيلا دو

لقد الحق بي فورتوناتو القدر الكبير من الأذى ، لكنه لما تجرأ
واهانني آليت على نفسي ان انتقم منه .. ولن يتصور من يعرف طبعي
انني اكتفيت بالتهديد ، لقد عقدت النية على الانتقام وليس في ذلك
ادنى شك .. فما اطمح فيه هو الانتقام مع تحاشي العقوبة .. فالاثم
لا يقوم اذا ما تناول الجزء الشخص المنتقم ، او اذا لم يتحسس هذا
المنتقم بما كان يتحسس به المعتدي عند ارتكاب الاثم .

ومن الجلي انني لم ادع لفورتوناتو اي مجال للريبة في حسن نواياي ،
لا بالكلام ولا بالعمل ، ولم افتأ ابتسم في وجهه ، وهو لا يلحظ ان
ابتسامتي هذه تخفي وراءها فكرة القضاء عليه .

كانت لفورتوناتو هذا ناحية ضعف ، وكانت له نواحٍ اخرى تجعله
محتوماً ومهيب الجانب .. فهو يتباهى دائماً بجبرته في الخمر ، وقلة هم
الايطاليون الخيرون بالمشروبات الروحية ، لأن الامر الذي يشير
حماسهم اكثر من اي شيء آخر هو اغتنام الوقت والفرص للتغوير
باصحاب الملايين من الانكليز والنمساويين .

وكان فورتوناتو في الرسم وغير ذلك من الفنون الجميلة دجّالاً مثل مواطنيه ، لكنه كان صادقاً في تمييز الجمور المعتقدة .. ولم يختلف عنه في هذا المضمار جوهرياً ، اذ كنت ماهراً في شؤون الكرملة الايطالية ، واشتري المساحات الواسعة منها حينما استطعت .

وحدث ان تقابلت مع صديقي هذا في احدى أمسيات عيد المرافع ، والحفلات المقنّعة قد بلغت اعلى حدٍ من درجات الجنون ، فرحب بي ترحيباً حاراً لكثرة ما احتسده من خمر ، وكان يرتدي اشتاتاً من الالبسة الضيقة ، ويضع على رأسه قبعة مخروطة الشكل محلاة بالأجراس ، وقد سررت لمراه بعد ان ظننت اني لن اتمكن من عصر يده في يوم من الايام .

فقلت له : انني مبتهج برؤياك يا عزيزي فورتوناتو .. حقاً انك تبدو مرحاً سعيداً .. واحيطك علماً بهذه المناسبة انني تلقيت الغليون الذي كان بجوزة امونتيلا دو ، لكنني ارتاب فيه .

قال : ما هذا الذي اسمعه .. امونتيلا دو ؟ الغليون ؟ .. هذا امر مستحيل .. وفي منتصف عيد المرافع ؟ ..

قلت : انني ارتاب في الغليون وقد ارتجبت حماقة ، اذ نقدت امونتيلا دو الثمن كاملاً دون مراجعتك في الموضوع .. فبحثت عنك ولم اجدك ، وخشيت ان اخسر الصفقة .

قال : امونتيلا دو ؟ ..

قلت : اني ارتاب فيه .

قال : امونتيلا دو ؟ ..

قلت : وعلي ان ارضيهم .

قال : امونتيلا دو ؟ ..

قلت: وما دمت انت الآن على موعد.. فانني ذاهب الى لوكريسي
فهو الشخص الوحيد الذي يستطيع الادلاء برأي في الموضوع.. واخل
انه سيقول لي ...

قال: لا يستطيع لوكريسي التمييز بين امونتيلا دو وشري .
قلت: وهناك بعض الحقى يظنون ان ذوق لوكريسي يتفق
وذوقك ..

قال: هلمّ بنا .

قلت: الى أين ؟ ..

قال: الى اقيمتك .

قلت: كلا يا صديقي .. لا اريد ان اعكر عليك صفو مزاجك ،
ويلوح لي انك على موعد .. اما لوكريسي ..

قال: انني لست على موعد مع احد .. هلمّ بنا .

قلت: كلا يا صديقي ، فان لم تكن على موعد ، فانني اخشى
عليك من برودة الأقيية وهي مرصعة بلمح البارود .

قال: دعك من هذا الكلام .. هلمّ بنا الى الأقيية ، فالبرودة لا
تؤثر في .. فامونتيلا دو لعب لعبته .. اما لوكريسي فلا يستطيع
التمييز بين شري وامونتيلا دو .

قال فورتوناتو ذلك واستند الى ذراعي ، واسدل قناعاً من الحرير
الاسود على عينيه ، وذهبنا معاً الى قصري ، الذي كان خالياً من
ساكنيه وقتئذ ، اذ خرجوا كلهم ليلهم في المرافع ، وقد اخبرتهم
بانني لن اعود الى القصر قبل طلوع الفجر ، واصدرت لهم اوامر
صارمة بالان يغادروه ، لكنني كنت على يقين بانني ما كدت ادير لهم
ظهري حتى فروا منه دفعة واحدة .

وتناولت من على جدار القصر مشعلين حملت احدهما ، واعطيت
الثاني لفورتوناتو ، وسرنا في غرف القصر ودهاليزه ، ثم اجتزنا قنطرة ،
وانحدرنا على درج دولابي الشكل .. الى ان بلغنا الاقبية المؤدية الى
سراديب مونتريزورس .

وحلّ القلق محل المرح في نفس صديقي ، وكانت الاجراس ترن
على رأسه كلما خطا وتحرك ، وقال : اجل الغليون !..

قلت : علينا ان نتوغل اكثر .. ولكن الا ترى هذا النسيج
الأبيض اللون الذي يشع على جدران الاقبية ؟..

فالتفت نحوي ورمقني بعينين تقطران بزكام الحمرة ، وقال : أهو ملح
البارود ؟..

قلت : اجل ، هو ملح البارود .. ومذمتي أصبت بالزكام ..؟
وراح صديقي المسكين يسعل سعالاً متواصلًا ، واجاب : هو
زكام بسيط ، لا يستحق الذكر .

فقلت له مجزم ، علينا ان نعود الآن من حيث اتينا ، وليس من
موجب لتعريض صحتك للاخطار .. فانت رجل ثري ومحترم ومحبوب ،
كما انك رجل سعيد ، مثلي انا في وقت مضى .. وفي فقدانك خسارة
ولا ريب ، اما انا فلا شأن لي .. فلنعد ادراجنا والا فستقع طريح
الفراش ، ولا اود ان اتحمل اية مسؤولية بصددك .. يضاف الى
ذلك ان لو كررسي ...

فقال : كفى .. لاخير عليّ من الزكام .. وثق بانني لن اموت

بسببه .

فاجبته ان ما تقوله هو الحق وانني لا اقصد التهويل عليك بلا مبرر ،
ولكن الاحتاط للأمر ؟.. فالقليل من هذا المشروب سيدراً عنا

وجذبت زجاجة من الخمر المعتقد من احد رفوف القبو وحطمت عنقها ، وقدمتها له قائلاً ، اشرب !...

قال : اشرب نخب المدفونين في هذا القبو !..

قلت : ونخب حياتك المديدة .

وتأبط ذراعي ثانية وتابعنا المسير في السرداب .

ثم قال لي : هذا السرداب كثير الاتساع !..

قلت : ان اسرة مونريزورس كانت كثيرة العدد .

قال : انني نسيت شعار اسلحتكم الغابرة ؟...

قلت : انه يمثل قدماً بشرية ذهبية في حقل لازوردي ، تطأ ثعباناً

قد انشب انيابه في كعب القدم !..

قال : شيء جميل .

وتأملت الخمرة في عينيه ، ورثت الأجراس على رأسه .. اما انا فقد

عمل النبيذ على مضاعفة تخيالاتي .. واجتزنا عبر جدران طويلة اجتشدت

عليها الهياكل البشرية التي تحمل الخوذ والنقوش ، وتوقفت عن المسير

قليلاً ، وامسكت بذراع فورتوناتو ، وقلت الا ترى ان ملح البارود

يزداد كلما اوغلنا المسير في السرداب .. انه يتدلى فيه مثل الطحلب ..

ونحن الآن تحت مجرى النهر قاماً .. وها هو الندى يتقطر على العظام

هنا وهناك .. فهبّا بنا نعود الآن من حيث اتينا ، فقد طال مكوثنا

في السرداب ثم ان زكامك .

قال : لا تغير زكامي اهتماماً ، فلنتابع المسير ، وعليّ ان اتجرع

القليل من النبيذ مجدداً .

فجذبت زجاجة اخرى من النبيذ المعتقد المعروف بـ « دي غراف »

وقدمتها له فأفرغها في جوفه دفعة واحدة ، وقدحت عيناه شرراً ، ثم
أخذ يقهقهه ، والقي بالزجاجة الفارغة بعيداً ، بحركة لم افقه لها معنى .
فتطلعت اليه دهشاً .. وكرّر الحركة بطريقة اخشن من سابقتها
وقال : الا تفهم ما اعني ؟ ..

قلت : كلا .

قال : انت إذن لست من الأخوية ؟ ..

قلت : لا افقه ما تعنيه .

قال : انت لست ماسونياً ؟ ..

قلت : اجل .. اجل ! ..

قال : يستحيل ان تكون ماسونياً .

قلت : ولكنني ما سوني .

قال : وما هي الاشارة ؟ ..

قلت : ها هي ... وظهرت له ملعقة البنائين .

قال : انت تماجن .. وعلمنا ان نتابع المسير الى امونتيلا دو .

فقلت له وانا اعيد الملعقة الى معطفي : ولكن هذا هو الواقع ...

واسندته الى ذراعي ثانية ، وواصلنا البحث عن امونتيلا دو ، فمررنا
من تحت اقواس واطئة وهبطنا ادراجاً عديدة ، واجتزنا ممرات
مختلفة ، حتى وصلنا الى ناووس بعيد الغور ، قد فسد فيه الهواء بحيث
صار مشعلانا يتألقان ولا لهيب لهما .

وقد ظهر في قاع الناووس متسع آخر ، وكانت العظام البشرية
مكدسة فيه تكديساً على نحو ما كانت عليه سراديب باريس .. ثم
استوعى انتباهنا ان في هذا الناووس البعيد الغور ، هوة ثالثة عمقها
حوالي اربعة اقدام وعرضها ثلاثة اقدام ، وعلوها يتراوح بين ستة

او سبعة اقدام ، وهي لا تخلو من رفات الانسان .. وحاول فورتوناتو
اضاءة الناوس العميق بمشعله ، وانا ارقبه باهتمام زائد ، ثم قلت له :
ها هنا يرقد امونتيلا دو !.. اما لو كريسبي ...

فقاطعني صديقي قائلاً : انه رجل جاهل !..

وهبط فورتوناتو في الناوس العميق ، وهبطت في أثره الى ان
اعترضته صخرة من الصوان ، وعليها وتدان من الحديد الحام ، تصلهما
ببعضهما سلسلة حديدية متينة ، وقد اثبت الى احد طرفيها قفل ثقيل ..
فجذبت صديقي الثمل وقيدته بهذه السلسلة ، ثم طوقته بها ، وادخلت
القفل في الوتد واطبقته .. وصعدت الى حافة الناوس .

وقلت لفورتوناتو من عل : امرر يدك على جدران الناوس فلن
تجد للملح البارود اثرأ ... حقاً ان الرطوبة فيه شديدة .. وعلى كل
اتوسل اليك ان تعود !.. كلا ، كلا .. عليّ ان اتركك في هذا المكان ،
بعد ان اعيرك ما تستحقه من عناية .

فصرخ صديقي الذي لم يعد الى وعيه بعد قائلاً : وامونتيلا دو ؟ ..
فأجبت : اجل ، وامونتيلا دو ..

قلت ذلك وتطلعت حولي فوجدت حجارة قديمة ، وجرنأ ، وعظاماً
بشرية ، وعكفت على العمل بمساعدة ملعقة البنائين التي احملها واخذت
اقيم جداراً على مدخل الناوس ، فلما انتهيت من بناء الصف الأول
سمعت نوحاً صادراً من الاعماق ، لا يصدر عن رجل ثمل .. ثم اعقبه
سكون طويل ، فاقمت الصف الثاني من الحجارة والحقته بالصف الثالث
والرابع .. وسمعت صلصلة السلاسل واستمرت هذه الصلصلة عنيفة
بعضاً من الوقت ، وكنت اصغي اليها وتغمرني نشوة من الرضا ،
واقمت الصف الخامس ، والسادس ، والسابع حتى صارت الفوهة

في علو صدري ، وتوقفت قليلاً ورفعت المشعل فوق البناء والقيمت
شعاعاً ضئيلاً على الشخص الجاثم على الصخرة في اسفل الهوة .. فأرسل
فورتوناتو زفرة حادة دفعتني عن الفوهة بعيداً ، فوقفت حائراً مرتعشاً ،
ثم عدت الى حافة الفوهة واخذت ارد على صرخات صديقي ، واكررها
المرّة تلو المرّة وهو في صمت مطبق .

وانتصف الليل ، وصرت على وشك الانتهاء من العمل ، فوضعت
الصف الثامن ، والتاسع والعاشر ، ولم يبق علي الا ان اضع الصف
الحادي عشر والأخير ، واغلاقه بججر واحد كبير وتجسيصه ، ليكون
بمثابة غطاء الفوهة النهائي .

وما كدت اضع الحجر على الفوهة حتى سمعت قهقهة صادرة عن
الحفرة انتصب لها شعر رأسي ، واعقبها صوت حزين عرفت فيه على
الفور صوت فورتوناتو النبيل .. وقال الصوت : ها ، ها ، ها .. هي ،
هي ، هي ، حقاً انها لممازحة طيبة ، انها طرفة الطرف ، وسنضحك
لها كثيراً في القصر .

فقلت له : وامونتيلا دو ؟ ..

قال : هه هه هه ... وامونتيلا دو ، ولكن ألم نتأخر عنهم ..
الا تنتظرنا السيدة فورتوناتو والاصدقاء في القصر ؟ .. هلم بنا يا عزيزي
لنعود .

فقلت له : اجل ، هلم بنا ..

قال : ناشدتك حب الاله .. يا مونتريزور ! ..

قلت : اجل ، ناشدتك حب الاله .

وكفّ صديقي عن الكلام ، فناديته عالياً : فورتوناتو .. فورتوناتو ..

فلم يجر جواباً .. ثم ادخلت الشعلة في الفوهة ، وكان الرد رنين
اجراس لا غير ، فاعتم قلبي من شدة رطوبة السرداب ، واسرعت
لانتهاء العمل ، فوضعت الحجر الأخير على الفوهة وجصصته ... وهكذا
اقمت بناء حديشاً مقابل سور من العظام البشرية التي لم يقلق راحتها
مخلوق منذ قرن على وجه التقريب .

حقائق في حادثة فالديمار

ليس من المستغرب ان تثير حادثة فالديمار الكثير من النقاش .. بل المستغرب الاّ تثيره ، وخاصة في ظروف كالتى اكتنفتها .. ولما كان الفرقاء الذين يعينهم الامر يرغبون في ابقاء الحادثة ، طيّ الكتمان ، حتى لا تعرقل اعمال التجربة ، فقد تسربت الى الجمهور بعض الشائعات المبالغ فيها ، وغدت مصدراً لكثير من الشكوك والتأويلات المغلوطة .

ولزاماً عليّ الآن ان اسرد حقائق هذه الحادثة كما ادر كتها بذاتي ، وهي بالايجاز كما يلي : لقد انصرفت خلال السنوات الثلاث الأخيرة الى ممارسة التنويم المغنطيسي ، وقد تبين لي بعد سلسلة من التجارب التي اجريتها ، ان في هذا الفن نقصاً جلياً ، فهو لم يحاول ابداً تنويم شخص وهو في « حالة النزع » ، وهكذا عمدت منذ تسعة اشهر على وجه التقريب الى تحديد ثلاث نقاط في التنويم المغنطيسي الخاص بالمرضى ، وهي : اولاً ، هل يرتاب المريض في الأثر المغنطيسي .. ثانياً : هل يجلب له الضرر او يزيد مرضه .. ثالثاً : الى اي مدى يستطيع التنويم المغنطيسي ان يبعد عن المريض شبح الموت ؟ .. وهناك نقاط أخرى اثارت اهتمامي ، لكن هذه النقاط الثلاث رئيسية في نظري ، واهص

الثالثة منها باهتامي الزائد لما يترتب عليها من نتائج ذات بال .

وبحثت عن شخص أخص فيه هذه النقاط الثلاث ، فلم أجد سوى صديقي « فالديمار » الاخصائي المعروف في جمع النبذ من « مكتبة فورينسيكا » ، ومؤلف كتاب « اقوال والنستين وغارغانتوا البولونية » ، (واسمه الأدبي المستعار ايزاخار ماركس) ، وفالديمار هذا يقيم في ضاحية هارلم بنيويورك منذ سنة ١٨٣٩ ، وهو شخص هزيل ، يشبه في نصفه السفلي جوت راندولف ، ولحيته شعر يتناقض في سواده مع شعر رأسه حتى ليظنه الناس شعراً مستعاراً ، وصديقي هذا شخص عصبي المزاج ، الامر الذي يجعله مادة طيبة لاختبارات التنويم المغناطيسي .. ولم أجد اية صعوبة تذكر في تنويمه مرتين او ثلاث مرّات ، لكنني اخفقت في النتائج ، واعزو السبب في ذلك الى مزاجه الخاص ، فهو غير ايجابي ، ولم يكن لينقاد الى ارادتي كلياً ، او لعل السبب في هذا الاخفاق يرجع الى حالته الصحية ، اذ ان اطباءه وجدوه مصاباً بداء السل .. وكان اذا ما تحدث عن انحلاله تحدث بصوت هادي ، وكأنه لا يهمه تجنب المصير الذي ينتظره او لا يأسف له قطعاً .

فلمّا جالت في رأسي تلك الملاحظة الثالثة الخاصة بمجالات التنويم المغناطيسي ، فكّرت على الفور بهذا الشخص الذي اصبح على ابواب الابدية .. وانني ادري بالفلسفة التي يدين بها ، فهو لا يخفي عني تدمراته ووسوساته ، اذ لا اقارب له في اميركا ليتدخلوا في شؤونهم الخاصة .. فحدثته صراحه في الموضوع ، وما كان اشد عجباً حين رأته يقابل فكريتي بالحماسة والترحاب ، اقول دهشت لمسلكه هذا لأنه كان على الدوام سلمي الموقف ازاء اختباراتي فيه .. ومن صفات مرضه

البارزة ان بالأستطاعة تحديد اليوم الذي تنتهي فيه حياته، فتمّ الاتفاق فيما بيننا على ان يبعث لي برسالة قبل وفاته بأربع وعشرين ساعة .
وها هي سبعة اشهر تنقضي على استلامي منه الرسالة التالية :

عزيزي ب ...

بوسعك ان تأتي اليّ الآن.. فالطبيبان « د » و « ف » قد اكّدا لي انني لن اعيش حتى منتصف ليلة الغد، ويلوح لي انهما قد بكّرا في تحديد هذه النهاية ...

« فالديار » .

تلقيت هذه الرسالة بعد نصف ساعة من تحريرها ، وما انقضت خمس عشرة دقيقة أخرى حتى كنت في غرفة الرجل الذي يودع الدنيا..
ويا لهول التغير الذي طرأ عليه خلال عشرة ايام لم اره فيها .. فوجهه رصاصي اللون ، وعينه متألقتان ، وجسمه هزيل ، وجلد وجهه يتهدل على عظام وجنتيه ، وهو يبصق البلغم الدامي بافراط ، ونبضه خافت جداً، غير انه كان محافظاً على قوته الفكرية وعلى بعض قواه الجسدية..
ويتحدث بجلاء ، ويتناول الأدوية المملقة دون معونة احد ، وحين دخلت عليه وجدته يستند الى الوسادة وهو يدون بعض مذكراته ، والطبيبان « د » و « ف » يجلسان الى جانب سريره .

فصافحته ثم انتحيت بالطيبين جانباً ، واستفسرت منهما عن حالة المريض فافاداني ان رثته اليسرى كانت منذ ثمانية عشر شهراً شبه جافة، كثيرة الغضاريف ، وغير صالحة لنفخ الحياة ، اما الرثة اليمنى فكانت نصفها الاعلى جافاً ومغضراً جزئياً او كلياً.. وكان نصفها السفلي عبارة عن مجموعة من البثور المقيحة الكثيرة الثقوب ، وقد انتقل العطب الى

بعض الاضلاع المجاورة لهذه الرئة .. وكان المريض يشكو من «النورسما» اي ورم الأوعية الدموية بالاضافه الى داء السل .. وفي رأي الطبيين ان فالديمار سيموت في منتصف الليلة القادمة (الاحد) .. وقد جرت مداولتنا هذه في الساعة السابعة من مساء السبت .

وودع الطبيبان المريض الوداع النهائي ، ولم يكن بודהما ان يعودا مرة أخرى لكنني رجوتهما ان يزورا فالديمار في الساعة العاشرة من ليل الاحد ، اي ليلة موته ، فقبلا هذا الرجاء .

فلما غادرا البيت رحت احدث فالديمار في موضوع انحلاله القريب واطلعت على فكري المتعلقة بالتجربة المغنطيسية ، فابدى ارتياحاً عظيماً والى عليّ بالشروع بها على الفور .. ، وكان في غرفة المريض وقتئذ ممرض وممرضة لكنني لم اكتف بوجودهما كشاهدين في عملية ربما تؤدي الى حادث عارضي فجائي ، فارجأتهما الى الساعة الثامنة من الليلة الآتية ، وهو موعد حضور مستر تيودور .. احد معارفي من تلاميذ المدرسة الطبية .. ولو انني كنت قد صممت في بادئ الامر على القيام بالعملية بحضور الطبيين ، لكن حالة فالديمار الخطيرة اقتضت اغتنام الوقت والاسراع في العمل .

وتلطف مستر تيودور ، ولبيّ رجائي بتدوين كل ما يراه من ملاحظات ، كانت مرجعي فيما بعد ، في سرد حادثة فالديمار .

ففي الساعة الثامنة الا خمس دقائق ، اخذت يد المريض بين يدي وسألته ان يقول امام مستر تيودور صراحة ، اذا كان يمانع في اجراء اختبار التنويم المغنطيسي عليه وهو في هذه الحالة من الانحلال .

فاجاب بصوت يكاد يكون همساً : « اجل ، انني ارغب في تنويمي » ، ثم اضاف على الفور ، « واخشى ان تكون قد تأخرت في ذلك ! .. »

وبدأت الشعبذة فوجدته ليناً مطواعاً ، وقد تأثر بي منذ ان مررت
بيدي على جبينه ، وتوقفت عن تنويمه بضع دقائق الى ان جاء الطبيبان
« د » و « ف » في الموعد المقرر واطلعتهما ، بكلمات معدودات ، ما
عقدت النية عليه ، فلم يبدى اية معارضة في ذلك قائلين ان الرجل يموت
على كل حال ، فتابعتم عملي بلا تردد ممرأ يدي على وجهه ، ومسدداً
نظري الى حدقة عينه اليمنى .

وكان نبضه في هذه الآونة بطيئاً جداً ، وتنفسه ثقيلاً ، يتقطع
احياناً مدة نصف دقيقة .. وبعد ربع ساعة ارسل المريض زفرة من
اعماق صدره ، وتوقف التنفس الثقيل المنقطع عن عمله ، او على الاصح
لقد تضاءل كثيراً ، وفي النهاية توترت اطراف الرجل وتجمدت تماماً .

وفي الساعة الحادية عشرة الا خمس دقائق بدت على فالديمار علائم
التنويم المطلق ، وقد اصبحت عيناه تعرباب عن قلق داخلي لا يظهر
عادة الا في نيام اليقظة .. وبعد ان قمت بشعبذة جانبية سريعة أخذت
جفونه ترتجف ، كمن يشرع في النوم ، ثم اغمضتهما ثانية .. ولم اكن
راضياً عن هذه النتيجة ، فمددت ساقى الهاجع ويديه ورفعت رأسه قليلاً ،
وتابعتم الشعبذة بقوة الى ان اخمدت اطرافه كلية .

وما ان انتهيت من هذا العمل حتى بلغ الليل منتصفه ، وسألت
الحضور ان يفحصوا فالديمار ، ففحصوه وتبين لهم انه في حالة الخطاف
الروح السكاملة ، وكانت دهشة الطبيبين عظيمة جداً .. وقد قررنا كلنا
اي الطبيب « د » ، وانا ، ومسترتيودور ، والممرض ، والممرضة ،
البقاء الى جانب المريض الليل كله ، اما الطبيب « ف » فقد استأذننا
بالذهاب على ان يعود في مطلع الفجر .

وتركنا فالديمار منوماً حتى الساعة الثالثة صباحاً ، حين اقتربت

منه ووجدته في الوضع ذاته الذي كان عليه حين ودَّعه الطبيبان ، اي انه كان على رقدته الأولى ، ونبضه خفيف جداً ، ونفسه خافت كذلك ، ولا يمكن التأكد منه الا بتقريب المرأة من شفّتيه ، وعيناه مغمضتان بشكل طبيعي ، واطرافه متوترة ومتجمدة مثل قطع المرمر .. وخلاصة القول ان مظهره العام ينفي حدوث الموت .

واقتربت من فالديمار .. وشعبنت بيد فوق ذراعه الأيمن لأحرّكه ، وشعبنت باليد الاخرى على جسمه كافة .. فدهشت اذ رأيت يده تتبع يدي فعلاً ، وهو السليبي المزاج ، ثم اعتزمت مخاطبته قليلاً فسألته : أنت نائم يا فالديمار ؟ .. فلم يجبني على سؤالي ، لكنني لمحت رجفة على شفّتيه ، فكررت السؤال ثانية وثالثة فارتعش جسمه كله ارتعاشاً خفيفاً وفتح عينيه على قدر خط ضيق ، وتمتم قائلاً : انني نائم الآن .. لا توقظني .. دعني اموت على هذا النحو !..

تحسست اطرافه فوجدتها متوترة كالسابق ، وكانت ذراعه لا يفتأ يتبع حركات يدي ، ثم القيت عليه هذا السؤال : ألا تزال تشعر بألم في صدرك يا فالديمار ؟

فاجاب على الفور : لا اشعر بأي ألم ... انني اموت .

وتوقفت عن طرح اي سؤال عليه ، او القيام بآية شعبذة ، الى ان حضر الطبيب « ف » ، قبل شروق الشمس بقليل ، فذهل لرؤيته المريض لا يزال على قيد الحياة ، فجنّ نبضه وقرب المرأة من شفّتيه ، وسألني ان اخاطب النائم المستيقظ ثانية ، فسألته الا تزال نائماً يا فالديمار ؟..

وانقضت دقائق معدودات قبل ان يجير جواباً ، وكأنه استجمع خلالها قواه على النطق ، وحين طرحت عليه السؤال للمرة الرابعة اجاب

بصوت خافت جداً : اجل ، لا ازال نائماً .. انني اموت !..

وارتأى الطبيب ان يظل المريض على حالته هذه من الهدوء ، الى ان يلفظ نفسه بعد قليل من الوقت .. وتحدثت اليه مرة أخرى ، وكان يردد الاجوبة ذاتها دون زيادة .

وبينما كنت اخاطبه لحظت تغيراً طرأ على ملامحه .. فقد فتح عينيه ببطء ، واختفى البؤبؤ ان الى اعلى ، اما جلده فاتسم بلون الجثث ، وتلاشت البقع السائبة التي كانت مكرزة على خديه ، قد فسرت تلاشيها هذا الى انطفاء شعلة الحياة فيه .. ثم لحظت في الوقت نفسه ان شفته العليا راحت تتقلص عن اسنانه ، بينما الشفة السفلى ترتخي بهزة واضحة ، وينفتح فمه واسعاً فيكشف عن لسانه المنكمش المسود .. وكان هذا المنظر المروع كافياً لجعل الحضور يتراجعون الى الخلف مذعورين .

لقد بلغت الآن نقطة من الرواية تجعل القارئ يشك في صحتها .. غير ان مهمتي تدعوني الى الاستمرار في سرد ما بكل ما تنسم به من بساطة .

لم تبد على فالديمار اية علامة تدل على الحياة فاعتبرناه ميتاً ، واوكلنا امره الى الممرض والممرضة ، لكننا لحظنا على حين غره ، ان لسانه يتحرك ، ثم اطلق من بين فكليه صوتاً مروعاً له ثلاثة نعوت ، الحشونة والتهديج ، والعمق .. انه صوت عجيب غير زميني ، يبلغ مسامعنا او مسمعي انا وكأنه آت من مسافة بعيدة او من كهف بعيد الغور .. ثم خيل اليّ وكأن هذا الصوت هلامي الملمس دابقاً !..

وعدت وسألته : أأنت نائم يا فالديمار ؟ ..

فتململ واجاب بكل جلاء : اجل .. كلا .. كنت نائماً .. واما الآن فأنا ميت !..

ولا تسلم عن الرعب الذي حلّ بالحضور ، فالطالب تيودور أغمي عليه ، والممرض والممرضة غادرا الغرفة على الفور ، اما انطباعاتي انا فلا استطيع الاعراب عنها ، وانقضت ساعة من الزمن عملنا خلالها على ايقاظ الطالب تيودور من اغمائه .. وعدنا لنحقق في وضع فالديمار مجدداً .

كان فالديمار على الحالة التي وصفتها آنفاً ، غير ان نفسه قد انقطع تماماً ولم يترك اي اثر على المرأة .. وحاولنا فصد ذراعه فاختفنا كما اخفقت في جعل هذه الذراع تتحرك بالشعبذة ... والظاهرة الوحيدة التي تبرهن على ان فالديمار لا يزال منوماً هي ان لسانه يهتز عند كل سؤال اطرحه عليه .. ويلوح لي انه يبذل جهده للاجابة على اسئلي غير ان ارادته تخونه .. ثم اجريت تجربة لجعل الحضور يتصلون بالميت المنوم عن طريق تنويمهم انفسهم ، لكن هذه التجربة آلت الى الاخفاق .. وفي الساعة العاشرة صباحاً غادرت البيت برفقة الطبيبين والطالب تيودور ، وسألت الممرض والممرضة الا يفارقا فالديمار لحظة واحدة .

وعُدنا الرجل المنوم بعد ظهر ذلك اليوم ، فوجدناه كما تركناه ، وتناقشنا في امر ايقاظه عن طريق الشعبذة لكننا لم نجد في ذلك اية فائدة ، فالشاهد في الأمر ان التنويم المغنطيسي قد اوقف الموت ، او ما يطلقون عليه اسم « الموت » وثبت لنا تماماً ان ايقاظ فالديمار يعني في الواقع انحلاله النهائي انحلالاً سريعاً .

وظل فالديمار الميت المنوم على حالته هذه مدة سبعة اشهر ، ونحن نعوده يومياً برفقة اصدقائنا من اهل الطب وغيرهم والممرض والممرضة لا يفارقانه ابداً .

وعقدنا النية يوم الجمعة الماضية على اجراء تجربة لايقاظ فالديمار ،

وكان لهذه التجربة ان احدث ضجة عنيفة في الاوساط الشعبية واثارت نقاشاً هامياً في الاوساط العلمية .

فاقتربت من سرير الميت المنوم وشعبدت عليه واذا بالبؤبؤين يبرزان قليلاً وتخرج من بين جفونه مادة صفراء لها رائحة كريهة قوية .

وحاولت الشعبذة على ذراعه الأيمن ، لكنه لم يستجب لارادتي ، فسألني الدكتور « ف » ان اطرح عليه سؤالاً فقلت له : أنتستطيع يا فالديمار ان تحدثنا عن شعورك ورغائبك الآن ..!

فعادت البقع السُّبَّية على وجنتيه حالاً ، وارتعش لسانه ودار في فمه بقوة ، ولفظ هذه الكلمات : ناشدتك الله .. اسرع .. اسرع .. دعني انام .. او ايقظني على عجل .. انني اموت ..!

وبذلت مجهوداً عظيماً لايقاظه لكنني لم افلح ، وكان يردد كلمة « الموت » بلسانه لا بشفتيه ، ثم حدث ما لم نتوقعه جميعاً ، نتيجة لشعبدتي ودعوتي اليه لان يستيقظ ، فقد تحول الميت المنوم وهو على سريريه الى كتلة من العفونة الممزوجة بالسوائل النتنة الكريهة الرائحة ..!

الحفرة ورقاص الساعة

كنت طريح الفراش ، اغالغ سكرات الموت ، ولما حلوا اربطني
رأيت نفسي قادراً على الجلوس ، وشعرت ان احاسيسي تودعني الى
الأبد .. اما الكلمات المفزعة التي نطقوا بها ووعيتها جيداً ، فهي الموت
او الحكم بالموت .. ثم غرقت اصواتهم في دوي متعاقب حالم ، اوحى
اليّ بان فكرة الانقلاب مشتركة بالوهم مع الضجيج الذي تحدته رحي
الطاحون .. ثم ساد السكون ولم اسمع شيئاً .. ورأيت القضاة في
ارديتهم السود ، وشفاهم الرقاق ابيض من الورق الذي اخط عليه
هذه الكلمات ، لكنّها توحى بالعزم والبأس ، وهي تتمم في تقرير
مصري ، وتنطق باسمي مقطعاً مقطعاً ..

ورأيت ويا لرعي الأقمشة السود تحقق على جدران الغرفة .. كما
رأيت سبع شمعات تشع على الطاولة ، فلاح لي كأنها ملائكة الرحمة
تسعى الى خلاصي .

ثم احسست روعي بغثيان ممت ، واصابتني رعشة عنيفة كمن مسّه
سلك كهربى ، واستحالت اشكال الملائكة الى اطياف رقيقة وعلى
هاماتها شعلات متقدة ، فقطعت الأمل من معونتها تماماً ، وبدأت

تراودني احلام بصدد حياة القبر هي اعذب من الحان الموسيقى ، ثم
تلاشت شخوص القضاة ، وانطفأت الشموع واضمحلت ، وساد الغرفة
ظلام دامس .. وراحت احاسيسي تنحدر مسرعة الى اعماق الجحيم .
وكان سكون ، وجمود ، وليل شامل بهم .

وانغمي عليّ لكنني لم افقد شعوري كلية .. لا ادري ماهية الحالة
التي كنت فيها ، ليست هجوعاً ، ولا هذياناً ، ولا غشياناً ، ولا هلاكاً ..
فالموت لا يعني اننا فقدنا كل شيء ، والا لما خلد الانسان ... واذا ما
استيقظنا من نوم عميق فاننا نخترق شبكة احلامنا ولا نذكر ما كنا
نحلم به ... فبنهوضنا من النوم الى اليقظة نجتاز مرحلتين : الاولى ، اننا
نستعيد ادراكنا وروحنا ، والثانية اننا نستعيد وجودنا الحسي ...
ويغلب على ظني اننا عندما نبلغ المرحلة الثانية نستدعي الانطباعات
التي احداثتها المرحلة الاولى ، وعلينا ان نجدها بليغة في خليج
الذكريات ... وما هو خليج الذكريات هذا ؟ .. وكيف نميز بين
ظلاله وظلال القبر ؟ .. واذا ما ابت انطباعات المرحلة الاولى ثلبيّة
الدعوة حين نرغب بها أفلا تأتينا بعد فترة طويلة من الزمن غير مدعوة
ونجذب بقدمهم ؟ .. فالمرء الذي لا عهد له بمجالات الانغماء لا يرى
القصور العجيبة ، ولا يلمح الوجوه الضارية المتقلبة في السعير .. ولا
ينفذ ببصره الى الرؤى الخزينة الخائئة في الجو .. ولا يشم عبير زهور
فريدة في نوعها .. ولا تبلغ مسامعة الحان عذبة من الموسيقى لا عهد
له بها ابداً .

كنت اجهد نفسي لأتذكر .. كنت اناضل بشدة لأجمع بعض
القرائن عن حالة العدم التي طوحت روحي في غياهبها ، وكانت هناك
اويقات حلت فيها بالتوفيق في هذا المضمار ، اويقات قصيرة جداً

استدعيت فيها ذكريات حالات فقدان الشعور.. وحدثني اطياف
الذكريات هذه عن شخص مديدة القامة حملتني واجتذبتني الى
الاعماق.. الاعماق البعيدة التي لا نهاية لها حتى أصبت بدوار مروع..
وحدثتني عن الرعب الذي حلّ بقلبي حين مسّه ذلك الجمود غير
الطبيعي.. ثم احسست بسكون مطلق كأن الشخص الذي تحماني قد
اخترقت حدود اللانهاية ، وتوقفت لتشكو السأم من هذا العمل الذي
تقوم به.. وكان هناك استواء ورطوبة.. انه جنون، جنون الذكريات
التي تتعثر بين الاشياء المحرمة .

ثم عادت الحياة الى نفسي فجأة ، واخذ قلبي ينبض مضطرباً ،
وكانت اذناي تردد صداه.. وتوقفت الحياة ثانية ، ثم عادت وكلها
طنين.. وكانت شعوراً بلا ادراك ، ثم جاء الادراك وبصحبه الروع
والفزع ، وتماكنتني رغبة ملحة لافقه الوضع الحقيقي لكياني، ثم تشوقت
للقفز في عالم اللاشعور ، واحسست بجنوح الى النشاط والحركة...
والآن اجدني اذكر جيداً تلك المحاكاة والقضاة ، والاقمشة السود ،
والحكم الذي صدر بحقي ، والمرض ، والانغماء... ثم نسيت كل شيء
وقع بعد ذلك .

احسست وانا مغمض العينين انني مستلق على ظهري، فاطلقت يدي
واذا بها تقع على شيء رطب قاس ، ورحت افكر في المكان الذي
حلت به ، وفي الوضع الذي آليت اليه .. وكنت ارغب في فتح
عيني والتطلع الى ما حولي دون ان اجرؤ على ذلك .. ثم تجرأت
والقيت نظرة هنا وهناك فلم ار ما يرعبني ، بل لم ار شيئاً بالمرّة ،
فاستولى عليّ يأس ضار واغمضت عيني ثانية ، وكانت ظلمة الليل
السرمدى تضغط عليّ وتقهربي وانا اجاهد لأتنفس ، والجو من حولي

يشدد علي الخنـاق ، وظلت راقداً في سكون ، وانا احاول جهد المستطاع تحكيم عقلي في حالي هذه ، فعدت بالذاكرة الى ساعة التحقيق ، ثم كان الحكم ، وانقضت فترة طويلة دون ان اعتبر نفسي ميتاً .. فافتراض كهذا ، لا يتفق مع الحقيقة والواقع ، بالرغم مما نطالعـه في الروايات من صور شبيهة ... ولكن ما هذه الحالة التي كنت اعانيها ؟.. فالذي اعلمه ان المحكوم عليه بالموت يهلك عادة عند تنفيذ الحكم به ، ولقد شاهدت تنفيذ حكم الاعدام في احد الناس في الليلة التي عُنُدت فيها محاكمتي بالذات .. فهل اعدت الى قبوي لاشهد تنفيذ حكم الموت بشخص آخر بعد شهور عديدة ؟.. هذا ما ارتاب فيه لان الآلة تتطلب المزيد من الضحايا ، زد على ذلك ان ارض قبوي صلبة ، مثل صومعات جميع المحكوم عليهم بالموت في سجن توليدو ، والنور فيه ضئيل .

واستولت عليّ فجأة فكرة مروعة ، جعلت الدم يتدفق في قلبي تدفقاً ، وغابت عن الوعي الى حين .. ولما افقت من اغمائي نهضت على قدمي المرتعشتين ، ودفعت ذراعي بانفعال ، وصرت احركهما في كل اتجاه ، فلم المس شيئاً ، لكنني لم اجرؤ على نقل قدمي خطوة واحدة كيلا ارتطم بجدران القبو، فتصبب العرق مني غزيراً، وعذبتني الحيرة، فخطوت الى الامام حذراً ، ناشرأ ذراعي يمنة ويسرة، وعيناي جاحظتان تبجثمان عن بصيص من القبس الضئيل . وسرت بضع خطوات في ظلمة حالكة ، وفراغ مديد ... وتنفست الصعداء اذ ايقنت انني لم التـق ذلك المصير المروع .

وتابعت السير حذراً وقد ازدحمت في مخيلتي الآن الشائعات الخاصة بالرعب السائد في سجن توليدو ، وهناك حكايات عجيبة تروي عن قبو

ذلك السجن ، وانني لاشعر بأشئواز في ترديدها الا همساً ... فهل
قدر لي ان اهلك من الجوع والبرد في هذا القبر المظلم او ان هناك
مصيبراً آخر اشد ضراوة ينتظرنني ؟ .. اما النتيجة الحتمية فهي الموت
الآليم .. انني على علم تام بصفات قضاتي .. وكل ما يشغل فكري هو
الحال الذي سأهلك فيه ، والساعة التي سيتم فيها هلاكي .

واخيراً لمست يداي الممدودتان شيئاً صلباً ، وكان هذا الشيء
جداراً حجرياً رطباً ناعم الملمس .. وسرت بمحاذاته حذراً كما اوحت
اليّ بذلك بعض القصص القديمة ، غير انني لم اؤكد من سعة القبر ،
فكنت ادور فيه واعدود الى النقطة التي انطلقت منها .. وتحسست
ثيابي فوجدتها قد ابدلت بأسمال من الصوف الحشن .. وبحث عن
السكين التي كنت احملها وانا في غرفة التحقيق فلم اجدها ، لانني
كنت اود ادخالها في شق الجدار لاتبين نقطة الانطلاق ~~مطلوب~~ . ثم عمدت
الى قطع جزء من كفاة ثوبي ، ووصلتها ببعضها في الطول وجعلتها
مقياساً لجدران السجن .. وسرت على هذا النحو على ارض رطبة زلقة ،
وتعثرت وسقطت اكثر من مرة ، ولم ابلغ غايتي بسبب ضعفي او
بسبب امتداد القبر ، وفي النهاية خارت قواي ، وارتمت على الارض ،
واستسلمت الى سلطان النوم .

ولما استيقظت اخذت اتمس ما حولي فوقعت يداي على رغيـف
وابريق فيه ماء ، فاكلت بنهم وشربت ، ثم نهضت وتابعت قياس القبر ،
و كنت قبل سقوطي قد قست اثنتين وخمسين خطوة ، ثم قست ثمانين
واربعين خطوة جديدة ، وخطوتين اخريين للفناء ، فكانت في مجموعها
مائة وخطوتين ، اي ما يعادل خمسين ياردة لدائرة القبر كلها .

لم استهدف امراً هاماً في هذا البحث ، وانما هو الفضول الذي

دفعني اليه .. فلما انتهيت من قياس دائرة القبو اعتزمت ان اعبره مباشرة ، وسرت بجذر شديد خشية الانزلاق على ارضه الصلدة .. وما ان تقدمت بضع خطوات حتي تعثرت قدماي باجزاء ككفافة ثوبي ، وانكفأت على وجهي بشدة .

وانقضت ثواني معدودات وانا مبجل الفكر من اثر السقوط ، قبل ان احظ شيئاً عجبياً .. كانت ذقني قد مست ارض القبو ، واما شفتاي والقسم الاعلى من رأسي فلم تمس شيئاً .. واما جيني فكان يستحم في بخار لزج ورائحة كما عفن تعبق في منخري .. فمددت ذراعي الى الامام ، فاصابني رعشة اذ وجدت نفسي على حافة حفرة لم ادرك مداها لاول وهلة .. وانتزعت قطعة من جص الحفرة والقيتها فيها ، وانقضت لحظات وانا استمع الى اهتزازات قطعة الجص قبل ان يرتد صداها وهي تسقط في الماء الآسن .. وسمعت في ذات الآونة وكأن باباً قد فتح فوق رأسي واغلق على عجل وقد تسرب منه شعاع وضاء وتلاشى فجأة .

وادركت على الفور ماهية الميته التي أعدت لي ، فهنأت نفسي على خلاصي من الهلاك في الوقت المناسب .. فلو خطوت خطوة أخرى لسقطت في الهوة ، واختفيت الى الابد .. فالميته التي تحاشيتها ذكرتني باساليب محاكم التفتيش وخوارقها .. فقد كانت تفرض على ضحاياها احدى ميتين ، اما الموت مع الالم الجسماني الشديد ، واما الموت مع الفزع المعنوي الهائل .. وكان علي ان اموت وفقاً للطريقة الثانية ، فانهارت اعصابي ، وصرت ارتعش من صدى صوتي، وتحولت الى مادة ملائمة للعذاب الذي ينتظرني .

وتقهقرت وانا ارتعد فرقاً ، وقد آثرت الهلاك عند الجدار بدلاً من ان اموت في غياهب البئر المروعة .. وقد خيل الي ان امثال هذه

الآبار كثيرة في القبو.. والحق يقال انني لو كنت في غير هذه الحالة المعنوية التي اعانيها لوجدت في نفسي الجرأة لان اقفز الى البئر، واضع حداً لبؤسي دفعة واحدة.. لكنني كنت اجبن من جبان.. يضاف الى ذلك انني لم انس ما طالعته عن حفر محاكم التفتيش، حيث الحياة لا تنطفئ فيها مرة واحدة.

وظللت مستيقظاً من شدة الانفعال الساعات الطوال، ثم غفوت، ثم استيقظت ثانية فوجدت الى جانبي رغيماً وبريقاً فيه ماء، فافرغت الماء في جوفي الملتهب، والنعاس يغالبني، ونمت كاليت، وانا لا ادري كم استغرق هذا النوم من وقت، ثم استيقظت للمرة الثالثة واذا بشعاع فوسفوري خفي المصدر، يضيء سيجني، ويبين شكله واتساعه.

واول ما انضح لي خطأي في قياس دائرة القبو، لقد كانت لا تريد على خمس وعشرين ياردة، والسبب في هذا الخطأ انني احصيت خمساً وعشرين ياردة وانا ادور حول جدران السيجن، ثم زلقت قدمي وغفوت، ولما صحوت عدت ادراجي من حيث اتيت واحصيت الذي احصيته مرة ثانية.

ولقد خدعت ايضاً بشكل السيجن فكأن مربعاً، ورأيت هناك زوايا عديدة تتخللها فجوات، اما جدرانها التي تصورتها حجارة فلم تكن سوى حديد، او نوع آخر من المعدن وعلى شكل صفائح ضخمة، فتراءى لي السيجن والحالة هذه مروعاً منفراً.. وكانت هناك شخوص الشياطين المخوفة، وهياكل الموتى، وغيرها من الهيئات المروعة، تفتش عند الجدران وحول الزوايا، جليلة الصورة، لكن الوانها باهتة كأن عليها غشاوة ناتجة عن الجو الرطب.. اما ارض القبو فكانت من الحجر، تتوسطها الحفرة المستديرة التي نجوت منها ولم يكن من

فكل ما رأيته كان غامضاً مبهماً .. وجدت نفسي مستلقياً على ظهري .. وقد قيدت بالسيور الى سرير خشبي ، وهي ملتفة حولي اكثر من مرة ، ولم ينطلق منها سوى رأسي ويدي ، حيث استطيع بعد اجهاد شديد تزويد نفسي بالطعام من صحن فيخاري كان الى جانبي ، لكن ويا لرعبي لم اجد ابريق الماء وانا اكاد اهلك من العطش ، ومعذبي قد تعمدوا ذلك لانهم قدموا لي لحماً مدهناً يستدر العطش .

وتطلعت الى سقف سيجني فكان علوه حوالى ثلاثين او اربعين قدماً ، ومادته معدنية مثل مادة الجدران ، واسترعت انتباهي احدي صفائح السقف بصورة خاصة فقد رُسم عليها الشخص الذي يمثل الزمن لكنه لم يمسك بيده المنجل وانما رقباص ساعة ضخمة ، فسددت نظري الى هذا الرقباص ، او الذي تراهي لي انه رقباص ، ورحت اتفحصه باهتمام زائد ، واذا بي اراه ، وهو فوقى مباشرة ، يتحرك جيئةً وذهاباً ، فداخلى الرعب الى ان سئمت من حركاته البطيئة المملة ، فحولت نظري عنه ، الى الاشياء الأخرى التي يتضمنها السجن .

وسمعت اصواتاً خافتة ، فاذا هي صادرة عن جردان عديدة تخرج من الحفرة في زمر ، وهي تسرع الخطى ، وفي عيونها بريق ، وقد اثارها رائحة اللحم المتصاعدة من الصحن .

وانقضت نصف ساعة او ساعة ، اذ لم يكن بوسعي تحديد الوقت قبل ان اتطلع الى السقف ثانية فرأيت ما يربكني ويذهلني ، رأيت هزة رقباص الساعة تشغل مساحة يارد في الهواء ، وان هذا الرقباص ، وطوله من القرن الى القرن قدم واحدة آخذ بالانحدار نحوى ، وقد انعطف طرفاه الى فوق على شكل هلال ، مصنوع من معدن براق ،

ومسنون كالسكين الثقيلة ، تقبض عليه يد من النحاس الثقيل ايضاً .
لم اعد ارتاب في نوع العذاب الذي اعدّه لي رجال محاكم التفتيش ،
فالحفرة هي المكان المخصص للهراطقة من امثالي ، هو نموذج لجهنم ، هو
« الحد الاقصى » لعقوبات محاكم التفتيش ... ولم انـسـج منه الاّ عن
طريق المصادفة لأن الهلاك في هذا القبر يرافقه عذاب نفسي مستمر ،
وتتخلله مباغآت ومفاجآت ، فعدم سقوطي في الحفرة يعني في الواقع
ان الشياطين قد اعدوا لي مية أخرى الطف من هذه المية ... قلت
الطف وانا ابتسم لاستعمالي هذه الكلمة بالرغم من حالة النزاع التي كنت
اعانيها .

واي عذاب افظع من تلك الساعات المميتة التي قضيتها وانا اعد
اهتزازات الرقاص المروع .. كنت اعدّها بوضة فبوضة ، خطأً فخطأً
وهي تنحدر الي شيئاً فشيئاً .. وانقضت الايام والرقاص يتأرجح فوق
وهو يرسل نفثاته المعدنية المروعة ، فتنفذ الى خياشيمي شرسه ضاربة ..
وكنت اتوسل الى السماء ان تسرع في انزال الرقاص عليّ ، ولقد مسني
عارض من الجنون فصرت اجهد نفسي لأرتفع نحو الرقاص ، او السيف
المعقوف ، واحتمك به .. واخيراً خارت قواي ، واستسلمت الى الدعة ،
وانا ابتسم لهذا الموت المتلألئ ، كما يبتسم الطفل لدمية جديدة تقدم له .

وعقب ذلك فترة من فقدان الشعور التام ولكنها فترة قصيرة ، ثم
تلتهـا العودة الى الوعي ، واول ما استرعى انتباهي ان الرقاص قد
توقف عن الانحدار .. واني لاغزو ذلك الى معذبي الذين رأوا وقوعي
في الغيبوبة فاوقفوا الرقاص القاتل الى حين .. اجل عدت الى وعيي ،
وكنت مريضاً خائر القوى .. ولما كان الانسان بطبيعته لا يتخلى عن
الطعام حتى في حالات النزاع ، فقد مددت ذراعي بقدر ما يسمح به

وثاقي واخذت ما ابقته لي الجرذان من طعام ، ولما وضعته بين شفتي
داخلي شعور من الفرح والأمل.. ولكن ما هو هذا الامل الذي
يعنيني ؟.. وسرعان ما تلاشى هذا الشعور وعبثاً حاولت استعادته..
فالآلام المتعاقبة قد افنت قواي العقلية ، وامسيت ابله معتوهاً .

وواصل الرقاص حر كته ، وقد كانت مصوباً الى قلبي مباشرة ،
وعليه ان يمزق لباسي الحشن ، ويروح ويجيء ليحز جسمي حزاً ، انه
يتمتع بقوة هائلة فلو اصاب جدران القبو الحديدية لشطرها شطراً .

وتدلى الرقاص اكثر فاكثر ، وكان يعتريني سرور جنوني وانا
اقارن انحداره بسرعته الجانبية.. وهو يتجه يمنة ويسرة، بُعداً واتساعاً،
وصرخاته الشيطانية تمزق قلبي ، وكأنها نمر يسترق خطاه ويتحفز
للأنقضاض على فريسته، وانا ارد عليه ضاحكاً حيناً ومعولاً حيناً آخر.

وتدلى الرقاص بتؤدة ويقين ، وكان يهتز على بعد ثلاث بوصات
من قلبي.. وجاهدت بشدة لاطلاق ذراعي الايسر ، فتمكنت من
تحريره من القيد من ناحية الكوع الى الكف ، فيما ليتني استطعت
اطلاق ذراعي كله لاوقف الرقاص عن التدلي ، ولكن هذه المحاولة
اشبه بمحاولة من يريد ايقاف كتلة الثلج المنهارة من جبل .

وتدلى الرقاص دونما ابطاء.. وكنت الهث محتضراً ازاء اهتزازاته،
وانكمش امام اندفاعاته ملتاعاً يائساً وبوددي لو يأتيني الموت مسعفاً
منقذاً.. وظللت ارتعش وانا ارى السكين تقترب من قلبي قليلاً فقليلاً،
لكنني لم افقد الأمل ، الأمل الذي يتروّد الى نفس المرء وهو على
دولاب تكسير اضلاع المجرمين ، الأمل الذي يمس في اذن المحكوم
عليه بالموت حتى ولو كان رهين سجن محاكم التفتيش .

وما هي الا عشر او اثنتا عشرة اهتزازة الا يكون الرقاص قد

مسّ ثوبي ، واستولى عليّ هدوء اليأس ، واخذت اعمل الفكر لأول مرة ووجدت نفسي مقيداً بقيد واحد .. وخيّل اليّ ان اول ضربة من الرقاص الحاد ستقطع وثاقي ولا تصيبني بمكروه ، ولكن اقتراب السكين مني روعني ، وان اية مقاومة ابدتها ستسرع في القضاء عليّ .. أحتمل ان يكون معذني قد اخذوا بعين الاعتبار صفائر الامور ايضاً؟ .. أحتمل ان يكونوا قد جعلوا وثاقي بعيداً عن طريق الرقاص ؟ .. فرفعت رأسي قليلاً لالقي نظرة على صدري ، فرأيت السيور تطوقني من كل جانب ، باستثناء الطريق الذي يمر منه الرقاص القاتل !..

وما ان اعدت رأسي الى حالته الاولى ، حتى راودتني فكرة الخلاص التي لمحتّها حين وضعت اللقمة بين شفقي المتهبتين ، فالفكرة هذه ضعيفة الاحتمال ، غير محدودة ، لكنها لا تزال قوية في مخيلتي ورحت اسعى الى تنفيذها بعصية يائسة .

كان السرير الحشبي الذي ارقد عليه غاصاً بالجردان الجريئة الضارية ، وهي تسدد اليّ نظراتها البرّاقة وكأنها تنتظر خمود الحياة فيّ لكي تجعلني طعامها المستساغ .. طعامها الذي اعتادت عليه في الحفرة المروعة .

لقد التهمت هذه الجردان كل ما تبقي من طعام في الصحن ، وكنت احاول جاهداً ابعادها عني الا انها كانت تتغلب عليّ وتقرض اصابعي باسنانها الحادة .. ومع ذلك فقد تمكنت من تلويث وثاقي الجلدي بما علق على اصابعي من دهن اللحم ثم رفعت يدي عن الارض ، واستسلمت الى الدعة التامة .

فلما احسّت الجردان بسكوتي المطلق ارتعبت وارتدت الى الخلف مسرعة ، وكثير منها قفز الى الحفرة ، الا ان اعتمادي على شراحتها لم

يكن ضرباً من العبت ، فما ان اطمئنت الى سكوني حتى عاد اضخمها
جرماً ، واشدها جرأة وراح يشم قيودي ، وكان ذلك ايذاناً لهجوم
عام شنته عليّ مئات الجرذان ، غير عابئة بحركات الرقاص ، وجثمت
على صدري وهي تقرض الوثاق ، ثم تقاطرت على رقبتني ، واخذ بعضها
يضع فمه البارد على فمي ، فاقشعر جسمي ، وتقرزت نفسي ، وانقبض
قلبي وما هي الا لحظات حتى بدأت اشعر ان نضالي قد تسكل بالنجاح ،
فالجرذان قد قرضت وثاقي في اكثر من مكان وحلته .

وهكذا اصبحت طليقاً من القيد ، غير ان الرقاص كان لا يفتأ يضغط
على صدري ، وقد شق ثوبي الحشن ونفذ الى القميص الداخلي ،
واحسست ببوارده الأليمة غير ان ساعة الخلاص قد حانت .. ولما
هزرت يدي نفر مخلصي بعيداً ، ونزعت عني بقايا الوثاق ، وانزلت
من تحت الرقاص حذراً ، ووجدت نفسي طليقاً الى حين .

وهل للمرء من حرية وهو في قبضة رجال محاكم التفتيش ؟ ..
وغادرت سريري الخشبي المرعب ، وسرت على ارض القبو الحجرية ،
فتوقفت الآلة الجهنمية عن العمل ، وارتفعت الى السقف ثانية بقوة غير
منظورة .. اجل لقد نجوت من الموت ، ولكن لأعاني ميتة اسوأ من
تلك .. فاجلت ناظري مضطرب الاعصاب ، في سجنني الحديدي ،
فلاحظت ان تغيراً غير واضح المعالم قد وقع فيه .. وقد تبينت لأول
مرة المصدر الذي يشع منه الضوء الفوسفوري ، انه يشع من شق عرضه
نصف بوصة ، يمتد حول جدران القبو من اطرافها السفلى .. وعبثاً
حاولت ان ارى شيئاً من خلال هذا الشق .

ثم ادر كنت سر ذلك التغير الذي طرأ على القبو ، ولقد بدت لي
الصور الملتصقة بالجدران جلية المعالم في الوانها ولمعانها ، انها صور اشباح

وشياطين توقع الرعب في قلب اشد الناس صلابة .. وكانت هذه
الاشباح والشياطين تسدد انظارها الضارية الكريمة الي من الف اتجاه
وتتألق ببريق عجيب غير طبيعي .

اقول غير طبيعي لأن هذا البريق اخذ يطلق حرارة تحمي صفائح
الحديد ، والبخار الساخن يعبق في خياشيمي ويكاد يقضي علي خنقاً ..
فالأنظار العميقة الضارية ترمقني بأعينها النارية وانا في حالة نزع جديد ..
واللون القرمزي الشبيه بالدماء يخلع ظله على المكان .. فبدأت الهث
من الحر .. وبدأت احس بان نفسي يضيق ، ولم اعد ارتاب في الطريقة
الجديدة التي اعدّها لي معذبي ، وهم غلاظ الاكباد ومن اشد الناس
قساوة .. وابتعدت عن الجدار الحديدي الحمى الى منتصف القبو، وانا
اطلب الطراوة الموجودة في البئر ، فاسرعت الى حافته والقيت نظرة
الى اسفل ، وكان الوهج الذي يرسله السقف يضيء اعماق تلك الحفرة
المروعة .. ويا لهول ما رأيت !.. يا لرعي والتياغي !.. فابتعدت
عن الحافة مسرعاً ودفنت رأسي بين راحتي وطفقت ابكي وانتحب .

وتضاعفت درجة الحرارة ، ورحت ارتعش كما يرتعش المرء وهو
يعاني اعلى درجات الحمى .. وطراً على القبو تغير جديد في الشكل ..
فلما رأيته رجال محاكم التفتيش قد نجوت من الهلاك مرتين ، وهم اناس
لا يحبون التسوية مع ملك الارهاب ، فقد عمدوا الى تضيق الحجرة
التي انا فيها ، وجعلوا لها زاويتين حادتين ، فروعاً لهذا التضيق
وادركت القصد منه ، وقد رافق عملهم هذا صدور اصوات جمّة مضنية
اشبه بالعواء ، ثم جعلوا الحجرة فجأة على شكل قرص تضيق حلقاته
النارية شيئاً فشيئاً ، فصرت اتحرق شوقاً لملاقاة السلام السرمدى على
جدران المحمية .. وقلت لنفسي: «الموت .. مهما كان نوعه ، ولا السقوط

في الحفرة .. ولكن أليست هذه الحفرة الرطبة هي التي يدفعني اليها الحديد المتأرجح دفعاً ؟ .. فهل استطيع مقاومة ضغط الجدران ؟ .. وزاد القرص ضيقاً أكثر فأكثر الى ان صرت على حافة الهاوية مباشرة .. فتقهقرت غير ان الجدران دفعتني الى الفوهة ، فاطلقت صرخة يأس مديدة عالية ، وترنحت ، وغمضت عيني .

وفي هذه الآونة سمعت همهمة بشرية متنافرة الاصوات ، ونفخاً في الابواق .. وصرير ابواب شديهاً بقصف الرعد .. فارتدت الجدران الشيطانية الى الخلف .. واحسست بيد قوية تقبض على ذراعي وانا على وشك السقوط في الهوة .. انها يد الجنرال لاسال .. فالجيش الافرنسي يقتحم مدينة توليدو ، وقد اصبحت محاكم التفتيش في ايدي اعدائها ! ..

أبو الهول

قبلت دعوة من أحد اقربائي ، خلال انتشار وبأ الكوليرا في
نيويورك ، لقضاء اسبوعين في ضيافته في كوخ عزلته ، المسمى بـ « كوخ
اورنه » ، والواقع على ضفة الهدسون ، وكانت تحيط بنا في ذلك
المكان كل وسائل السلوى الصيفيه ، فنطوف في الغابات ، ونرسم ،
ونجذب في القارب ، ونصطاد الاسماك ، ونستحم في النهر ، ونستمع
الى الموسيقى ، ونطالع الكتب ، وكنا على الجملة نقضي الوقت في
اللهو والمسرات ، ولكنها مصحوبة بالأنباء المروعة التي كانت تصلنا
كل صباح من المدينة الآهلة بالسكان .. فلا يمر يوم الا ويحمل لنا في
طياته انباء عن وفاة عدد من معارفنا ، ولما تعاظمت النكبة بتنا
نتوقع فقدان عدد من اصدقائنا يومياً .. واخيراً صرنا نرتعد فرقاً لدى
اقتراب كل رسول من كوخنا ، وكان يتراءى لنا جو الجنوب مشحوناً
برائحة الموت ، وقد استولى عليّ شلل الفكر تماماً ، فلم اعد استطيع
الكلام او التفكير ، او الاسترسال في الاحلام .. اما مضيبي فكان
اقل انفعالاً مني ، غير انه كان في حالة نفسية مكبوتة ، ويجهد نفسه
لمساندة حالتي النفسية ، فعقليته الفلسفية الحضة لم تتأثر بالأوهام في اي

وقت من الاوقات ، وكان يدرك كنه الرعب بالقدر الكافي ، لكنه لا يفقه ابداً المعنى من ظلال الرعب !..

فجميع المساعي التي بذلها لأنها من حالة الوحشة غير الطبيعية التي سقطت فيها ، باءت لدرجة كبيرة بالفشل ، بسبب بعض الكتب التي عثرت عليها في مكتبته ، ومن صفات هذه الكتب انها عملت على تفتيح بذور الأوهام الكامنة في قرارة نفسي ، وقد طالعها دون علمه ، ولم يكن ليُدري ما تركته في مخيلتي من انطباعات .

فمن المواضيع المحببة الى نفسي الاعتقاد بالعلامات التي تؤذن بالمستقبل المشؤوم ، وهو اعتقاد دافعت عنه بقوة في تلك المرحلة من حياتي ، وكانت لنا حول هذا الموضوع مجادلات طويلة نشيطة ، فمضيفي يتمسك برأي لا يقوم على اساس بهذا الصدد ، وقد حاججته بان هذا الرأي مجرد ذاته ينطوي على حقيقة لا تقبل الخطأ ، وهو مدعاة للتقدير والاحترام .

وواقع الامر انه قد حدث لي بعد وصولي الى ذلك البيت الريفي حادث عجزت عن تفسيره تماماً ، وهو يحمل الكثير من صفات الشؤم ، بحيث اعتبره مبرراً لنظرتي في النبوءات المشؤومة .. لقد ارعبني هذا الحادث ، وافحمني ، وشوَّش افكاري ، فانقضت عليَّ ايام عديدة وانا في هذا الحال قبل ان اتمكن من سرد ما حدث على مضيفي .

جلست اطالع كتاباً في عصر احد الايام الدافئة ، عند نافذة مفتوحة الدرفتين ، تطل من خلال منظر مديد لضفتي نهر الهدسون ، على الجزء المعري من اشجار التلال البعيدة ، وكانت افكاري تتيه طويلاً بين صفحات الكتاب الذي اطالعه وبين المدينة المجاورة الكثيبة المنكوبة ، واذ رفعت ناظري عن الكتاب شاهدت على تلك الناحية

العارية من التل مخلوقاً فظيع الشكل، ينحدر بسرعة عظيمة من القمة الى اسفل ، ثم يختفي في الغابة الكثيفة الأشجار .

فلما لاح هذا المخلوق لناظري لأول وهلة ارتبت في صحة عقلي ، او على الأقل في صحة ما رأيته عيناى، وانقضت دقائق عديدة قبل ان اقنع نفسي بانني معتوه او حالم ، واخشى ايها القراء اني عندما اصف لكم هذا الوحش ، وقد رأيته جيداً وتمعننه بدقة ، ان ترتابوا في حقيقته كما ارتبت انا .

انني اقدر حجم هذا الوحش ، بالنسبة الى قطر الاشجار العريضة التي مر بها ، وهي اشجار هائلة قليلة العدد تنتصب عند المنحدر ، بما يوازي حجم سفينة او اكبر ، اقول حجم سفينة لان شكل الوحش يوحي ذلك .

فقمه يقع في نهاية خرطوم يبلغ طوله بين الستين والسبعين قدماً ، وتبلغ كثافة هذا الخرطوم حجم الفيل العادي وهو على شكل دعامة مستندة الى الارض !.. وكانت تحيط بهذا الخرطوم كميات هائلة من الشعر الاسود المشعث، تقدر بما يمكن ان يحز من شعر عشرين جاموساً، ويتدلى من بين هذا الشعر الكث نابان برأقان ، اشبه بنابي الخنزير البري، وبحجم اعظم واضخم .. وكان يمتد الى جانبي الخرطوم صاريان هائلان يبلغ طول الواحد منها ثلاثين او اربعين قدماً ، ويبدو انهما مكوonan من البلور النقي ، وعلى شكل موشور مستوفي الهندسة ، اذ كانا يعكسان اشعة الشمس المائلة للمغيب باهى صورة .

وللوحش اربعة اجنحة هائلة ، يبلغ طول كل منهما مائة ياردة على وجه التقريب، وكلها مغطاة بقشور معدنية، وقطر كل قشرة من هذه القشور يقع في عشرة اقدام او اثني عشر قدماً ، وقد لاحظت ان

الصفوف العليا والسفلى من كل جناح متصلة ببعضها بسلاسل قوية ..
غير ان اهم ما يمتاز به هذا المخلوق المروع ، هو جمجمته التي تغطي صدره
بأكمله تقريباً .. ولصدره هذا لون ابيض برّاق ، يتصل بجسم اسود ،
كان ريشة رسّام قد رسمته بدقة تامة ..

وبينما كنت انعم النظر في هذا الحيوان المروع في شكله عامة ،
وفي مظهر صدره خاصة ، وكلي شعور بالخوف والجزع ، مع احساس
عميق بشئ مقبل لا قدرة لي على رده بالعقل والمنطق ، اجل ، بينما
كنت في هذه الحالة النفسية ابصرت فكي الوحش ، ولهما من الضخامة
ما حُرطومه ، يمتدان على حين غرة ، ويصدر عنهما صوت عال وعويل
بليغ ، فعلا في اعصابي ما تفعله دقة الموت ، وما ان اختفى الوحش
عند سفح التل حتى احسست بنحور وسقطت على الارض متهاكماً .

فأول ما كنت اود فعله بعد ان ثبت الى رشدي ، هو اطلاع
مضيفي على ما رأيت وما سمعت ، غير ان شعوراً من الاستنكاف ،
يتعذر عليّ تفسيره ، قد حال دون ذلك .. وبعد انقضاء ثلاثة ايام او اربعة
على هذا الحادث ، وبينما كنت أتناول ذات مساء مع مضيفي في العرفة
ذاتها التي ظهرت لي فيها الرؤيا ، وقد اخذت مقعدي بالقرب من
النافذة ، وهو مستلق على الكنبه قريباً مني ، رأيت نفسي مدفوعاً
بتأثير الاجتماع والمكان لان افضي له بما حدث ، فاصغي اليّ حتى
النهاية ، فما كان منه في بادئ الامر الا ان اخذ يضحك من الفؤاد ..
ثم توقف عن الضحك وتحول الى الجد التام ، كأنه اقتنع بان جنوني
لا يحتمل الشك قطعاً .. وفي هذه الأثناء رأيت الوحش من النافذة
للمرة الثانية ، فصرخت مرتعباً ونهيت مضيفي اليه ، فتطلع من النافذة
باهتمام زائد ، وافادني بانه لا يرى شيئاً ، في حين انني كنت ارى

الوحش وهو ينحدر من الناحية العارية من التل .

لقد اقلقني هذا الامر ، وبت اعتبر ما رأيته بمثابة نذير بموتي ، او ما هو اردأ بمثابة مقدمة لنوبة جنونية .. فالتقيت ظهري على المقعد ، واخفيت وجهي براحتي الى حين ، ولما رفعتهما تطلعت الى النافذة فاذا بالمنظر يتلاشى .

وبعد ان استجمع مضيفي هدوءه ، راح يستجوبني بشدة بصدد الخلق الذي رأيته ، فلما قدمت له ما يرضيه من ردود ، تنهد بعمق ، كأنه قد القى عن كاهله حملاً ثقيلاً ، واخذ يتكلم بهدوء صارم عن الفلسفة التأملية ، وقد غدت محور نقاشنا ، وانني لأذكر اصراره على القول (فيما عرضه من آراء) ان مصدر الخطأ الاول في جميع التحقيقات الانسانية ، يكمن في قابلية المرء لان ينقص من قيمة الاشياء ، او ان يزيد في قيمتها ، بسبب سوء القياس التقريبي .. ومما قاله على سبيل المثل : « ان المساعي التي تبذل لنشر الديمقراطية في الانسانية الطليقة ، والعصر الذي يحتمل ان يتم فيه نشر هذه الديمقراطية ، يؤلفان موضوعاً للتقدير الصحيح .. فهل لك ان تدلني على كاتب ، يعالج موضوع الدولة ، قد فكر في جعل ما اشرت اليه موضوعاً جديراً بالنقاش ؟ .. »

وهنا توقف لحظة ، وخطأ نحو المكتبة ، واخرج منها مجلداً في التاريخ الطبيعي ، وسألني ان نتبادل مجلسينا حتى يستطيع تمييز الحرف الصغير الذي طبع فيه المجلد ، وجذب الكرسي ذي المسندين صوب النافذة ، وفتح الكتاب ، وتابع كلامه بذات اللهجة التي درج عليها سابقاً ، وقال : لم يكن باستطاعتي خلال الدقائق المفرطة التي وصفت لي فيها الوحش ، ان اعرض عليك ماهيته ونوعه ، والآن دعني اتلو عليك بياناً لتلميذ

مدرسة في نوع حيوان يسمى « سفينكس » وهو من اسرة
« كريبوسكولاريا » ، ومن فصيلة « ليبيدوبتريا » ، التابع لطبقة
« اينسكتا » - او الحشرات ، والبيان لهذا ينص على ما يلي :

« له اربعة اجنحة مغطاة بصوف ملون مظهره معدني ، وفيه
يشكل خرطوماً ملفوفاً يبرزه فكّان مديدان ، ويتدلى من على
جانبيهما اللحي الاسفل ، المغطى بالزغب . وجناحاه الصغيران يتصلان
بجناحيه الكبيرين بشعر كثيف . وقرناه على شكل دبوسين طويلين
מושورين ، وبطنه مخروط الشكل ، وابو الهول هذا صاحب « الجمجمة »
كان يثير الملح بين العامة بسبب ما يصدر عنه من اصوات سوداوية ،
بالاضافة الى شارة الموت التي يحملها على درعه » .

ولما بلغ ماضي هذه العبارة اقفل الكتاب ، ومال بنفسه الى
الامام ، متخذاً الوضع الذي اتخذته وانا اروي له قصة « الوحش
المروع » .

وهتف على الفور قائلاً : اجل ، هذه هي القضية .. واني اقرك
بان هذا الخلق العجيب كان ينحدر من على صفحة التل ، غير انه ليس
بتلك الضخامة ، او على ذلك البعد كما صورت لك مخيلتك ، وكل ما
في الامر ان هناك عنكبوتاً كانت تنسج خيوطها بين جانبي النافذة ،
وهي تعادل ستة عشر جزءاً من القيراط طولاً ، وتبعد عن بؤبؤي
عيني مسافة تعادل ستة عشر جزءاً من القيراط ايضاً !!

قناع الموت الاحمر

انتشر وبأ «الموت الاحمر» في البلاد بأسرها، وكان مروعاً لا مثيل له قطعاً .. فالدم القاني لحمته ، والاحمرار المخوف سداه .. ومن مظاهر هذا الوبأ الالام المبرحة ، والدوار الفجائي ، وتدفق الدم على الجلد ، مع انخراط مستمر .

فاذا ما ظهرت البقع القرمزية على جسم الضحية عامة ، وعلى وجهه خاصة ، يبتعد عنه الناس كما يبتعد السليم عن الأجرب ، ويحرمونه كل حنان وعطف ، والمستغرب في امر هذا الوبأ انه لا يتطلب للقضاء على المرء اكثر من نصف ساعة .

غير ان الامير بروسبرو كان سعيداً ، وشجاعاً وحكيماً ، فلم يراى ان نصف سكان امارته قد اصبحوا في عالم العدم ، استدعى الفأ من اصدقائه المعافين ، الخالين من الهموم ، وكلهم من فرسان البلاط وسيداته ، ولجأ معهم الى دير شبيه بالحصن، ضارباً عليه وعليهم حصاراً شديداً .. وكان الدير هذا عظيماً في تخطيطاته وبنياته ، انه من تصميم الأمير الشاذ ومن ابتكار مخيلته .. جدرانه عالية ومتينة، ولهذه الجدران ابواب حديدية منيعة .. فلما دخلت الحاشية الدير حملت معها الافران

لصهر الحديد ، والمطارق الضخمة ، وصنعت المتاريس المنيعه ، واقامتها خلف الابواب والنوافذ لتحول دون الخروج من الدير في حالات اليأس او الجنون العارض ، ولتكون حاجزاً في وجه من تسول له نفسه اللجوء اليه.. وقد زود الدير بالمؤونة الوفيرة، واتخذ من التدابير ما يجعل الحاشية تزدي المصابين وتسخر منهم.. فعلى العالم الخارجي ان يعنى بنفسه.. وقد عمد الامير لكي يبعد الهموم عن نفوس حاشيته ويجلب لهم السلوى ، الى تزويد الدير بجميع وسائل الترفيه ، فيحشد فيه المهرجين ، والمغنين ، والراقصين والموسيقيين ، وربّات الحسن والجمال وبراميل الخمر المعتقة.. فكل شيء متوفر في الدير ما خلا « الموت الأحمر » .

وبعد انقضاء خمسة اشهر على هذه العزلة ، وبينما كان الطاعون يفتك بالناس المقيمين خارج الدير فتكاً ذريعاً ، عقد الامير النية على اقامة حفلة مقنعة تكون آية في الأبهة والروعة .

كانت الحفلة المقنعة في الواقع مسرحاً للذائد .. ولكن عليّ ان اصف بادىء ذي بدء الغرف التي اقيمت فيها هذه الحفلة .. كانت هذه الغرف الملكية سبعة ، والعادة المتبعة في كثير من القصور ان تكون شبيهاً تتلو بعضها بعضاً على خط مستقيم ، وان تكون ابوابها ذات المصراعين تنزلق الى الخلف من الجانبين ، فتحول دون رؤية ما يجري في الغرف على امتدادها .. اما في الدير فقد كانت حالة الغرف تختلف كل الاختلاف عن حالة القصور الملكية ، وهذا الشذوذ ليس بمستغرب من امير يحب للخوارق .. لقد كانت الغرف فيه مبنية على طراز مشوش ، تكشف على بعضها في آن واحد .. وكان في الدير عطفات حادة الزوايا ، تقوم كل منها بعد عشرين او ثلاثين ياردة ،

وكل عطفة تكشف عن منظر جديد .. وفي جدران الغرف نوافذ ضيقة غوطية الطراز تطل على الممر المغلق ، تفتح عند الاقتضاء للتهوية ، وهذه النوافذ زجاج ملون يختلف لونه بالنسبة لزخرفة الغرفة .. فالغرفة الواقعة في الطرف الشرقي مزخرفة باللون الازرق ، وزجاجها ملون باللون الازرق ، والثانية طنافسها وردية اللون ، وزجاجها وردي ايضاً ، والثالثة خضراء ، والرابعة برتقالية ، والخامسة بيضاء ، والسادسة بنفسجية .. اما الغرفة السابعة فكانت متشحة بالسواد ، وقد تدلت على جدرانها الستائر المخملية السود حتى اقتصت اطرافها بطنافس سود فرشت على الأرض ، الا ان لون زجاج نوافذها قد اختلف عن لون زخرفها ، لقد كان احمر مثل الدم القاني .. وكانت الغرف كلها خالية من المصابيح او من حاملات الشموع ، لكنها تضاء باشعة ترسلها النيران من مواقد صُفّت وراء النوافذ في الممر ، فتخترق هذه الاشعة الزجاج وتخلع على الغرف المحلاة بالذهب ضوءاً مشيراً من لونها ، واما الغرفة السابعة التي كانت تتسرب اليها الاشعة الحمر من خلال الزجاج الدامي ، فتترك في نفس من يدخلها اثراً مروعاً ضارباً ، ولم يكن من الحاشية من يجرو على ولوجها الا نفر قليل .

وكان في هذه الغرفة السوداء ساعة ضخمة مغلفة بخشب الابنوس ، يروح رقاصها ويحيي ثقيلًا ، متكسلًا ، رتيبًا ، واذا ما دار عقربها واتم ساعة من دورانها ، فان رثتها النحاسيتين ترسلان صوتاً موسيقياً جلياً ، عاليًا ، وعميقاً ، يتسم بطابع خاص ، ويحمل الموسيقيين على التوقف عن العزف فجأة ويسمر الراقصين في اماكنهم ، وتكتنف القوم المرحين بلبلة الى حين ، فالمصاب منهم بالدوار يمتنع وجهه ، والمسكين يمسح حاجبيه كمن يضطرب في تأملاته .. وعندما يتلاشى صدى الساعة

تماماً ترسم على ثغور الحضور ابتسامات خفيفة ، ويتطلع الموسيقيون في وجوه بعضهم بعضاً وهم يتسمون وكأنهم يهزؤون بما هم عليه من عصبية وجنون وتكرر هذه الحالة كلما اعلنت الآلة الضخمة انسلاخ ساعة من الزمن ...

وبالرغم من ذلك كله ، فقد توالى المرح والقصف ... فللأمير ذوقه الخاص ، وله نظراته في الالوان واثرها في النفس ، انه لا يحفل بالزخرف المجرد ، ومشاريعه جريئة نارية ، وافكاره تنقد بلهان همجي .. وهناك من الناس من يظنه معتوهاً ، في حين ان اتباعه يعتبرونه عاقلاً ، وكل من يسمعه ، يراه ، ويحتك به يتيقن بانه سليم الذهن ، صحيح العقل .

ولقد اوصى الامير بذاته صنع معظم الزخارف المتنقلة ، الموجودة في الغرف السبع ، لمناسبة هذه الحفلة المقنعة العظيمة .. وهو الذي اختار الألبسة اللازمة للمقنعين حسب مزاجه وذوقه .. وكانت هذه الالبسة تسطع بالضياء ، واللمعان ، وفيها حذق وخيال واسع ، منها البسة متعددة الخطوط والالوان لكنها غير منسجمة مع الاجسام التي ترتديها ، ومنها البسة خيالية تشبه انماط المهابيل ، ومنها ما هو جميل بديع ، او فاسق خليع ، او شاذ مستغرب ، او مروع مخوف ، او مثير للنفور والاشمئزاز !..

وفي الواقع ، كانت تخطر في الغرف السبع احلام جمّة ، جيئة وذهاباً .. تخطر وهي تتلون بالوان الغرف ، جاعلة من الموسيقى الضارية التي ترقص على انغامها كأنها صدى وقع خطاها .. وكانت الساعة الابنوسية ترسل دقاتها بين حين وحين ، فيصمت الجميع الا هي .. فتتجمد الاحلام في رؤوس القوم الواقفين كالاصنام ، ولكن ما ان تتلاشى اصوات دقات الساعة حتى تشع الابتسامات على ثغور القوم ، وتصدح الموسيقى

ثانية ، وتذتعث الاحلام من جديد ، وتأخذ في التخطر المرح جيئة
وذهاباً اكثر من ذي قبل ، وهي تقبّس الالوان من النوافذ الكثيرة
التي تخترقها تيارات من اشعة المواقد .. اما الغرفة السابعة التي تقع في
الجهة الغربية من الدير ، فلم يجرؤ احد من المقنعين على ولوجها ، لأن
الليل آخذ بالامتقاع ، والاشعة الحمر تخترق زجاجها الدامي ، وسواد
الستائر المنسدلة على جدرانها يوحي الذعر .. فالمرء الذي تطأ قدماه
طنافسها السود ، تبلغه قهقهات مبهمّة صادرة عن الساعة الابنوسية ،
لكنها اكثر وقاراً من قهقهات القوم المنغمسين في الغرف الأخرى .

كانت تلك الغرف مكتملة بالحاشية ، ينبض فيها عرق الحياة
قوياً ، والقصف فيها قائم على قدم وساق، الى ان اعلنت الساعة حلول
منتصف الليل .. فتوقفت الموسيقى عن الصبح وكف الراقصون
والراقصات عن الدوران ، وساد المكان سكون عميق .. واستغرق
القوم في التأمل والتفكير .

ولما انتهت الساعة الدقة الثانية عشرة ، انتبه معظم القوم الى وجود
شخص مقنع فيما بينهم ، فاستأسروهم منظره ، وراحوا يتهامسون بشأنه
ويتمتمون، ثم صاروا يعربون عن استقباحهم اياه حتى غمرتهم موجة من
الفرع والهلع .

لقد كان من المتوقع الا يسفر ظهور هذا المقنع غير الطبيعي عن
اثارة مجتمّع كالجمتمع الذي ائيت على وصفه .. لكنه كان اروع من
مرعب ، واهول من الزخارف التي ابتكرتها خيلة الامير .. ولم يبق
وتر من اوتار قلوب اكثر الحاشية لا مبالاة الا وقد مسه الانفعال ..
حتى ان اولئك الذين لا تهمهم الحياة او الموت قد بادروا الى اظهار
فرعهم من هذا المقنع الغريب ، فلباسه وصورته تتوكان في النفس اثرأ

عميقاً ، كان طويل القامة هزيلًا، يرتدي لباساً يوحي الوقار ، ادا القناع الذي اخفى به وجهه فيشبه ملامح الميت المتشنج العضلات !.. واما ثوبه فملطخ بالدماء ووجهه يند بالفزع القرمزي .. وسرعان ما صار القوم يتناقلون عبارة « الموت الاحمر » !..

وحين وقع نظر الامير بروسبرو على الشبح ، الذي كان يتخطر بين الحضور ، و كله وقار واصرار، اضطرب ومسته رعشة من الفزع، لكنه عاد فقطب حاجبيه حانقاً ، وصاح في الحاشية القريبة منه : من هذا الذي تجرأ واهاننا في عقر دارنا بمكره المجدف ؟.. امسكوه وانزعوا القناع عن وجهه !.. علينا ان نعرف من سنشلق على القلعة عند طلوع الفجر !..

كان الامير بروسبرو يقف في الغرفة الزرقاء الشرقية حين ارسل صرخته هذه .. وقد اخترقت كلماته الغرف السبع عالياً وبكل جلاء، فهو رجل قوي ، شديد البأس .. وقد كفت الموسيقى عن العزف بحركة من يده .

ففي بادىء الأمر تقدم نفر من الحاشية في اتجاه المقنع الدخيل .. غير انه لم يأبه لهم وسار من امام الامير بخطوات متتدة محكمة .. فواقع الرعب في قلوب الحضور ، واحجموا عن الاقتراب منه وآثروا الالتصاق بجدران الغرف .. اما هو فقد اجتاز بخطواته المتزنة الغرف السبع ، فاهتاج الامير لهذا التحدي ، وخجل من جنبه الموقت ، فاخترق الغرف كلها مسرعاً ، لاحقاً بالدخيل ، والحاشية ترمقه بنظرانها الهالعة ، الى ان اقترب منه وهو يلج الغرفة السوداء ، واستل خنجره وحاول ان يطعنه به ، فاستدار الشبح على حين غره وجابهه وجهاً لوجه ، واذا بالامير بروسبرو يرسل صرخة حادة ، ويفلت الخنجر من

يده ليستقط على الطنفسة السوداء، ويخر فوقه ميتاً ... ولما رأى القوم
ما حلّ باميرهم استجمعوا قواهم اليائسة واقتحموا الغرفة السوداء ..
وامسكوا بالدخيل، الذي كان يقف بقامته الطويلة ، الى جانب الساعة
الابنوسية ، ثابت الجنان ، ولشدّ ما ادهشهم واثار الهلع في قلوبهم حين
رأوا ان ما يسكونه ان هو الا كفن يغطي هيكلاً عظيماً شبيهاً بالقناع
الذي يضعه على وجهه ، وان احداً من المخلوقات لا يسكن ذلك
الهيكل .

والآن فقط تيقن القوم انهم ماثلون امام «الموت الاحمر» ، لقد
جاءهم كما يجيء اللص في الليل ، وصار يصرع الحاشية الالهية الواحد
بعد الآخر .. وتوقفت الساعة الابنوسية عن العمل عند مصرع آخر
شخص منهم .. وكفّت المواقف عن ارسال اشعتها عبر النوافذ ..
وساد المكان ظلمة حالكة وفناء دائم هو « الموت الاحمر » !..

القط الأسود

هذه قصة ضاربة ساذجة لا اتوقع ولا التمس من احد تصديقها ...
وانني اكون معتوهاً لو فكرت في شهادة احد بصدد هذه القصة او
قبلتها... لكنني في الواقع لست معتوهاً، او حالماً... فغداً سأموت،
واما اليوم فعلي ان القي العبء الثقيل عن عاتقي . فالهدف المباشر
الذي ارمي اليه هو ان اضع امام العالم سلسلة من الحوادث المنزلية
بطريقة واضحة ، مختصرة ، لا يتخللها شرح او تفسير ، وانني ذاكرها
لانها عملت على اشاعة الرعب والفرع في نفسي ودمرتها ... قلت انني
لا احاول تفسير هذه الحوادث فهي بالنسبة لي لا تمثل الا الهول ،
لكنها بالنسبة لغيري من الناس لا تمثل الا التشويش الفكري ..
ولربما يرى بعض المثقفين في قصتي هذه ما يدعو الى التقليل من اهميتها،
ولربما يرى غيرهم من المثقفين الذين يتحلون بالهدوء والرزانة والمنطق ،
انها مجرد تعاقب عادي لحالات طبيعية .

كنت منذ صغري اتسم بالطاعة والشفقة ، وقد بلغت بي رقة القلب
من الجلاء بحيث جعلني رفاقي هدفاً لمزاحهم ومجونهم ، وكنت اعطف
بصورة خاصة على الحيوانات ، وقد اندفعت مع والدي في تربية مجموعة

كبيرة متنوعة منها اقضي بصحبته معظم اوقاتي ، ولا احس بالسعادة الا اذا اطعمتها ولا طقتها ، وقد نمت في هذه السجبة مع العمر ، ولما بلغت سن الرجولة كانت تربية الحيوانات مصدر مسرة كبيرة لي ، وانني لست بواجد مشقة في اقناع من يظهر محبة للسكب بالفوائد التي يجنيها من امانته وفطنته .. فالتضحية التي يظهرها هذا الحيوان ، والحب الذي يتصف به ، يتركان اثرأ عميقاً في نفس من اتاحت له المناسبات ان يختبر صداقة الانسان واخلاصه .

لقد تزوجت صغير السن ، وكنت سعيداً لأن اجد في زوجتي ميلاً لا يتعارض مع ميولي ، فاذا رأيت ما اكنه من حب للحيوانات الأليفة عمدت الى اقتناء الانواع المستحبة منها ، فكان عندنا طيور واسماك مذهبة ، وكلب جميل ، وارنب ، وقرود صغير ، وقط .

وكان هذا الاخير كبير الحجم ، وناعم الممس ، لونه اسود حالك ، وهو ذكي الى حد عجيب ... حتى ان زوجتي كلما تحدثت عن فطنته رددت القول الشعبي القديم ، بأن القطط السود ليست سوى سحرة متنكرين !.. في حين انها ، اي زوجتي ، لم تكن لتعتقد بالخرافات قطعاً .

ولقد اطلقنا على القط اسم «بلوتو» فغدا صديقاً لي جميعاً ، اطعمه بذاتي ويتبعني اينما ذهبت ، بل اجد مشقة لردعه عن تعقيبي في الشوارع .

وتوالت صداقتنا على هذا النحو سنين عديدة ، الى ان تعرضت طباعي لتبدل ملحوظ نتيجة للأدمان على شرب الخمر ، واخذت تسير من سيء الى اسوأ .. فاصبحت ، وانا احمر خجلاً لهذا الاعتراف ، حاد المزاج ، سريع الانفعال ، لا اكترث بشعور غيري من الناس .. حتى انني اخذت استعمل لغة السكارى مع زوجتي ، ثم تطور بي الامر

الى الاعتداء عليها، اما حيواناتي الأليفة فقد اخذت تحس ايضاً بالتبدل الذي طرأ عليّ ، فلم اهملها فقط ، وانما اخذت اسوء معاملتها .. اما بلوتو فقد كنت اردع نفسي عن الحاق الأذى به، كما كنت احبهم عن أذية الارانب ، والقرود ، والكلب ، الا اذا اعترضت هذه الحيوانات سبيلي بالمصادفة .. غير ان المرض تحكم بي ، واي مرض اسوأ من الأدمان على الخمرة ؟ .. واخيراً جاء دور بلوتو بالذات ، وقد هرم وامسى نكدآ ، فصار يتلقى مني الوانآ من الاساءة والأذى .

وعدت ذات ليلة الى البيت وانا مخمور ، وخيّل اليّ ان القط يتهرب مني ، فامسكت به بشدة فارتعب وعضني عضّة خفيفة ، فارتعشت من انمصاص قدمي حتى قمة رأسي ، واستشطت غضباً ، وفقدت وعي ، واستولت عليّ وحشية شيطانية ، ومددت يدي الى جبي واخرجت منه موسى ، ثم احكمت الامساك بالحيوان المسكين وانتزعت احدى عينيه من محجرها !..

ولما صحوت من نشوة الخمرة في صباح اليوم التالي، لازمني شعور من الرعب وتبكيك الضمير ، بسبب الجريمة التي اقترفتها ، غير ان هذا الشعور كان ضعيفاً يرتاب في صدقه .. وانغمست في شرب الخمرة ثانية وفي الخمرة اغرقت ذكريات فعلتي .

وتعافى القط مع مرور الزمن ، وكان محجر عينه الفارغ يبدو مفزعاً حقاً ، وعاد الى مسلكه العادي يطوف في البيت ساكناً ، لكنه كان كلما رأيني هرب من وجهي مرتاعاً .. وقد احزنني اعراضه عني في بادىء الامر بداعي بقية من عاطفة قديمة ، وسرعان ما انقلب هذا الحزن الى حنق ، ثم تحول الحنق الى روح شريرة ملازمة .. وبت اعتقد والفلسفة عادة لا تعير هذه الروح ما تستحقه من اهتمام .. وبت اعتقد

انها المحرك الفطري لقلب الانسان ، وانها احدى الظواهر والاحاسيس
الاولية التي تعين صفات المرء ، فمن منا لم يجد نفسه مئات المرات قد
اقترب اثماً من اجل الاثم فقط ، الا نشعر في قرارة نفوسنا اننا نميل
دائماً الى خرق القانون مع علمنا ان هذا العمل غير جائز ؟ .. اجل لقد
استبدت بي روح الشر وصارت تدفعني الى الاعتداء من اجل طبيعة
الاعتداء ، والى ارتكاب الخطأ من اجل الخطأ ، وهي التي حملتني في
نهاية الامر على التشفي من القط الاسود .. فاستيقظت ذات صباح وانا
هاديء الاعصاب وامسكت به وشنقته على غصن شجرة والعبرات
تسيل على وجنتي ، وقلبي يتقطر حزناً ، شنقته لعلمي انه يجبنني ، ولانه
لم يقترب اثماً ، شنقته لانني اريد اعتراف الاثم ، ولو عرضت نفسي ،
في خلودها ، الى نقمة الخالق ! ..

وحدث في ليلة ذلك اليوم الذي شنقت به القط ان استيقظت على
صراخ « احذروا النار ! » .. فتطلعت واذا بالنار عالقة بستائر نوافذ
غرفتي ، ثم اندلعت في البيت كله ، ولم انج منها مع زوجتي وخادمتنا
الا بأعجوبة .. فالتدمير كان شاملاً ، وفقدت كل ما املك ، واستسلمت
الى القنوط .

فهل من علاقة بين هذه النكبة والفضاعة التي ارتكبتها مع القط ؟ ..
ساحاول عرض سلسلة من الوقائع لها اتصال قوي في الموضوع ، فقد
زرت انقاض البيت في صباح اليوم التالي ، فرأيت الجدران منهارة
باستثناء الجدار الذي يقوم فوق رأس سريري مباشرة ، فعزوت ذلك الى
جدة الجص ومتانته ، ورأيت جماعة من الناس وقد احتشدوا عند الجدار
وهم يتفحصونه باهتمام زائد ويتمتمون في كلمات « مستغرب » ، « مدهش » ،
« عجيب » ، فلما اقتربت من الجدار وقع بصري على شكل قط كبير

محفور على صفحة الجدار والحبل معلق في عنقه .

فأخذتني الدهشة في بادئ الامر ، لكنني لما عملت الفكر قليلاً
تذكرت انني شنت القط في حديقة متاخمة للمنزل .. ولما اندلعت
النيران فيه هرع الناس الى الحديقة من كل جانب ، فابصر احدهم القط
معلقاً على الشجرة فقطع الحبل وقذف به الى غرفتي المحترقة عبر النافذة ،
بقصد ايقاظي من نومي .. فانهار الجدار المقابل للسريـر على الجدار القائم
فوقه ، وانحصر القط ضحية قساوتي بينهما ، وطبع هيكله على الجص
الطري ، وكان للكس والنار وملح النشادر ان تضافرت على ابراز
صورته وتكملتـها .

هذا ما استنتجته عقلي لا ضميري من المنظر العجيب ، وانقضت
اشهر عديدة وانا لا استطيع التخلص من خيال القط المشنوق المحترق ،
ثم استولى عليّ شبه شعور ، وليس تبكيت ضمير ، بصدد ما فعلت ،
واسفت على خسارة هذا الحيوان الأليف ، وصرت ابحت في الاماكن
المنحطة التي اتردد اليها ، عن حيوان آخر من هذا الطراز والمظهر
ليحل محله .

وفيا كنت ذات ليلة شبه مخمور ، في خمارة هي اقرب الى المغارة ،
رأيت على حين غرة شيئاً اسود اللون ، يربض على برمـيل كبير من
« الجن » او « الروم » هو الاثاث الوحيد في الخمارة .. فسددت نظري
اليه لكنني لم اتبينه جيداً ، فسرت نحوه ونظرت اليه عن كـثب ،
فاذا هو قط اسود كبير ، كثير الشبه ببلوتو باستثناء كتلة من الشعر
الابيض غطت عنقه وجزءاً من صدره .

فلما مسسته نهض على الفور وخرخر عالياً ، ومسح جسمه على يدي
مغتبطاً ، لقد كان هذا الحيوان ضالتي التي ابحت عنها ، فعرضت على

صاحب الحانة مبلغاً من المال ثمناً له ، لكنه ابى عرضي هذا ، وافادني ان القط ليس له ، ولم ير له وجهاً قبل ذلك اليوم .

وتابعت ملاطفة القط الى ان حان موعد مغادرتي الحانة ، واذا الحيوان يبدي رغبة في اصطحابي ، فلم امانع في ذلك وصار يتعقب خطاي ، وانا اتوقف في الطريق بين حين وحين لأداعبه ، وما ان دخلت البيت حتى رفع الكلفة فيما بيننا وصار يحسب ان المنزل منزله ، وبعد قليل من الوقت اصبح صديقاً حميماً لزوجتي .

اما انا فقد وجدت نفسي امقت هذا القط شيئاً فشيئاً ، ولعل الداعي الى ذلك انني احب نفسي اكثر مما ابغض القط .. ثم تحول هذا المقت بعد مرور الزمن الى كراهية شديدة .. وصرت اتحاشى الالتقاء به واتجنب ايذاءه متأثراً بذكرى قساوتي السابقة .. انقضت اسابيع دون ان اضربه او ان اسيء معاملته ، لكنني صرت بالتدرج اتقزز من رؤيته وافرّ من وجهه صامتاً كما يفر المرء من وجه مصاب بالطاعون .

وبما زاد في كراهيتي للقط ، انني اكتشفت في صبيحة اليوم التالي لأحضاره الى البيت انه اعور مثل بلوتو ... غير ان هذه العاهة قد حبيته الى نفس زوجتي ، وهي كما اشرت سابقاً تتحلى بعواطف انسانية رقيقة كنت اتحلى بها انا ايضاً فيما مضى من الايام .

وكما ابدت كراهيتي للقط زاد بي تعلقاً وصار يتتبع خطاي باصرار عجيب .. واذا ما جلست تلبّد تحت مقعدي او قفز في حضني وهو يغمرني بدلاله الكريه .. فاذا ما نهضت دخل بين قدمي او مد مخالبه وتعلق بئيايي ، او تسلق صدري .. كان يفعل ذلك وانا اتحرق شوقاً للقضاء عليه بضربة واحدة ، لكنني كنت اتردد في ذلك لا لأنني

متأثر بالجرم السابق فقط ، بل وعلي ان اعترف لانني كنت افزع من هذا الحيوان ايضاً .

انني لم افزع من القط لأنه قط ، ولكن هذا الحيوان كان يوحى لي الرعب والهلع باجلى معانيهما .. ولقد استرعت زوجتي انتباهي اكثر من مرة الى الشعر الابيض الذي كان يغطي عنق القط وصدره ، والذي كان يميزه عن ذلك الذي قضيت عليه .. فالشعر الابيض هذا كان في بادىء الامر غير محدود الشكل لكنه اخذ فيما بعد يضيق ويأخذ شكلاً واضحاً معيناً .. لقد صار يشبه شيئاً ارتعب من ذكره واتقزز ، شيئاً مروعاً كريهاً هو آلة الارهاب والجريمة ، هو سلاح النزع والموت ، هو حبل المشنقة !..

لقد اصبحت في الواقع بانساً بكل ما في البؤس من معنى .. وهذا الحيوان القط يستنفد قواي ، انا الرجل المخلوق على صورة الله العلي .. انها لمصيبة عظيمة .. اواه ، لم اعد اعرف للراحة طعماً ، فالقط السابق اقض مضاجعي ، وهذا القط يستبد بي ويجعلني في رعب دائم .

وفقدت تحت وطأة هذا العذاب كل ما تبقى فيّ من طيبة ، وصارت الافكار الشريرة تلازمني في كل حين ، وتفاقت حدة الطبع فيّ حتى تحولت الى كراهية لكل شيء ولكل انسان ، وكانت فوراتي ونزواتي تنصب على رأس زوجتي الصبورة المسكينة .

واضطجعتني زوجتي ذات يوم في مهمة منزلية الى القبو الارضي ، التابع للبيت الذي اضطررتنا الفاقة الى سكناه ، ولحق بي القط وانا انزل الدرج وتعثرت به ، وكدت اندهور ، ففقدت وعي ورفعت الفأس لأسحقه بها غير ان زوجتي امسكت بيدي وحالت دون بغيتي

هذه ، فهاجني تدخلها واعمى بصري ، فخلصت ذراعي من يدها
وانغمدت الفأس في رأسها .. فسقطت على الارض جثة هامدة ..!

وبعد ان انتهيت من اقتراف هذه الجريمة الشيطانية ، اخذت
افكر ملياً في كيفية اخفاء الجثة ، لانني لا استطيع اخراجها من القبو
لا بالليل ولا بالنهار دون ان استرعي انتباه الحيوان .. فجالت في
خاطري مشاريع شتى ، منها ان اقطع الجثة الى اجزاء صغيرة ثم اقيها
في النار ، او ان احفر لها قبراً في ارض القبو وادفنها فيه ، او ان
اقطعها واضعها في صندوق واخرجها من الدار كأنها بضاعة من
البضائع .. واخيراً توصلت الى فكرة رأيت فيها الحل الأمثل ، وهي
ان ادفن الجثة في جدار القبو كما كان يفعل رهبان العصور الوسطي مع
ضحاياهم .

وفي الواقع وجدت في الجدار فتحة واسعة ، هي بقية موقد قديم
فحشرت الجثة فيه ، وسدته بحجارة كانت هناك ، وجصسته بالتراب
القديمة فجاء بعيداً عن كل شبهة ، وتلفت حولي منتصراً وخاطبت نفسي
قائلاً : وهكذا فان مجهودك لم يذهب سدى ..!

اما الخطوة التالية التي كان عليّ اتخاذها ، فهي ان اقتنص القط
السبب المباشر في الجريمة المروعة التي اقترفتها ، ويبدو ان الحيوان لما
رآني وانا في ثورة من الغضب فرّ من وجهي ، فبحث عنه دون
حدوى وتوقعت ظهوره ليلاً ، لكنه آثر البعد والاختفاء ، فتمت تلك
الليلة مطمئناً لكن نفسي كانت تترجح تحت عبء ثقل .

وانقضى اليوم الثاني والثالث دون ان ارى لمعذبي وجهاً فتتنفس
الصعداء ، اذ تبقنت انه قد غادر الدار ولن تراه عيناى الى الأبد ..
فسعادتي بلغت منتهاها .. اما الجريمة مجد ذاتها فلم تضايقني كثيراً .

وفي اليوم الرابع من وقوع الجريمة دلفت الى المنزل جماعة من الشرطة واخذت تفتشه بدقة تامة فلم تترك زاوية فيه الا وفحصتها ، ثم اقتادني الى القبو فسرت معها هادياً الاعصاب مطمئن البال وقلبي ينبض كما ينبض قلب البريء .

واندفعت تفتش القبو ارضاً وجدراناً ، وانا اضع يدي على خاصرتي واروح واجيء مطمئناً ، واذا اقتنعت الشرطة بخلو القبو من اي اثر للجريمة وكادت تغادره قلت لها بنشوة المنتصر : « اني مغتبط ايها السادة لتمكني من تبديد اشتباهكم وارجو لكم صحة جيدة .. وبالمناسبة ايها السادة ان هذا البيت جيد البناء ، اي ان جدرانها منيعة وقد شدت حجارتها الي بعضها شداً محكماً .. » ، وطرقت الجدار في الموضع الذي اخفيت فيه الجثة بقضيب كان بيدي واذا بصرخة خفية مقطعة تصدر عنه ، صرخة تشبه شهيق الاطفال ، ثم تحولات الى صياح عال متواصل ، والى عويل غير بشري ، ولولة مروعة ، كأنها صادرة عن شيطان او عن مجموعة من الشياطين .

فاخذتني الدهشة وجمدت امام الجدار ، غير ان رجال الأمن الذين استولى عليهم الذعر لهذه المفاجأة ، تجمعوا عند مصدر الصوت وراحوا يعلمون في الجدار معاوهم وسرعان ما سقطت الجثة على الارض ملطخة بالدماء المتجمدة ، وقد عمل الانحلال فيها عملاً بليغاً ، وما كان اشد عجبي عندما رأيت القط الذي حملني على اقتراف الجريمة يجلس عند رأس الجثة وفمه احمر قان ، وعيناه تقدحان شرراً ، فهذا الحيوان المشؤوم المروع قد دُفن في الجدار مع الجثة وهو الذي وشى بي بصوته المنكر وسلمني الى يد الجلاد .

الرسالة المسروقة

كنت في ليلة عاصفة من ليالي خريف سنة - ١٨ امتنع النفس
بمسرة مزدوجة من التأمل والتدخين بالغليون في محل بيع الكتب
الخاص بصديقي اوغست دوبان ، الواقع في الطابق الثالث رقم ٣٣
شارع دونو - ضاحية سان جرمان بباريس ، والتزمنا الصمت التام
خلال ساعة من الزمن ، حتى ليخال للناظر اليينا ونحن على تلك الحال
ان ليس لنا من عمل سوى اطلاق حلقات الدخان في الهواء .. اما انا
فقد كنت في الواقع افكر في المواضيع التي تناقشنا بها عند حلول
المساء والتي لها علاقة بقضية شارع مورغ ، وبالعموض الذي يكتنف
مقتل ماري روجه ، وانفتح باب المكتب على حين غرة ، ودخل علينا
رئيس شرطة باريس المسمو (ج) فرحبنا به ترحيباً حاراً ، اذ لم نره
منذ اعوام ، وهو الرجل الذي نتفكه به اكثر مما نزدريه ، وقال لنا
انه انما جاء ليستطلع رأي صديقي في امور رسمية سببت له الكثير من
العناء والمتاعب .

فاجابه دوبان : الا ترى يا حضرة الرئيس ان ندرس الموضوع في
العتمة ؟ ..

فقال له الرئيس : انها لفكرة غريبة هذه التي تقترحها ، وكان من عادة رئيس الشرطة ان ينعت كل شيء يعجز عن ادراكه بـ « الغريب » ، فغدا يعيش في جو من « الغرائب » .

واجابه دوبان انك مصيب فيما تقوله يا حضرة الرئيس .. وقدم له مقعداً مريحاً وجليوناً .

وسأله : وهل اعترضتكم صعوبات جديدة في قضية الجريمة ؟ ..

قال : لا شيء من ذلك ... فالقضية ابسط مما تصور وبوسعنا معالجتها بمفردنا ، غير انه قد تبادر الى خاطري انك تود سماع بعض تفصيلات هذه الجريمة الغريبة .

فقال دوبان : اجل ، بسيطة وغريبة ! ..

فاجابه رئيس الشرطة : المحير في هذه القضية انها بسيطة لكنها تجبط مساعينا في آن واحد .

فقال صديقي : يلوح لي ان بساطة هذه القضية هي التي تزجكم في الخطأ الدائم ؟ ..

فاجابه رئيس الشرطة وهو يضحك : ما هذه الترهات ؟ ..

فقال دوبان : ربما تكون الجريمة قليلة الغموض .

فاجابه الرئيس : يا للسماء .. ما هذا الكلام ؟ ..

فقال دوبان : القلة في الغموض شاهد على وقوع الجريمة !

فقهره رئيس الشرطة عالياً وقال : حقاً يا دوبان انك ستقضي عليّ بهذا .

فسأله : وما وراءك بعد هذا كله ؟ ..

فعدل الرئيس من جلسته ، وارسل الدخان من غليونه في الفضاء ،

وقال : سأقول لكما كل شيء في كلمات معدودات ، وعلي ان احيطكما علماً مقدماً ان هذه القضية تتطلب كتمان السر الشديد، وانني اعرض نفسي لضياح وظيفتي اذا ما علم انني افضيت بها الى احد من الناس . فقلت له : تكلم ولا بأس عليك .

فقال دوبان : او امتنع عن الكلام اذا شئت ..

فاجاب : ساقص عليكم ما حدث .. لقد تلقيت معلومات من مصدر عالٍ جداً تفيد ان وثيقة هامة قد سرقت من القصر الملكي .. وقد عُرف السارق اذ رؤي وهو يدسها في جيبه ، ولا تزال في حوزته حتى هذه الساعة .

فسأله دوبان : وكيف عرفتم ذلك ؟ ..

فاجاب : لقد استنتجنا الامر من طبيعة الوثيقة بمجد ذاتها ، ومن عدم ظهور النتائج التي سرقت من اجلها . فقلت له : افصح القول .

فاجاب : ان الوثيقة هذه تخول حاملها سلطة نافذة المفعول في بعض الاوساط البارزة .

فقال دوبان : لا زلت أتخبط في بحر من الغموض .

فاجاب : ان البوح بسر الوثيقة الى شخص ثالث ، وليس من داع للتنويه باسمه سيمس شرف شخصية تشغل ارفع المراكز .. وهذه الحقيقة نجعل للرجل الحائز على الوثيقة سلطة بعيدة المدى على اشخاص مرموقين وتعرض شرفهم وهناءهم الى كثير من الاخطار .

فقاطعته قائلاً : ولكن هذه السلطة رهينة بمعرفة المسروق منه لشخصية السارق و...

فقال رئيس الشرطة : ان السارق هو الوزير « د » ، والاسلوب الذي اتبعه في السرقة كان جريئاً.. والوثيقة المعنية - وهي في حقيقتها رسالة - قد تلقتها الشخصية السامية وهي في الخدع الملكي ، وبينما كانت تحاول الاطلاع على مضمونها دخلت عليها شخصية سامية أخرى على حين غرة فعمدت الى اخفاؤها عنها ، لكن الشخصية السامية امرتها بان تضع الرسالة مفتوحة على الطاولة.. وفي هذه الآونة ولج الخدع الملكي الوزير « د » ولاحظ ارتباك الشخصيتين الساميتين ثم وقع نظره على الرسالة الملقاة على الطاولة وعرف من خطها انها السر في هذا الهجوم السائد ، فاخذ يحدث العاهل في مواضيع مختلفة ، ثم اخرج من محفظته رسالة تشبه في مظهرها الرسالة التي على الطاولة ، وفتحها كمن يحاول تلاوتها ثم وضعها الى جنب تلك.. ثم تحدث ثانية في مواضيع عامة شتى ولما انتهى من حديثه تناول الرسالة المعنية وخرج تاركاً على الطاولة رسالة عديمة الاهمية .

فقال لي دوبان: اذن هذا ما عنيت به بقولك ان المسروق منه يعرف شخصيته السارق ؟..

فاجاب رئيس الشرطة : اجل وقد استخدم السارق السلطة التي غدت في حوزته في مهام سياسية على درجة عالية من الخطورة .. والشخصية المسروقة منها تزداد اقتناعاً يوماً بعد يوم بضرورة استعادة الرسالة .. وهي لا تستطيع طبعاً المطالبة بها صراحة ، وقد أوكل الي امرها .

فقال دوبان : فلمن تحولها ان لم يكن لك ، وانت رئيس الشرطة القدير ..

فاجابه الرئيس : اتداعيني ؟..

فقلت له : من الواضح ان الرسالة لا تزال في حوزة الوزير وقد
تضاعفت سلطته لمجرد وضع يده عليها قبل ان يستعملها في تحقيق مآربه ..
اما اذا عنّ له واستعملها فسيفقد هذه السلطة التي يتمتع بها .. أليس
كذلك ؟ ..

فاجاب : ان ما تقوله هو عين الصواب وانني اعمل وفاقاً لهذا
الرأي ... واول ما اسعى اليه هو تفتيش نزل الوزير دون علمه وقد
حذرت من الاخطار التي ستسفر عن اشتباهه بالخطّة التي رسمناها له .
فقلت له : انني لا ارتاب في اتقانك اعمال التفتيش وللشرطة
الباريسية شهرة في هذا المضمار .

فاجاب : اجل ولهذا السبب تراني غير قانط .. فعادات الوزير
تساعدني في مهوتي ، فهو كثيراً ما يتغيب عن منزله ليلاً ، وخدمه
ينامون في مخادعهم البعيدة عن غرفته ، ومعظمهم من اهالي نابولي
السكريرين .. وانني احمل مفتاحاً كما تعلم الجبهة اية غرفة او اي مكتب
في باريس .. وها هي ثلاثة اشهر تنقضي وانا لا اترك ليلة تمر دون
تفتيش منزل الوزير .. فالقضية تمس شرف منصبي ثم ان هناك مكافأة
ضخمة تنتظرني .

قلت : ولكن الا تظن ان الوزير يخفي الرسالة خارج منزله ؟ ..
فاجاب : انني ارتاب في ذلك ، فقضايا البلاط الراهنة والدسائس
التي تحاك فيه تجعل الفائدة الملحة من الوثيقة - اى قابليتها لان تبرز
الى الوجود في الوقت المناسب - امراً يتساوى مع اهمية الاحتفاظ بها .
قلت له : أقول قابليتها لان تبرز الى الوجود ! ..

فاجاب دوبان : اعني قابليتها لان تكون عرضة للابادة ! ..
فقلت له : انت محق فيما تقول .. فالوثيقة هي في بيت الوزير ولا

يحتمل ان يحملها في جيبه .

فعلق رئيس الشرطة على ذلك قائلاً : وانني اصادق على هذا الرأي .. فقد ترصدت له متخفياً مع رجالي مرتين وفتشته بكل دقة لكنني لم اعثر على الوثيقة .

فقال دوبان : لا ريب بان الوزير غير احمق ، فهو يتوقع السقوط في الكمين .

فاجاب الرئيس : الوزير غير احمق ، لكنه شاعر !..

فقال دوبان وهو يرسل الدخان من غليونه : اجل ، لقد اختبرت هذا الامر بذاتي اذ كنت انظم الشعر في يوم من الايام ، اي انني كنت ارتكب اثماً !..

فقلت للرئيس : وهل لكم ان تحدثونا عن اعمال التفتيش التي قمت بها بدقة وتفصيل ؟..

قال : لقد فتشت كل مكان ، ولي خبرة طويلة في هذا الشأن ، فطفت البيت مع رجالي غرفة غرفة ، وفحصنا الاثاث بدقة تامة وفتحنا الادراج ، وليس بخاف عليك ان الشرطة تعرف الادراج الخفية حق المعرفة ، ثم فحصنا المقاعد والمساند ، ورفعنا اوجه الى الاخونة .

قلت : ولماذا رفعتم اوجه الاخونة ؟..

قال : لان بعض الناس يرفعون اوجه الاخونة ويخفون في قوائمها ما يودون اخفاه ، ثم يعيدون الواجهة الى امامك .

فسألته : ولكن الا تستطيعون فحص هذه القوائم بالقرع عليها؟..

قال : كلا ، فهي لا تعطي صدى لانها تكون مغلفة بالقطن ..

يضاف الى ذلك اننا نقوم بعملنا دون احداث اية ضجة كانت .

قلت : ولكن ليس من العسير على الوزير ان يخفي الرسالة في اي جزء من مقعد ما ، ويتعذر عليكم ولا ريب ان تحطموا المقاعد لكي تعثروا على الرسالة ؟ ..

قال : ومع ذلك فاننا لم نترك جزءاً من مقعد او اي قطعة من اثاث الا فحصناها بدقة ، حتى اننا استعملنا المكرسكوب في كثير من الاحايين لتقصي اي اثر في الدبق او في المفصل ، فاذا ما اشتبهنا باي عبث بها اعملنا يد التفقيش على الفور .

قلت : ويلوح لي انكم فحصتم جدران المرايا الداخلية ، والفراش والبسة النوم والستائر والطنافس ؟ ..

قال : طبعاً .. فاننا لم نترك ناحية في المنزل الا وفحصناها بدقة تامة .. واذكر لك على سبيل المثل اننا قسمنا المنزل الى اقسام عدة ، وسبرنا غور كل مربع فيها ، بما في ذلك المنزلين المجاورين لمنزل الوزير . قلت مستغرباً : هل امتد التفقيش الى المنزلين المجاورين ايضاً .. حقاً انه لمجهود كبير بذلتموه .

قال : اجل انه لمجهود كبير ولكن الجائزة مغرية .

قلت : وهل فحصتم الطرقات التابعة لتلك المنازل ؟ ..

قال : ان تلك الطرقات معبدة بالأجر ، وقد فحصناها بالرغم من المتاعب اليسيرة نسبياً التي اعترضت سبيلنا .. ثم اننا لم نهمل الطحالب النامية بين الأجر فقد قلبناها جيداً في البحث عن الرسالة .

قلت : ولعلكم دققتم ايضاً في اوراق الوزير وكتبه ؟ ..

قال : لا ريب في ذلك فقد فضضنا كل رزمة ، وتصفحنا كل كتاب ، وقسنا كثافة جلد كل مؤلف مستعملين في ذلك جهاز المكرسكوب ..

اما الكتب المجلدة حديثاً فقد اعرفناها اهتماماً خاصاً وفحصناها بالابر !!..

قلت : وهل ارتدت ارض الغرف ؟..

قال : وهل من شك في ذلك .. لقد رفعنا الطنافس وفحصنا ارض
الغرف بالمكرسكوب .

قلت : والورق الملتصق على الجدران ؟..

قال : اجل .

قلت : واقية المنزل ؟..

قال : والاقية ايضاً .

قلت : لعل الرسالة مخبأة خارج منزل الوزير وانكم قد اخطأتم
التقدير ؟..

قال : اخشى ان تكون على حق في هذا الافتراض ... والآن
فما هي نصيحتك يا دوبان ؟..

فاجابه دوبان . عليك ان تعيد فحص المنزل !..

قال : لا ارى اية فائدة في ذلك .

فاجابه : لا استطيع اسداءك اية نصيحة اخرى .. ألا قل لي يا حضرة
الرئيس ايمكنك اعطائي وصفاً دقيقاً للرسالة المسروقة ؟..

قال طبعاً ... واخرج دفتر مذكراته وقرأ وصفاً للرسالة في
مظهرها الداخلي والخارجي .. وتركنا وهو في غم شديد .

وبعد مضي شهر زارنا رئيس الشرطة مرة أخرى ، فوجدنا ندخن
هادئين كالمرّة السابقة ، فجلس على المقعد وتناول الغليون وراح يحدثنا
في امور عامة .. ثم فاجأته بهذا السؤال : وهل من جديد بصدد
الرسالة المسروقة ؟..

قال : لقد اعدت فحص المنزل كما اقترح دوبان ولكن دون جدوى ..

فسأله دوبان : وما هو مقدار المكافأة المخصصة لمن يعثر على الرسالة المسروقة ؟ ..

قال : انني اقدم شيكاً بخمسين الف فرنك لمن يعيد لي الرسالة . فاجابه دوبان بعد ان عدل من جلسته : اخرج دفتر الشيكات ايها الرئيس ، وحرر لي شيكاً بخمسين الف فرنك لأسلمك الرسالة !..

فاخذتني الدهشة لهذه المفاجأة التي لم اتوقعها ابداً ، اما رئيس الشرطة فقد صعد تماماً ، وظل دقائق معدودات عاجزاً عن الكلام ، وهو يتفرس في وجه صديقي غير مصدق ما سمعته اذناه ، وقد فغرفاه ، واطلق عينيه من حجبها .. وبعد ان ثاب الى رشده ، اخرج دفتر الشيكات وحرر شيكاً بخمسين الف فرنك باسم دوبان وسلمه اياه ، فاسرع صديقي وناوله الرسالة المطلوبة فقبلها رئيس الشرطة بيد مرتجفة ، ثم هب كالمدعور وخرج من المكتب دون ان يفوه بكلمة واحدة .

ولما ابتعد المسيو (ج) اخذ دوبان يشرح لي قصة هذه الرسالة قال : ان الشرطة الباريسية قديرة وماكرة ، وقد اقتنعت تماماً بالتجريات التي قام بها رئيسها من اجل الرسالة المسروقة ... بقدر ما بذله من جهد .

قلت : وماذا تعني بقولك بقدر ما بذله من جهد ؟

قال : ان التدابير التي اتخذها رئيس الشرطة ورجاله جيدة بحسب ذاتها ، ولو كانت الرسالة في نطاق تحرياتهم لعثروا عليها بكل تأكيد .

فضحكت لملاحظته هذه لكنه تابع حديثه قائلاً : اجل ، ان التدابير التي اتخذت للبحث عن الرسالة كانت موفقة لكنها لا تنطبق

على هذه القضية ولا على السارق .. وعيب رئيس الشرطة انه كان كثير العمق او كثير السطحية في تحرياته .. بل ان تلميذ المدرسة يفضل في نط تفكيره .. كنت اعرف تلميذ مدرسة في الثامنة من عمره يجيد لعبة (مفرد او مزدوج) ويخرج منها راجحاً على الدوام ، اما الطريقة التي يتبعها في ذلك فهي انعام النظر في وجه خصمه ، فان كان يتصنع البلاهة او المكر او التعقل ، او طيبة القلب ، جراه في ذلك ورجع الى احساسه لتنبئ بما يحس به خصمه !... وطريقة هذا الحدث هي اساس العمق المزيف المعزى الى روشفو كو ، ولا بوجيف ، وميكافيلي ، وكامبانيا لا !..

قلت: وعلى ذلك فان تشخيص ذهنية الخصم تتوقف على الدقة التي تقاس بها هذه الذهنية ؟

قال : اجل ومن هنا استنتج ان رئيس الشرطة ومساعديه قد اخفقوا في التشخيص اولاً ، ولم يحسنوا قياس ذهنية خصمهم ثانياً .. وقد اعتمدوا على حدقهم لا اكثر .. وعيهم في هذه القضية انهم لم يحاولوا تغيير المبادئ التي يتبعونها في تحقيقاتهم ، فهم اذا احشتم الاحوال الطارئة او المكافاة المغربية ، يعمدون الى توسيع نطاق اعتباراتهم دون ان يمسوا مبادئهم الاساسية ، فما الذي فعلوه في قضية الوزير ؟.. لقد فحصوا الاشياء ودققوا فيها ، وجسوها وقسموا الغرف الى مربعات واستعملوا المكرسكوب .. اي انهم بالغوا في تطبيق مبدأ واحد مبني على الحدق البشري ، في حين ان البحث عن الرسالة يتطلب عناية ، وصبراً ، وحزماً ... فالرسالة كانت مخبأة ضمن النطاق الذي كان يبحث فيه رئيس الشرطة ، فلو كيف هذا الرئيس مبادئه وفقاً للمبدأ الذي اخفيت فيه الرسالة لعثر عليها .. والامر الذي قاده الى الاخفاق

التام افتراضه بان الرئيس احمق لانه ينظم الشعر .. واقتناعه بان جميع
الحمقى هم من الشعراء !!.

قلت : وهل الوزير شاعر حقاً ، فالذي اعرفه عنه وعن شقيقه انهما
يتمتعان بسمعه ادبية .. لكنه هو شخصياً ينزع الى الرياضيات وليس
الى الشعر .

قال : انه ينزع الى الاتجاهين معاً .. ويكون صائب التفكير اذا
ما فكو كشاعر ورياضي معاً ، لكنه يتخبط في تفكيره اذا ما نظر
للامور نظرة رياضية مجردة !..

قلت : ان رأيك هذا مستغرب حقاً ، فالمعروف دائماً ان العقل
الرياضي هو العقل الممتاز .

قال : يذكروني اعتراضك هذا بقوو شامفور : « يبدو ان الافكار
العامة ، والمواثيق الشاملة هي ضرب من السخافة لانها تصلح لعدد كبير
من الناس » .. فتق يا عزيزي ان الرياضيين قد بذلوا كل ما في وسعهم
لنشر الاخطاء العامة على اعتبار انها حقائق ، ومن ذلك دسهم كلمة
« التحليل » في علم الجبر .. والفرنسيون هم واضعو اصول هذا
الخداع .

فقلت له : يلوح لي انك تشاجرت مع علماء الجبر في باريس ..
وعلى كل تابع حديثك .

قال : لقد ناقشت قيم البراهين التي لا تقوم على المنطق المجرد ..
وناقشت بصورة خاصة العلة المستخرجة من الدراسة الرياضية ..
فالرياضيات هي علم الاشكال والكميات ، والتعليل الرياضي هو منطق
مجرد يلجأ اليه عند النظر في الاشكال والكميات ، وحقائق الجبر هي

حقائق غامضة وعامة ، ونسبية الشكل والكمية لا تنطبق على نسبية
المعنويات .

فالذي اريد قوله هو ان الوزير لو لم يكن رياضياً لما اضطر رئيس
الشرطة لان يمنحني المكافأة .. وانني اعرف هذا الوزير كشاعر
ورياضي، كما اعرفه كاحد رجال الحاشيه الذين يجيدون حبك الدسائس،
وهو شخص لا تغيب عنه الاساليب البوليسية، وكان يتوقع ولا ريب
ان تنصب له الفخاخ ليلاً ، وان تجري الشرطة التفتيش في منزله بين
حين وحين .. وقد تعمد التغيب عن البيت كل ليلة حتى يوهم رئيس
الشرطة بان الرسالة ليست في منزله وانما في مكان آخر .

وهكذا فقد استنتجت انا شخصياً بان الرسالة لم تخرج من دار
الوزير فهو يريد ان تكون تحت متناول يده للاستفادة منها في
الظروف المناسبة ..

ثم خرجت بنتيجة منطقية ثانية وهي ان الوزير يرى ان عدم اخفاء
الرسالة هو افضل طريقة لاختفائها ..!

واذ تشبعت بهذه الآراء توجهت الى منزل الوزير ذات صباح، وقد
وضعت على عيني نظارة خضراء ، فوجدته مستلقياً على كرسي طويل
يتشاءب ويشغل نفسه باعمال تافهة ويتظاهر بانه في اقصى حالات السآمة
والملل .

ورحب بي كصديق قديم وتحدثت اليه في مواضيع مختلفة دون
ان ارفع النظارة عن عيني بداعي تعبهما ، ثم اخذت افحص حذراً
كل شيء يقع تحت نظري .. وقد استرعت انتباهي بصورة خاصة
طاولة الكتابة التي كان يجلس الى جانبها والاوراق والرسائل الكثيرة

المبعثرة عليها الى جانب آلتين موسيقيتين ، وبعض الكتب .

واخيراً وبينما كنت اطوف النظر في الغرفة رأيت شبكة مخرومة من المعدن معلقة على الجدار تستعمل لحفظ البطاقات ، وعليها خمس بطاقات اوست ، ورسالة متلبدة وقذرة معنونة باسم الوزير ويستدل من خطها انها كُتبت بيد امرأة .. واستقر رأيي على الفور ان هذه الرسالة المهمة والمعرضة تحت النظر انما هي الرسالة المسروقة بالذات . لكنها كانت تختلف في مظهرها عما وصفه رئيس الشرطة ، فهي هنا موجهة الى الوزير ، وهي هناك موجهة الى شخصية ملكية .. ثم ان قذارة الرسالة وحالة التلف التي هي عليها لا تتفق مع ما عرف عن الوزير من ميل الى حسن الترتيب .. فوضع الرسالة الشاذ هذا قد اكد لي صحة استنتاجي السابق وهو ان عدم اخفاء الرسالة افضل طريقة لاختفائها .

ولما انعمت النظر في الرسالة تبين لي من طياتها البارزة انها مقبولة الى الداخل وان العنوان المخطوط عليها انما هو عنوان جديد ومقتعل .. فاكتمت بهذه النتيجة وودعت الوزير تاركاً على طاولته علبة سعوطي الذهبية .

وزرته في اليوم التالي بحجة البحث عن علبة السعوط ، واذ كنا نثرثر في امور شتى سمعنا صوت طلق ناري صادر من تحت شرفة المنزل وجلبة نساء واطفال ، فاسرع الوزير الى الشرفة ليستطلع الخبر فاغتنمت الفرصة وانتزعت الرسالة من مكانها واستبدلتها برسالة مزيفة شبيهة بها .. ولما عاد الوزير سأله عما حدث فقال انه رجل معتوه وسكير قد اطلق عياراً في الهواء وافزع النسوة والاطفال ثم سار في دونه ، وواقع الحال انني كنت قد استأجرت هذا الرجل ولقمته ما عليه ان يفعله .

فقلت له : ولكن ما الذي حملك على وضع رسالة مزيفة بدلاً من تلك وكان بوسعك ان تستولي عليها في زيارتك الاولى للوزير ؟..

فاجاب دوبان : الوزير «د» رجل عصبي ، فلو اغتصبت الرسالة لما تركني اخرج من منزله حياً .. ثم انني اهدف من استعادة الرسالة الى اسداء خدمة سياسية للشخصية الملكية وانا شخصياً من انصارها .. وبينما كانت هاته الشخصية تدعن للوزير خلال ثمانية عشر شهراً اصبح هو الآن يدعن لها دون علمه .. فهو يعتقد ان الرسالة لا تزال في حوزته وهي تسخر منه وتكشف الستار عن دسائسه الى ان تقضي عليه سياسياً قضاء مبرماً .

قلت : وهل كتبت شيئاً في الرسالة المزيفة ؟..

قال : ان ترك الرسالة بيضاء يعد اهانة للوزير الخطير .. واذكر بهذه المناسبة انه قد اساء لي ذات مرة ونحن في فينا فقلت له بمازحاً سأحفظ هذه الاساءة دائماً !.. ولما كان يعرف خطي جيداً فقد رأيت ان الفرصة سانحة لان اكتب له في الرسالة المزيفة هذه العبارة .

« ان لم تلائم النية المشؤومة (إثره) فانها تلائم ولا ريب تبيست» !.

وتجد هذا الموضوع في كتاب كريبيون (إثره وتبيست) .



فهرست

٢٩ - ١٠	• • • • •	انهار منزل اوشر
٥١ - ٣٠	• • • • •	الانحدار الى مالستروم
٧٩ - ٥٢	• • • • •	جرمة في شارع مورغ
١١٤ - ٨٠	• • • • •	الخنفسة الذهبية
١٢٤ - ١١٥	• • • • •	مخطوطة في زجاجة
١٣٠ - ١٢٥	• • • • •	القلب الراوي
١٣٩ - ١٣١	• • • • •	برمين اموتيلادو
١٤٨ - ١٤٠	• • • • •	حقائق في حادثة فالديمار
١٦٢ - ١٤٩	• • • • •	الحفرة ورقاص الساعة
١٦٨ - ١٦٣	• • • • •	ابو الهول
١٧٥ - ١٦٩	• • • • •	قناع الموت الاحمر
١٨٤ - ١٧٦	• • • • •	القط الاسود
١٩٨ - ١٨٥	• • • • •	الرسالة المسروقة

Tales by Edgar Allan Poe

Published by: Dodd Mead & Company N. Y. 1952

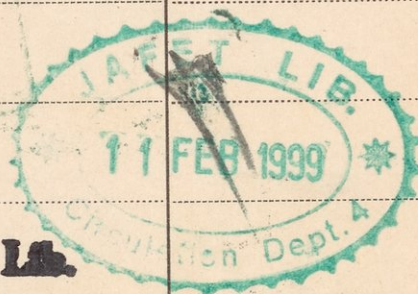


DATE DUE



30 JUL 1989

9 AUG 1986



J. Lib.

1 MAR 1988

JAFET LIB.

19 MAR 1990



صدقي، نجاتي
الخنفسة الذهبية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

01030689

A. U. B. LIBRARY

813
P74KAS

